غرام براغماتي

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

عالية ممدوح

رواية

دار الساقي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يتفقان على التدوين. لعلّ هذا جُلّ ما ينجزه بحر وراوية. نصف عراقية في فرنسا، ونصف عراقي في بريطانيا مغرمان.

المنشدة، التي يجوب صوتها العواصم، تفقد - للعمر - عادتها الشهرية. والمصوّر الفوتوغرافي يصبح مجرّد صوت على آلة التسجيل التي تتلقّى مكالماته الضائعة، إذ تتعمّد حبيبته ألا ترفع سمّاعة الهاتف. أغناء هو الصوت المسجّل لرجل يحترق؟

يكتبان يومياتهما التي تفصلهما عن بعضهما البعض. لكن الكتابة تتجاوز، رغماً عنهما، شكوى الحب والوحدة والشهوة. على أوراقهما تحضر الديار كما هي في الذاكرة: أمّاً وجدّة، «ماعون فاصوليا يابسة» وليفة استحمام جلفة. وتحضر أيضاً عُقدُهما العادية.

يفهم بحر أخيراً ذاك الملل الذي ينتابه... ملل الصياد.

وتكتشف راوية ثلمة في حائط شقتها «الكشتبان»، فتقرّر اقتفاء كل صدع مخبأ، في الحمّام وخزانة الذات...

عالية ممدوح كاتبة وروائية عراقية. صدرت لها عن دار الساقي روايتا «الغلامة» و«المحبوبات» التي فازت بجائزة نجيب محفوظ وترجمت إلى الإنكليزيّة.

ISBN 978-1-85516-637-0

9 781855 166370

DAR AL SAQI

الساقي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

صدر للمؤلفة:

- «**افتتاحية للضحك**»، مجموعة قصصية، دار العودة، بيروت ١٩٧٣.
- «**هوامش للسيدة (ب)**»، مجموعة قصصية، دار الآداب، بيروت ١٩٧٧.
- «**ليلى والذئب**»، رواية، دار الحرية، بغداد ١٩٨١.
- «**حبات النفتالين**»، ط١، دار فصول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ط٢، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.
- «**مصاحبات، قراءة في الهامش الإبداعي**»، دار عكاظ، الرباط، ١٩٩٣.
- «**الولع**»، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٩٥.
- «**التشهّي**»، رواية، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٧.

ترجمت رواياتها إلى العديد من اللغات العالمية وبطبعات متعدّدة.

تصميم الغلاف: ماريا شعيب
خطوط العناوين: علي عاصي

عالية ممدوح

غرام برامتي

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الساقي
بيروت ـ لندن

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-637-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣
e-mail: info@daralsaqi.com

إلينا

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ١ -

الأصوات

- اسمعي، هذه الآلة التي تسجّل صوتي، لا تدعني أشبع من صوتك كما ينبغي. تصعب عليّ نفسي حين أتصوّر أنك تختفين وراءها، تنظرين إلى أعلى وتمدّين لي لسانك فأنزعج وأقلق. لماذا أتخيلك موجودة لكنك لا تجيبين، لا توافقين على الرد لسبب إلهي، وها أنا أتحدث كالأبله ولا أجيد قول ما أريد قوله. أي، تماماً، مُغرم يضيق ذرعاً بك وبهذا الجهاز. إلى أين تذهبين في هذه الساعة؟ فأنا لم أحسب عدد المرات التي اتصلت بها لكني لم أترك أثراً يدلّ عليّ. ستنتهي الدقائق الثلاث ولم أخبرك بأنني سأذهب إلى باريس في...

انقطع الصوت وبدأ الصفير الرفيع حتى توقّف تماماً: كل من يهاتف يترك لي رسالة صوتية... أفكّر: إن كان عليّ أن ألتزم معك، فبِمَ سأجيبك؟ الصوت البشري قلما تكبح طبيعته فيظهر البني آدم في أثناء الكلام بكامل عدّته، التنفّس البطيء، الصمت المتقطّع، شيء من اللامعنى لبعض المفردات غير الضرورية تُقال،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وبسبب هذا وأنا أسمع الأصوات، تكون الإثارة في الأوج. هذه الآلة تواسي (المغرمين) الوحيدين الهشّين. فحين نترك الصوت على حاله الهاذية وهو يستطرد بإشاراته، فتقدّم لي بيانك الغرامي، لا أريد أن يقاسمني أحد الدقائق الثلاث، ولا أنا نفسي. رجاءً تابع، فالحبكة تُدار فعلياً بيننا على هذا النحو من المودّة والاتّصالات. وإذا ما التزمتها فسأعمل منها أرشيفاً طريفاً. وها أنا أعيد استنساخه ثانيةً وأتململ من الضيق. فصوتك وطريقتك في التدخين وصفير الجهاز، وأدهى من هذا وذاك، انتقالاتك بين مواضيع شتى، جعلتني ألمّ شتاتك نفساً بعد نفس، كما هي أنفاس أمّي حين تحضر للتوّ، وهي توقفني أمامها في بغداد، والدخان يخرج من فتحتَي أنفها صاعداً إلى أعلى السقف:

ـ واللّه حلم عندي لو أقدر أن أقلبك على البطانة وأشوف عدد الغرزات والدرزات التي خيطت جسمك ورأسك من يا طينة...

و.

أرفع صوت التسجيل إلى مداه الأخير. أقف في الممرّ الضيّق وأضيء المطبخ والحمّام والغرفتين. كدت أخرج وأفتح باب الشقّة وأبدأ بإنارة الممرّ ما بين شقق العمارة التي أسكنها. أتتبع صوتك بالتدريج، تماماً، كما كانت الوالدة تفعل حين تلاحقني وتتبعني من الطابق السفلي إلى الطابق العلوي، ومنه إلى السطح العالي. لا يحدث أن أشعر بأنني موجودة وأنتظر أوخم العواقب إلا حين تقترح الوالدة هذا النوع من الفرجة في ما بيننا، فأتوقّف وأنظر إليها بإعجاب لا نظير له. الشمس في كمال توهّجها والنظرات تبدأ من

جلدي. كل يوم تتأكّد من أحوالي؛ إنني وجميع ما أملك من ملكات لا أعرفها بعد لكنني كنت ألمح بعضها في عينَي أمي، كلها ملك لها وحدها. أغلب الظن هذا خطأ، وذاك صحيح، أعني هذه الروح التي ما زالت تركض ولم ينفد صبرها مني، وتلك التي تواصل النظر إلى سطح جلدي:

ـ كل ما أشوفك أتصوّر لونك الأبيض فضلة من ذاك الذي لا تجوز عليه إلّا الرحمة. لون راح يخلص بعد شويّة، ولا يبقى منه غير اللحم الحي. أي أنت بيضاء مثل أبو بريص.

صوتكَ يشبه صوتها شبهاً نادراً، يتفرّع ويتبرعم، يصير حاداً ورقيقاً، يتقوّى ويضعف معاً. وها أنا أكتب هذه الكلمات كما أشاء، أضع للوالدة هيكلًا رائعاً، وأدعها تتحرّك بضراوة، فتمدّ لي يدها ذات الأصابع الوارمة والأظافر المقصّفة نهاياتُها. ترقب إحدانا الأخرى؛ حرامي وكنز. نقترب كثيراً، أنظر في وجهها الساخر، ترقب زندي النحيف العاري الشديد البياض. كان حفل تعارف جديد يجري في ما بيننا تحت شعاع شمس عراقية مثالية في واقعيتها. وبدون أي سبب ظاهر للعيان، اللّهم إلّا هذا البياض الشاحب وسمرتها الغامقة المحبّبة جداً، نقف وجهاً لوجه، هي بقامتها اللطيفة وأنا بكامل تبرّجي وزينتي قبل كل مشاجرة بيننا وبعدها. في تلك اللحظة بالذات، تفيض نظراتها بالإعجاب بي، وبسرعة، وبدون تمهيد تقرصني من فخذي قرصةً كان متوقّعاً أن تكون في زندي، غيّرت خططها من دون علمي. قرصة، من الناحية النظرية لا تتبدّل على مرّ العصور، ومن الناحية العملية

كانت تذود عن العناصر الوراثية، وتجديد هندسة الزمان وحمى ذاك المكان. بقيتْ ممسكة بثوبي واللحم تحته فتعاود بحيويّة وخفّة روح. لا أعرف قوة تلك القرصات ولا اتّساع انبساطها على طول الفخذ وعرضه إلّا بعد سنين من مغادرتها. أمّي لديها قوّة أرواح عدّة، أحاول سحب تلك اليد والتفرّج على الأصابع، فكل شيء فيها يتوفّر على صحّة جيّدة وقوّة طبيعية. كل عضو عندها كان يشتغل بدينامية في أوقات العطل الرسمية، وأثناء العودة من الثانوية. صحيح هي ألعاب بهلوانية لكنها تدعنا في حالة ارتباط لا فكاك منه. هكذا مزاحنا، وحين أراها قبالتي تماماً، أبدأ باحتضانها ولثمها، فأشهق بالانتحاب الكتوم ووجهي في عبّها، أرقب حالي وأنا أسطّر لك هذه المخطوطة. إن جميع ما ذكرته للتوّ يبعث فيّ لذة بركانية وأنا أزيح سروال الرياضة الآن وأنظر إلى فخذي، في المكان نفسه، عدّة شغلها؛ القبضة، الشبهة، التحريض والقصاص المفضّل لي، ربما أكثر منها، كيف نقول، هذه صناعة عراقية دهرية، فأبدل المواقع والاختصاصات ما بين العائلة والمحبوب. وما إن ألمح أمّي تحتّ الخطى إلى هذه الصفحات حتى أشعر بأنني على وشك انتزاع حظوة قرصات العالم، وأنا أرتقي سلالم الطائرات والقطارات والباصات في هذه المدينة أو تلك فأمشي، والوالدة أضعها في الصدارة في لوحة التعذيب، وصوتها:

ـ أيّ أنت حامضة أكثر من هذي الثمار النازلة من الأشجار المغبرة، ها، تسمعين زين، حامضة ومُرّة... واللّه، أعوذ منك يا لساني، أنت مثله، تشبينه، أنت بنته مو بنتي...

هذا هو الجانب المتنافر من الأصوات، صوت الوالد العربي المكروب والمغبون، باع شخصه ولم يتسلّم الثمن. صوت القطط المهتاجة التي كنت أتفرّج عليها وأنا أسمعها تئن، يتغيّر ويتعذّب الصوت فأضعها كطعْم لي شخصياً، وعليّ واجب السهر على سلامتها من أجل تدفّق شهواتي، وذلك صوت الأمّ، مُسلّم به هنا، لكن لا طائل منه، وذكره يردّ بجوارك ومعك، ربما، فقط في الصفحات الأولى، فيدي تأكلني لكي ألمسك. فمن ناحيتي، اللمس ليس كلّه شهوانياً، في لحظة أو لحظات منه يدخل فيه الغيظ والاحتجاج، فأدير الشريط مرّة ورابعة وعاشرة، وفي كل مرّة يتضاعف إحساسي بأن صوتك يملك ضميراً مرتاحاً، فأمتصّه وأنظر إلى لعابي، وأنا أسمح لك بالتجوال ما بين فكّيّ الأعلى والأسفل، فلا أستطيع اختزال طبقاته. الكلمة الأولى كم تبعد عن الكلمة الثانية، كما نحن الاثنين في الاقتراب والابتعاد، وهذه الآلة، وأنت تطعمني صوتك باليد قطرة وراء قطرة. جنّية الأذن البشرية التي تجعلني أصغي جيداً، فأعتدل في جلستي لكي يسهل مرور الصوت لمجرى الدم، فأتصوّر صوتك وصفة شعبيّة شهيرة تقول محتوياتها: كيف نتوغّل في الآخر عن طريق عضلة اللسان، وصيوان الأذن فأعرف أنني مرغوبة عبر الإشارات التي يبثّها الصوت، فأستخرج نفسي وأتجنّب نزع جسمي من حضنك، وأنت تمسك صوتي القديم المختلط المترنّح، والمحجوز لأمّي وتأثيراتها عليّ حين كانت تتعوّذ من الشيطان فتحملني الوساوس الصحيحة والمنشّطة، فتقترح عليّ كما تقترح جنان وآنيتا وليل بين حين

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وآخر: غنّ فصوتك حسّاس، لا، يمكن أحسن من هذه الكلمة، صوتك محمّص يسمع هو وقشرته. يا للوالدة الحرّيفة التي كانت تقضي النهارات البغدادية الطويلة وهي تغنّي، ويوم أخاطبها، وأنا في الخارج كانت تجيبني بالغناء، تطلق آهة طويلة لا تتعثّر إلّا بالموت الذي نقعته منذ اليوم السابق، والعام السابق، والعمر السابق، فتغيّر طعمه، وطبقته، ورنينه. كانت تنظّف بلعومها وحبالها الصوتية أمامي بالسعال الخفيف، كأنها مطربة محترفة، ثم يعلو قادماً من القعر، وها أنا أغنّي لك يا بحر، أُطلق صوتي فوق صوتك، وأنا أصغي إليه، فنضع الصوتين جانباً، ونغادر الآلات. قهقه على مهلك كما كانت الوالدة صاحبتك تفعل هكذا بالضبط، فأقود خطوتيكما معاً ما بين الكلمات، وآخذكما في نزهة، ولا أحد منكما يعترض عليها. الأمّ وضعتني كهدف، كرة من المطّاط تضرب بها هذا الحائط فيعيدها وارمة مرضوضة وذات شقوق من الجانب الآخر. لا تتلقى بأي شيء عني، تدخّن وتغنّي ويصدر من عينيها شعاع قادر على إنارة وجهي، وما حولي، فأغمض جفوني حالًا، وهي تنفخ فيه:

ـ نيّال اللي يفكك هذا الكسم والرسم. زين ليش ما تردّين عليّ. عيطي، اصرخي، ألطمي. زين ليش ما تبكين، مشتهية أشوف دموعك.

فأبدو خرقاء وشيء فوق الغضب والحنق والألم أحضره ويسبقني إلى وجهي لكني أخلّفه كميثاق شرف، لا أدع أحداً ينتهكه، ولا أمسك السلاح وأبقر به بطني. أمّ مدخّنة يشتعل دماغها

بهلوسات وظنون من طراز متقدّم على زمانها ومكانها، تتحرّك في أملاكها الخاصة، حضرتي، لا هي تعود إلى وراء ولا أنا أتراجع عن أمام. لا تبدأ الكلام معي، تتحدّث ولا تنظر إليّ قط، تواصل قبل أن يغلبها النعاس. ألا ترى أنني أحاول إيصالها إلى برّ السلامة بدافع نظام الجور ذاك، وأنت ملتاع ومضطرّ إلى أن ترانا في تلك الوضعيات التي تزدهر على مرّ العصور فتجاملني كما يبدو، تنهض من سريرك الدافئ ونومك المتأخّر جداً كما هي، تدخّن حال الاستيقاظ ثم تشرب الشاي وتفكّر قليلًا:

ـ عال، سأتصل بها، ها، لا بأس بالأمر، أليس كذلك؟

تركب درّاجتك الهوائية ولا تلتفت إلى أيّة جهة. نظراتك ذات الاكتئاب النموذجي، والريح البحرية في مدينة برايتون هادئة في هذه الظهيرة، وأنت عاشق معتبر، لست من هواة المناظر الطبيعية ولم تتوقّف أمام التصاوير السياحية، لكن دفتر الملاحظات لا يترك جيبك الخلفي من سروالك الرمادي الغامق، والكاميرا، أظن أنها ماركة NIKON تتدلّى من صدرك. ألا ترى هذه الدعابة، وتلك البديهية الملطّفة؛ أنت صاحب القلب الخافق، النبض العالي، الكتف الهادلة من الرشاقة التي لا تختزل، بطعامك القليل والاحتراق الذي يفيض عن الحاجة، ثم التواري عن الأنظار في هذه المدينة التي لا يرقى إليها الشكّ. إنها موجودة كما أنا في شقّتي وأصغي إليك، ولا أجيبك فتذهب إلى الجانب المرح من شخصيّتي، فكرة جيّدة يكاد جميع العشّاق يقومون بها في ازدهار العلاقة، على الخصوص لو كانت لكلينا تجارب شتّى. حسناً، لم

لا تجرّب أحد بارات برايتون وهوف، أو دخول أحد نواديها؟ فالأسطورة تقول: عندك لكل يوم من السنة نادٍ. لكنك تفاضل ما بين هوف بارك الشاسعة والرحبة والجلوس على أحد مقاعدها التي طُليت حديثاً بالأخضر الزيتوني، أو تقضي فترة الصباح في ميناء برايتون، تمشي على رصيف الميناء تغمغم، وسعالك الناشف يبدأ. وفجأة، العاطفة النادرة، عاطفتك لا تطاق، فيتمّ الاتصال الهاتفي. حتماً مطلب اللقاء غير عاجل وأنت تقود الدرّاجة فيفيض شيء منك فتسلّمه إليّ، فهذه هي الموضة، الأوّل يختفي والآخر يحاول البرهان على وجوده باللغة، بالاستدراج، بالمكابرة، بالتجاعيد التي تبدأ بالظهور. **وبعد اللقاء الثاني، الموضة الرائجة أن أكون مخاتلة** معك لكني أصطفيك بالسرّ والكتمان مثل المجرمين، ولا أراهن على أحد الوالدين أو على الاثنين معاً، اليوم، ما العمل بهما، هما الاثنان، معاً أو كلّ على انفراد.

شاهدت جميع قسماتك وأنا أصغي إليك. لا أجيب، أتظاهر باللامبالاة، ببرودة الدم، وأردد بصوت منخفض:

ـ لمَ لا، قليل منها لا يفسد قلب الولهان.

أستدعي جمالك الجارح، وأنا أتمالك نفسي فتسلّم إليّ وجهك فأضعه بين كفّيّ كما في لقائنا الأول في عام ٢٠٠٥. أنظر، أرى، أكرر، وأقول هذا ليس طبيعياً، وهو أمر غير مؤكّد. الجمال لا يضبط المسافة التي يقطعها ما بين الجميل ومن يبلّغ عنه. غريب، أغلب الذين أغرمتُ بهم كان لديهم هذا النوع من الجمال اللجوج الذي لا تقدر أن تعود نهائياً منه، فتغادر إلى حيث لا تدري، كما أفعل وفعلت طوال حياتي.

تعال إذاً باسمك الأجنبي رالف ألن، وأعلن جهاراً اسمك العربي بحر الخليل. هذا صوتك بطبيعة الحال، وأنت المنادى عليه الذي أنتظر قدومه، فأنتقل ما بين عينيك البنّيتين المستعدّتين للإغراء، اللتين تطلقان شرارات تقدر على حرق وجهي وخاصرتي، فتترك آثارك على بدني. هه، هي هكذا الوالدة، من الإفراط في تشبّثها بي كنت أقوم بدلًا منها بالتحريض ضدّي، وأنا أحفّ شعر ساقي وفخذي لكي يزداداً بياضاً. أتزيّن بصورة فاقعة جداً فأتحوّل إلى مخلوق آخر لا يمتّ لي بأيّة صلة. ومن باب التهذيب الجمّ كنت لا أتفوّه بكلمة، وخططي كلها معلنة: أريد أن أكون ممثّلة ومنشدة، هذا جوهري ولا داعي للتخمين. أحتضنها حين أتماثل للشفاء، رأسي بين شعرها الكثيف ورقبتها القصيرة فأشمّ تلك الرائحة المذهلة؛ رائحة الليمون الحامض والنارنج المرّ، فأستطيع ضخّ دموعي وهي تسيل، نصفها على الرقبة، وبعضها على الصدر. تحصل كثيراً هذه الأمور يا بحر لكنني أضعها في المراتب الدنيا، فأعاود لثمها وشمّها، الرائحة تلك على بعد ألف مليون ميل، الذخيرة الباقية القابعة خلف الحواس جميعاً لا تحفظ في قنينة ولا حقيبة. أمدّ يدي اليسرى وأتلمّس تلك القرصة وأنا أدوّن لك، ما زالت تشبهنا معاً أنا وهي. أعظم إنجاز للوالدة، ضوع لا يضيع هباءً في هواء العالم، وقرصة لا تُمحى.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الأعضاء

من الطبيعي أن يتمّ هذا الانجذاب بين شخصين على شاكلتنا، أنت بسبب التبرّم والتشاؤم، وأنا بسبب الفكاهة والتقشّف الذي يدع صوتي صدّاحاً بالأناشيد التي أردّدها على مسارح بعض الدول الأفريقية والأوروبية، فكان أحدنا ينظر إلى الآخر على مستوى نصف الظهر إلى ربع المسافة بين الرقبة والثدي، وأنت ترفعني إلى أعلى، ترفع وزن الذبابة، وزني، فأستجيب برمّتي، فالاحتكاك والملامسة على أشدّهما، وهواء الشهوة يصيب كل عضو فيسهر على راحة العضو المجاور له. ليست المضاجعة الحلّ الأقصى ولا الأمثل. كنت أريد أن أرى ماذا يصدر منك في تلك اللحظات حين توقّفنا عن الكلام، وبدأت الأيدي والأصابع بالتشابك، فتشاهدني من أكثر من موضع، ترى ربلة ساقي وتمرّ على تلك البقعة التي تستحقّ الذكر والمعاينة. أحاول مثل الفلكي الغشيم أن أحزر سنّك وأتمازح مع عمري، فأعقد العزم أن أكون على الحياد، فالعمر في تلك الساعات، هو الرقم الوحيد الذي لا يحصى.

اليوم، أنا لا أجيب على اتصالاتك، أستفرد بك وحدي لكي

أوقف تقدّمك فيّ. صحيح أن طلبك غير عاجل كما هي مواعيد السياسيين المحترفين، مرّ عام ونصف العام، وأنت مسترخٍ بين مدينتَي بازل وبرايتون، ودرّاجتك الهوائية ما زالت على حالها، يغطّي الطين والرمل دولابيها، وأنت تقودها إلى الساحل، والكاميرا تتدلّى بين الرقبة والصدر، فتقف وتبدأ بتصوير إناث الحشرات والسلاحف والحلازين، وأكثر النشاطات إثارة بين الإناث والذكور، فهل تشعر بأنك حلزون، ربما بدافع الكسل. لكني أنا أضعك أمام ناظريّ وألثمك من صوتك، وهذه الظهيرة في باريس ساخنة. أغادر رأساً إلى محالّ الفناك في المونبارناس ذات الاختصاصات المتنوّعة ما بين الأجهزة الالكترونية والأقراص المدمّجة والموسيقى بكل تنويعاتها، بعصورها الكلاسيكية والحديثة إلخ. أمشي وأزفر بصوت خفيض، وأنا أتصبّب عرقاً وأتمايل؛ ألتذّ حين أدع صوتك يواصل طوفانه في أرجاء الشقّة فيدخل بين المسامّ والأصباغ وباقي الموجودات. بالطبع هذا ممكن، وأنا أخزّنه في آلة التسجيل الرقيقة والدقيقة جداً التي اقتنيتها للتوّ. قلت لي أول ما سمعت صوتي:

ـ يومياً ألعن هذه الآلة، فكلما أسمع صوتك العجول والوحيد أشتهيك وأنتشي كأيّ أعزب يعيش شظفاً جنسياً مبرّحاً.

بخطوات ثابتة عدت مشياً إلى الحي الذي أعيش فيه وكانت المسافة طويلة قدّرتها بساعة وربع الساعة، فشعرت بأن عرقي كالطوفان تحت ثيابي. نظرت إلى الرفّ الأول الذي أضع فيه جهاز التسجيل الخاص المنفصل عن الهاتف، آه ما زلت أستعمل هذه

التقنية المتأخّرة من عصور آفلة. شاهدت أشياء كثيرة بجوارهما: شموع، كبريت، أقلام، ولّاعات، أوراق ملوّنة، أجندة فات وقتها وما زالت لم تمسّ إلخ. حين دققت جيّداً وجدت أن لا لزوم لها جميعاً فسحبتها واحدة تلو الثانية ووضعتها جانباً فاتّسع الرفّ كثيراً. لمسته، كان الغبار يغطيه فلاحظت أن هناك ثلمة كبيرة وراء الرفّ في الجدار، ما إن لمستها حتى بدأت الأصباغ والقشرة تتناثر بين أصابعي وتتساقط تباعاً على الرفّ الخشبي. كانت لا تتوقّف وأنا أحدّق إليها كأنها تشير إلى الوقت الطويل الذي مرّ عليها وهي متوارية بفعل الضغط عليها، وتأخير اكتشافها بهذه الصورة. من كان يقول، تكفي لمسة واحدة فقط، من يد ساخنة وقلب مشبوب، لمسة غامضة وغير متوقعة، حيث تداخلت بها ملاحقة هذه القصّة، وهذا الشكل من الانتقام مني. هه؛ هل تريد أن ألمسك لكي يقع المحظور، هذا التفتت المرتجف لذرّات من اللحظات والأسرار الرتيبة، للغبار الذي سمح لي أن أحبّه قبل لحظات زواله، وها هو يتأرجح بالفتور ذاته الذي يبتلعني للتوّ، وأنا في معزل عن مدّ يدي أو رفعها، ثنيها أو ليّها. كنت أرقب هذه الأطوار التي ستنشط بعد ساعات أو أيام، وعليّ بدون إبطاء ألّا أعاندها أبداً وهي تهبط من بين أصابعي نازلة إلى الأرض. نظرت إلى أعلى وأنا في الممرّ فلم أر إلّا رفوفاً مكتظّة إلى آخرها ترقبني وتقدّم إليّ روحها؛ مجلّدات ودوريّات، قواميس وملفّات، مجلات وكرّاسات، وأشياء لم أعد أتذكّر ما هي، وبماذا امتلأت ومتى، فلم تسمح لعينيّ بالمرور ورؤية ما وراءها، ولو باتّساع ظُفر. كنت أجيد التحدّث وإيّاهم،

وأنا أجري في الممرّ فأدخل الغرفة الكبيرة. على الجانب الأيسر ستة رفوف طويلة عريضة تكاد الكتب والموجودات تتساقط منها بعد قليل. أطلع حالًا ذاهبة إلى غرفة النوم التي هي بدورها تحتوي على المكتب والطاولة والكرسي الدوّار والمكتبات الثابتة والمتحرّكة، والرفوف أيضاً للسقف. أجمع التي فوق رأسي وما حولي، والمجموع عشرون رفّاً عليّ تفريغها تماماً لكي أرى خلفها. تملكتني رغبة حارقة وأنا ألاحق نفسي، وأرقب كل شيء بعين نفد صبرها فأكتشف جداراً وسطوحاً وأخباراً وعناوين وصوراً، ذنوباً وأفكاراً، أشخاصاً أحياءً وموتى إلخ. كان موضوع النظر إلى وراء قد تعلّق بصوت زفيري اللاهث، وأنا أقدّر الزمن الذي عليّ المكوث فيه ما بين هذه الجهات والمسافات، وكيف تتحلّل وتتغيّر عناصرها وتتسرّب من بين يدَيّ. لماذا لم ألحظ ذلك عاماً بعد عام، وهل بمقدوري استدراك ذلك ولو نظرياً؟ أسترق النظر إلى السُلّم الحديدي الذي وضعته وبدأت الوقوف عليه. من يراقبني يا بحر يقول:

ـ ها هي تريد الترحيب بك على أحسن الصور.

هذه مقدّمة ليس إلّا، ولا أعرف من منّا المحظوظ أنت أم أنا أم كلانا؛ مباشرة وبدقّة أتتبع جميع المصطلحات ما بين المخطوفين والمغرمين الجدد، علينا اللهو قليلًا بأشيائنا العمومية قبل اللهو والاستمتاع بتخاطبنا الخاص والداخلي، فهذه أعضاء البيت كلها بحوزتي، أمامي ووراءي وفوقي، وما عليّ إلا الالتفات إليها، تصنيفها، تعريفها، تتبعها كما لو كانت نداءً سريّاً تطلقه

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الأشياء من ورائنا، وعند سماع الإشارة، أية إشارة، أو إيماءة، أو سقطة خفيفة، ما علينا إلّا رفع أنظارنا إلى أعلى والقول بصوت ودود:

- إنني هنا وسوف أعوّضك أفضل من أيّ وقت مضى.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

العادة الشهرية

أطقطق أصابعي وأقضم أظافري بآلية وشرود كلما انخفضت معنوياتي عن منسوبها الاعتيادي. الشقّة بحجم الكشتبان لكن هذه السقوف والرفوف لانهائية، تلاحقني، ويجدر بي ألّا أبالي بصورة عصابية كما حصل معي بعد توقّف العادة الشهرية واضطراب أرجائي كلها. لاحظت أنني بدوت كالأجنبية أمام نفسي. لا أتكهن بخطوتي الآتية ولا أستنتج من بيده الصنّارة أو المسدّس ويجيد التصويب إلى حوضي. كانت تلك الأيّام مهيبة، فبدا مظهري شديد اللطافة. فالحيض كان مناسبة لتأمّل اليوم الذي بقي، والرجل الذي انخطف، والوالدة التي توارت، والبلد الذي كان يتأخّر باستمرار. إلى ذلك الحدّ كانت ملامحي قد اكتملت. بعد الحفلة، حفلتي مباشرة وتعارفنا الأول في عام ٢٠٠٥ في مدينة برايتون، شممت رائحة عرقك الطبيعية وأنت تقترب أكثر من اللازم، فصار بمقدوري أخذ عيّنات من الرائحة، منّا نحن الاثنين. فرائحة حيضي كانت تعاودني بجميع المثيرات المزعجة واللذيذة. وأنت تدرّب يديك على ظهري، أنا التي طلبت ذلك منك:

ـ هيّا يا بحر مزّن يدك، أي هنا من تحت الثياب، لا تستحِ كما أشعر، وأنا لا أراك.

كانت رائحتك موجودة، حضرت ودخلت أنفي، وذراعاك يهبطان ويرتفعان على كتفَيّ وظهري. كنت أركّز على استنفار خصوبتي حين دخلتُ أنا وأعضائي في مرتبة الأفول، فقلت حسناً، من المحتمل أن تحصل التتمة عندك. تماماً، لمَ لا؟ فالدم، دمي، ذاك ثقيل الوزن ذو التكلفة الباهظة في صمغه ودبقه لم تزل رائحته من حصّتي، وأنا أحاول كما يفعل السحرة بالدم الحقيقي وهم يقدّمونه تكريماً للشهوانية والعافية. عليّ أن أخبرك وأنا في هذه السن، أنني أخلط جيداً، كما تتطلّب آداب تهذيب المُتع واللذائذ، الدم القديم والغريزة النارية بعصائر الليمون والنارنج. وما إن تبادلنا القبل العميقة الرطبة حتى لم نعد نقدر على التمييز تماماً، ما بين حسيّة حموضتي الغالية على قلبي، والتي ما فتئت تعيّرني الوالدة بها، وبين حموضة عرقك التي شممتها بدقّة في مكان ما من جسدي، أو فلنقل صارت دليلي إليك. الوالدة تشاركك في هذه الصفحات، ولو بالفاكهة التي كانت تنشف وتموت في الأشجار في حديقة بيتنا في حي المنصور ببغداد، ولا أحد يقطفها. قلت لها في أحد الأيام:

ـ يا أمّي هذه الأشجار تريد بعض الغناء والأناشيد. تريد شيئاً من اللمس والحنيّة.

الأم تلك، كانت تريد اقتلاعي منها ومن الحديقة والروائح والغبار والدم الفاسد والنقي، حتى لو متّ بين ذراعيها لحضرت

لكي تنوح عليّ. الوالدة تلك لا تعرف إلّا الإبلاغ عن الموتى، تعتقد أن للموت رائحة تستطيع التعرّف فيها على الأحياء الذين يجاورونا، والذين يبتعدون عنّا آلاف الأميال. وأنا وأنت على سرير واحد في الفندق، وكل عضو في جسمي لا يختلف عن أي عضو في هذه الشقّة. كنا نريد أن نأخذ وضعية مناسبة، وأنا أميل إلى هذا الجانب من جدار الحمّام كما كنت أميل إلى أذنك في تلك الليلة وأهمس لك:

ـ بحر، بحر يا بحر.

أنت حيّ إذاً، وهذا فأل حسن. لم تشأ تحديد اليوم والساعة، حتماً ستعاود الاتّصال. أفتح عينَيّ على اتّساعهما وأريد الرؤية مباشرة: نرى بأمّ العين، تلك الأمّ التي ترى تحت الجلد والدم والدموع والزمن والكلام والبياض والسواد حين نظهر بعضنا أمام بعض، لا أن نبرهن على ذلك كما ظهرت أنت في تلك الليلة من عام ٢٠٠٥ في يوم الرابع من تموز، في المكتبة الوطنية في مدينة برايتون. بيدك كاميرا كبيرة فشعرت بأنك تمتلك مفهوماً لطيفاً عن التقاط الصور شبه المهملة. كيف أشرح لك وأنا أشاهدك، وأنت تتحرّك بين الجمهور وبيني، يدك الإيروسية كانت حازمة في التقاط ضوئي أفضل من عينيك، فتحاول وضعي في فتحة يدك قبل العدسة فتلتقط إيماءة يدي، حركة جفوني قبل أن تُطبق، خصلة شعري وقد تلبّدت من العرق الشديد. كنتُ أتبدّل في الثانية الواحدة وأنت أيضاً. دمي أنا ما إن أشاهده في تورّد خدّي حتى أحسّ به يفرّ إلى بطني وينزل إلى أصابع قدمَيّ فأخلع فردتي

حذائي، أتركهما جانباً وأمشي حافية وأنت ورائي، لكنك لا تلتقط أيّة صورة. ليحدث ما يحدث، تتلصّص وترتاب فيّ كما أفعل بالضبط وأنا أشاهد شقوقاً في طول الجدار وعرضه. وحين رفعت رأسي إلى السقف العالي تصوّرت أننا في سباق عاجل؛ من سيتفتت أسرع من الآخر، فكلّ شيء يزداد وضوحاً، ويتكوّن الانطباع الذي لا فاصل بيني وبينه؛ إن العروق والخطوط والشقوق تقول لي، تتبع كما في المسلسلات، وإن النيّات المبيتة للحجر والأصباغ والأساسيات تسير بدقّة متناهية نحو شيء لا أستطيع ردّ قدره. أبتسم في وجوه جميع الموجودات وألقي عليها السلام:

ـ حسناً، فلنرَ عن كثب وبدقّة أشدّ.

آنيتا حدّثتك كما ذكرت لي في ما بعد:

ـ قرّر يا عزيزي بحر أو رالف؟ اسمع، هذه المخلوقة تستعمل نفسها كلها وجسدها برمّته. هي تتحدّث بالأعصاب وتتبع روحها، تُنشد وتتنقل من نشيد إلى آخر. لا تستهويها الموضة الرائجة، وأصلاً لا تعرف ما هي الموضة، لكنها تقول إن تلك الاستعراضات لا تدخل البهجة إلى القلب، قلبها.

أكثر من ساعة وأنا أرقب كل جزء في الشقّة. لم يخطر ببالي أنني أمتلك هذا النوع من مهارة المتابعة والتعرّف على حدود العواقب المحتومة التي تنتظرني. سقف الحمّام ذو الدهان اللامع تبدّى لي أول مرّة بشقوق متعرّجة وغائرة بسبب الرطوبة. كنت أؤكّد التهمة على نفسي، هل هذا معقول؟ فجميع ما أشاهده صحيح. الوالدة كانت تردّد:

ـ أريد أن أقلبك على البطانة...

أفكار الوالدة ليست شكوكاً، الخراب يجزل العطاء وما إن أمدّ يدي حتى يتساقط مسحوقاً وصبغاً وتراباً، يتّسع وتنزع قشرته فتظهر البطانة، بطانة روحي، وجوف البيت، فتلك السيّدة ما إن تخرج حتى تعود، وهي تردّد فعلاً وقولاً:

ـ أريد أن أرى اللحم الحي، لحمك. هيّا انتبهي، الخدمة انتهت.

بالإجمال، هذه هي الموضة ذات البريق الأخّاذ، وما علينا إلّا أن نطبّق بعضها أو كلّها. كانت الحلقات تتسع وأنا أتابعها، وكل شيء أتصوّره يتشتّت ويتبدّد وأنا أرقبه. لم أغلق عينيّ، ولا كنت ألتفت إلى عدستك كثيراً فأنا لا أحبّ التصوير الشخصيّ. أضع النفور والشكوك وشوائب فورية لكي أبدو ضدّي. كما هي شقّتي، كما توقّف طمثي. وصلتُ عيادة طبيبتي الروسية الأصل في أحد الأيام، تبادلنا جملاً لطيفة، ومنذ النظرة الأولى قالت:

ـ متى كان ذلك؟

منذ الانقطاع ذاك، لم أعد أشاهد الطفلة نفسها التي كانت تتربّص في داخلي فتحثّني على استثجارها للمرأة، مني مباشرة. قمت بعدة خطوات ما بين الاثنتين. يومياً أشدّ إحداهما من طرف كمّها، وأحثّ الثانية على أن تتابع طريقها وحدها. وحين استدرتُ لأرى تلك الحيطان المتراخية كجلدي، في هذه اللحظة بالذات قفزت عالياً ومسّ رأسي المصباح النازل كما غطّى شعري وجهي كلّه فتعثّرت بقدمي، وسقطت أرضاً وأنا أقهقه بصوت عالٍ. منذ

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ذلك التاريخ، وهو ليس بعيداً يا بحر، بدا العمر كالفرضية لا جدوى منه ومنها، فلا هذه تساعد ولا تلك تعرف. امرأة يتيمة، تتضايق كثيراً من الإضافات إليها، أما باقي الملحقات فأحثّ نفسي على القبول بها. في الصيف أتخفّف من الثياب اللجوجة، والحكي، وأبغض الربيع المفرط في تهوّره وشططه ما بين مسامي ورئتي، أنفي وحلقي وأذنيّ. وحين أذهب إلى شراء الخبز من المخبزة الواقعة في أول شارعنا، أشاهد إلى يميني مكتباً للسفريات فتح حديثاً بدلًا من الحلاق. توسّع وتمدّد، فأقف وأشاهد من وراء الزجاج؛ أنا أيضاً مثل هذا الدليل السياحي، متروكة بين الواجهات والمكاتب، الغرف والمدن، أبدو لامعة صقيلة، معاصرة متطلّبة ومكلفة، سواء تمّت الرحلات المطلوبة أو لا.

ماذا يقال عنّي وعنك يا بحر، لقاء الجنسين في مسّ كهربائي زائد أو ناقص. وجهي داخل عدستك. سرت وجئت، وقفت فوق رأسي، لمسته ثم لمست ذراعي. تتحدّث بإنكليزية اللوردات:

ـ رجاءً كوني كما أنت، هل هذا ممكن؟

جاذبيتك مزعجة، وما بين الحركة الاعتيادية مني، والنظر الخاص منك كنت موضوعك الفوتوغرافي في تلك الليلة. التقطت لي مئات الصور بالألوان والأسود والأبيض. آنيتا المصرية، صديقتي وزوجها الألماني الدكتور هانز يقفان بجوارنا، فتبادر قائلة:

ـ آه، هذه صور ذاتية جداً، رالف، أوقف هذا قليلًا دعنا معها، دع الآخرين بقربها، الجمهور والأصحاب والزملاء. اسمع

هذا لا يجوز. ها، ما بك، لماذا لا ترد علينا ولا تتطلع باتجاهنا.

ألتفتت إلى هانز وهي تواصل، وأنا لا أنظر إليهما تماماً:

ـ هانز، ماذا به رالف، أخبرني، رجاءً، بدأ يشطح كما في بعض المرّات، ألا تذكر؟

ـ هذا ليس وقته، دعينا نذهب ونقف بجوارها فهذا أفضل.

والنتيجة كانت أمامي؛ نظراتي المتوترة التي أعرفها كما تعرفها آنيتا، بدت على طرفَي نقيض. كلا، لم أكن من النوع الايجابي، لكنني كنت أنحاز إليك وأشعر بأننا سوف نحقق نجاحاً مدوّياً؛ أنا لا أنشد النجوم، وأنت تحتفل بي وتعيد الدم إلى غددي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

روتين

تحكّ ذقنك وأنت تصوّرني فأعرف أن الغموض أحد أهم ملهميك الكثر. في ما بعد عرفت بعض الخصائص والخصال عنك من صديقيك، وعرضاً، بالطبع لا أستطيع الإفصاح عنها الآن. قرارنا الكتابة، وليس التكلّم، كما أن ما نقوم به ليس عطلة مدفوعة الأجر، أتحدّث عن حالي، لا أدري ما هي الخطوة التي تلي هذه مباشرة، عنك أنت، وأنا أتريّث قليلاً لكي لا أغفل عن أي شيء فيك حتى لو تكرّر، فبمقدوري اختباره ثانية على امتداد صفحات آتية. هذا الضمير المتكلّم هو الذي يبتلعني فأريد اكتساحك وإخفاءك فيّ، فتمدّ رأسك بين حين وآخر، فأدعك تضحك وتقهقه. آه، لو تدري كم أفضل البشوشين المرحين والبطرين. حقيقة لا أعرف الضمير القوي الغائب، أو ما هو الضمير المناسب، فأنا لا أتطابق مع أي واحد منها، لكن في بعض الأحيان أفضّل أن أقول ـ أنتْ ـ وعلى الأغلب أكتب ـ هو ـ. حسناً، أبدأ مما تشاء، من أي شيء أو حدث، كلمة، سؤال، مناسبة منسيّة أو... دبّر أمرك فليس مهماً أن تكون الأمور جيدة،

فأنا لا أفضّل بدايات الإنكليز وهم يتحدّثون عن الطقس، ولا الأميركان وهم يتحدّثون عن الفلوس والبورصة، أما هنا في باريس، فهي تحتاج في رأيي إلى ثلاثة أشياء كلها ليست متوافرة عندي: المال والشباب والصحّة. وبسبب كل هذا أعيد سماع صوتك فأتصوّر بيدي مقصّاً، وأنا أقطع نصفه وأمصّه، والنصف الآخر أدعه في التسجيل. كانت أمامي طريقة واحدة، أفكر بها وأنا اسمعك: أنت غير موجود لكن رائحتك تتسابق بين الأنف وباقي الأعضاء. فعلى مستوى النظر للحائط الذي صارت ملاحظاتي له ناجزة، وهو يتقشّر، والقشرة تتجه صوبي، فألصق رأسي بالجدار وأسمع دبيب ما يتكسّر من خلاياه، ما بين الفراغات والأصباغ التي بدأت تتضح ثانية بعد ثانية، وأنت برفقتي، أدور بك كما كانت تفعل بي الوالدة، أملك كل الساعات لكي أزعجك فلا أقول لك تعال، ولا ابقَ. وأنت على استعداد لأن تكون معشوقي المتحفّظ، غير المتأكّد الذي يكتفي بالنيّات، وأنا أتنقّل من هذا الحائط إلى ذاك:

«وأنت تتجوّل معي فأنشد لك أحلى وأعذب الألحان»

«وفي بهجة غامرة نمضي الوقت، بهذا العذر واجهي أمّك»

«تقول لي، حلّي شعرك سنمضي معاً

أجمل اللحظات بفرح عظيم».

كل طبقة من الدهان تصلح موضوعاً للحميمية التي جعلتني أعيش هنا، وأحبّ هنا، وبإمكاني، من أجل البقاء هنا، أن لا أعرف الإجابة الحقيقية لماذا، وبماذا أجيبك، كل شيء أراه هنا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

فقد صبره معي. كنت محور اهتمامهم؛ هؤلاء الإخوة، الكتب والكرّاسات، أقراص الموسيقى، أواني الزهور المتسلّقة، ملفّات الأرشيف، الغناء العربي القديم، الأجهزة العتيقة غير التالفة، الوسائد والإنارة الخافتة، الطاولات المكتظّة بأشياء لا أدري متى وُضعتْ ومن وضعها، وخزائن الثياب الخاصة للاحتفالات والغراميات والشجارات. أشياء هائلة غير واضحة لكنها مترابطة تمتلك إصابتي في مقتل وأنا أردّد بصوت عالٍ:

ـ هيّا، هيّا تواعدي مع أولئك الرجال، أقيمي الصلات الوثيقة بالنجار والسبّاك والمهندس والصباغ والحكيم والطبيب والصديقات، جنان، آنيتا، وليل الوحيدة التي أشركها في مخاطبة حيطاني، فترسم فوقها بعض الكلام الجديد.

لكني لا أريدهم بجواري في هذه الصفحات، يزعجونني ولا تروقني بعض تصرّفاتهم وأفضليّاتهم وأولويّاتهم وآرائهم الفنية والسياسية. ربما، لا أعدك، سأخبرك عنهم بصورة أفضل من هذه، فأنا أحبّهم أكثر مما يحبّونني، ولذلك أتجاهل سوء فهمنا.

بحر، هل تريد تعريفاً مناسباً لهذه الأمتار التي أشغلها، فأنا أظنّ أنها ضاقت بي حقّاً، تريد ردعي فلم تعد تقوى على كتم الأسرار، أسراري، ولا عاد يفلح علاجي. هل تدري، بيننا صلات لا تُرى بالعين، بيننا وبين ملامح بيوتنا وغرف نومنا ووبر بطانياتنا وشراشف أسرّتنا، لا أتحدّث عن الفتوّة والكهولة وهذه العلامات الفارقة التي يضعها الزمن في طرقنا، فإذا تمعّنا جيداً في ما حولنا فسنشعر بأننا أبناء جنس واحد، ولا نزال نبحث عن مخرج، فالتخريب الذي لاحظته أخيراً كان يتوافق معي، ومن شأنه ألّا

يختزل بهذه الكلمات. أنا التي استدرجته بدون علمي، عاماً بعد عام، وهو لا يقدر على دفعي، وها أنا أرى كل شيء يبطش بي، فأتصوّر أن جميع هذه الكائنات من حولي قد وضعت يدها عليّ، فشعرت بأن من الضروري تدوينها لك. كل رسالة صوتية منك أخزّنها في الآلة الدقيقة جداً، فأشعر بأن بمقدوري تخزين العذوبة أيضاً، وأن لديّ مساحة لا بأس بها من المبادرة فيما إذا قمت بالإجراءات المطلوبة مني. أحتاج إلى اتخاذ قرارات تخصّني شخصياً، وتخصّ هؤلاء الأصحاب والأشخاص والأشقاء، وما عليّ إلا تحديد مجمل ما ينبغي القيام به بسرعة وبأسلوب شديد التنظيم، فهنا «حتى المشاعر محددة: البهجة والتسامح والثقة والطموح والقدرة على التماشي مع الجميع دون انقسام. المرح محدد بشكل روتيني، حتى وإن لم يكن هذا التحديد صارماً أو قاسياً. الكتب تختارها نوادي الكتب، الأفلام التي أشاهدها يحددها أصحاب شركات الإنتاج السينمائي، وأصحاب المسارح الذين يدفعون الإعلانات والدعايات الخاصة بها. البقية كلها موجودة عند هؤلاء القوم: يوم الأحد خروج بالسيارة أو جلوس أمام التلفزيون، لعب الورق أو الحفلات الاجتماعية. من المهد إلى اللحد، من الاثنين إلى الاثنين، من الصباح إلى المساء. كل النشاطات محدّدة بشكل روتيني. كيف يمكن الإنسان الحبيس في هذه الشبكة من الروتين ألّا ينسى أنه إنسان، أنه فرد متميّز، لديه فرصة وحيدة فقط للحياة بآماله وإحباطاته، بالحزن، بالشوق إلى الحبّ، وبالفزع من العدم والانعزال».

ماعون الفاصوليا اليابسة

حين شاهدت مجدداً الرقم الدولي لمدينة برايتون ثم بدأ صوتك مختالاً مقبلًا نحوي، لم أرفع السمّاعة وأجبتك:

ـ انتظري يا امرأة، دعيه يقاسي.

أدندن أحد الأناشيد البابلية القديمة علّك تصغي إليه؛ «لماذا ربطت رأسك بحبّي مثل عصابة الرأس. لماذا أنتِ قاسية مثل الشوك في الدغل؟» يا راوية دعينا ننجز العمل على أفضل الصور، فأطاردك بين الغرف والعبارات التي تقبل عليّ لا لبس بها «النّيء والمطبوخ». النيء هو الطبيعة والمطبوخ الثقافة، هكذا يفندون الأمر، أولئك القوم. ألا تظن أن الجنس هو النيء وذاك الحبّ هو المطبوخ. أجلسك على مقعد أمامي وأبدأ بتناولك، وأنت تدري مثلما أدري أنا، أن هذه الرسائل الصوتية والدعوات والونونة، الكلام واللغة، والتلميحات المباشرة، هي استعجال وخدع المطارحات الغرامية. في لمحة خاطفة وقفت أمام الهاتف وأنا أوشكت أن أنوح:

ـ لماذا لا تحضر هذه الليلة، هه هل تأتي؟

ذهني متيقظ وشهيّتي لك في الأوج، والغرام بحاجة إلى ظلّ من الغموض، بمعنى أن الذي لا نعمله أخطر وألذ من ذاك الذي فعلناه. محمومة مخطوفة مشوّشة وأتلاطم مع نفسي فأتعثّر بالموجودات فأمسك أحد الجدران، أضع رأسي عليه لكي أسمع أفضل؛ كيف تُدمّر خلايانا، أنا وهذه الأمتار. اسمع بحر، حتى الانسجام الشديد مكلف وخطير. حين قرّرنا أن ندوّن ما يحصل لنا وما تولّده العلاقة، ما يتحقق وننقضّ عليه، ما يسبّب الغضب فتمتلئ عيوننا بالدموع، ما يلفحنا فلا نقوى على التفوّه بكلمة، ما ينهكنا ويريحنا، ما يجعل سخافاتي وتخبّطي وأنصاف حلولي تصير مصدراً لصميمية في ما بيننا، سواء عبّرت عنها باللارة على جميع هواتفك المعلنة والمستورة، ورسائلك الصوتية، أو أنني لم أدعُك بعد إلى باريس. هيّا، هيّا، حقّق معي ولا تتوقّف عن تأنيبي، فعيوبي تتطوّر مثل العلاقة، وهذه الواجهات التي أمامي، فأنا شريكتك في كل هذا الذي يجري لنا معاً. لو تدري عدد الذين يحيّؤن معي هنا، أضعهم أمامي كاملين، أنا نزيلة لديهم فأتمتك بهم قبل أن يتواروا عني، أعمل كما كانت الوالدة تفعل باللحم المشروم تتبّله بالبهارات السبعة كما هي درجات الغرام السبع الافتراسية بدءاً بالهوى مروراً بالتدلّه وصولًا إلى الولع والغرام، وصولًا إلى الحساسية التي تعود فأبدأ بالعطاس، وأنا أرفع مقام الكمون والقرفة والفلفل الأحمر الناري والكزبرة اليابسة والزنجبيل المطحون وحبّات الهيل بقشرته والقرنفل. وأنا ألاحقك من سطر إلى سطر لكي أرصّك جنباً إلى جنب معهم في صفّ لطيف. لا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أظنّ أنك على علم بألغاز تلك الوالدة وباقي أفراد الأسرة، صحن الدار الواسع وماعون الفاصوليا اليابسة ذات المرق الثخين والرائحة الزكية والأرز بالشعرية، ونحن، الوالد المحزون دوماً وأنا، حين ندخل البيت كانت نجوم السماء تتجمّع في ذينك الصحنين الخطرين، وتنبثق أشعّة باهرة لا تشحب لساعات، حتى لو انبثقت تلك اللطمة والقبلة والقرصة والأنّة والشهقة وهي ترتفع طبقة وراء طبقة، فأختضّ في ما بينها، وأنا أرى عظامي وأساسيات الشقّة تهتز وتتمايل، أنادي ولا أتلقّى جواباً؛ تلك المضاجع والروائح النادرة والصحيحة لم تحضر بفعلك يا بحر، ولم تتجمّع بفعل الوراثة أو قانون سقوط الأجسام إذا ما ارتفعت من علو شاهق، ولا هي مدبّرة من الغير. رائحة أمّي لم تنتقل إليّ يا بحر، قتلتُ نفسي من أجل ذاك الانتقال ولكن عبثاً. ربما، نتوّهم ظاهرياً، كما كنت تفعل وأنت تغريني من وراء العدسة، وروح يدك ورغبتها في لمسي أطول فترة ممكنة تحدد اللقطة. أحاصرك وأحجبك عن الجميع في هذه الصفحات، أتقصّى الرائحة التي فاحت بغتةً، هل بذلت أمّي ما بوسعها من أجلك أفضل مني، فهي تعرض أمامنا: الموتى قبل الأحياء، تلك لحظات نصرها المبين، فأسمعها تردّد كلاماً أفضل مني: «سأتوجه لك بكلمة علّك تصغي إليّ. في مدينتي يموت الرجل كسير القلب. يفنى الرجل حزين الفؤاد، أنظر من فوق السور، فأرى الأجسام الميتة طافية في النهر، وأرى أني سأغدو مثلها حقاً».

فأردّد على مسامعها اليوم:

ـ الموت يلمّ شملنا فهو «يكره التقنيات الفائضة».

ابتسم وأنا أكتب إليك للتوّ، فالموت صاحب مزاج حسّاس جداً، وعمله يشبه العرض المتواصل. هيّا يا بحر، ينبغي أن تستمرّ بالاتّصال حتى لو لم أردّ عليك، هكذا، من أجل أن نجد مخرجاً من هذا الحبّ وأنا أصفر لك ولها، هي قضتْ وغادرتْ فودّعتها في أحد الأعوام، ولم تتفوّه إحدانا بكلمة.

ليل صديقتي، أول ما لمحت الأصباغ تتساقط، استوعبتْ ما يجري بلحظة وقالت مبتسمة:

ـ عثرت على وظيفة شاغرة لديك. أريد أن أمضي أيام الإجازات هنا، نحاول أن نستجمع هذا الشتات الذي تناثر وتبعثر ونحطّم. بالإجمال، أستطيع أن أضيف إليها ساعات عمل إضافية بعد الإصلاحات والدهان، رسومي ستغطّي كل سنتمتر في الجدران، مشاهد من حياتنا معاً، وعلى الأرجح، بلمح البصر أرسم خيال البشرة، الثدي الحرّ، ذراعاً يعانق، شالّاً طائراً من رقبة عاشقة، والشمس، شمسنا، تبدي صبراً لا حدود له من أجلنا. أرسم وجوهاً وأجساداً للنساء اللاتي ما زال ذاك الدم القديم يستطيع اللحاق بهن، هيّا، اضحكي، أطلقي صوتك بالغناء كالعادة.

ضحكنا ونظرنا إلى أسفل في وقت واحد. ليل، أرملة عراقية جميلة، لوحة من كتاب للفن العراقي القديم، فتعاود بصوت رقيق:

ـ تعرفين، مرات أفكر أن تلك الدماء التي توقفت تذكرني

بمحطة شحن تستورد وتصدر على الفور. اليوم إذا تعذّرت الدماء فهذه أصباغ الزيت والماء، قلم الرصاص والحبر الصيني و... صدّقيني، لديّ قدرة على قلب جميع العناصر، وسترين.

في اليوم الأخير الذي غادرتُ فيه برايتون عائدة إلى باريس بقطار الليل أخذتني وراءك بالدرّاجة الهوائية. الظهيرة والشاطئ النظيف المغسول المبتلّ برذاذ الهواء الثقيل أمامنا، على الجانب الأيسر تبدو عمارات متراصّة ما بين الحديثة بالأعمدة الزجاجية الدكناء، والطوابق الشاهقة، وتلك العريقة ذات اللون الأبيض الكامد الذي تبقّعت جدرانه وتقشّرت أصباغه:

ـ الحرب ما بين فرنسا وإنكلترا كانت طويلة وشاقة وكلّفت الطرفين ضحايا وخراباً كبيراً. لكنها انتهت بزواج ملوكي، هه، اسمعي، لا أطيق دور الدليل السياحي. رجاءً، اعفيني من التحدّث عن أيّ شيء يتعلّق بالمدينة و...

ـ لكني لم أسالك عن أي شيء، أنا أعرف المدينة.

أنفاسي تنتظم في ظهرك وأنا أحضن خصرك الناحل، وحين ندخل أحياء صيّادي السمك التي بدا أنها جُدّدت أخيراً، كانت الأمواج ذات الارتفاع الشاهق تلتقي وتفترق فتدفعنا دفعاً إلى أمام بريح بحريّة مشبّعة ببخار ونسيم يضربان وجهي وشعري وأنا أشدّ ذراعيّ عليك وأقبّلك. ألثمك كثيراً كثيراً ولا نتفوّه بكلمة. تلطمني الروائح المغمورة المتلاطمة وتتدفّق إلى أنفي روائح عادتي الشهرية موجة وراء موجة، لم تخمد إلى اليوم، ولم يكن في الحسبان أنه سيكون لها كل هذه السطوة.

ـ ٢ ـ

التَرْك

وقفتُ أمام بائعة التذاكر في محطة برايتون للقطارات لكي أغادر إليكِ. للمرة الرابعة أقرّر وأحجم، أتردّد فأخرج، أركب درّاجتي الهوائية وأسير بمحاذاة الشاطئ. ليس دقيقاً أن هذا أقصى ما بوسعي فعله: ترك ليزا. الترك، صحيح لا هو الوداع ولا الفراق النهائي ولا هو التخلّي التامّ. في المعنى المقترح، يفكر المتروك في أجزاء الكلمات فيبحث عن تلميح هنا ومجاز هناك، يقول لنفسه: حسناً، قد أغريه بالرجوع ولا بدّ أن أكون حذراً، لكن لن أدعه يتعلّق بالأمل. فلم تعد ليزا تحتلّ مكان الصدارة، كلّا، حتماً ليس بسببك. تركتُ لها ورقة رقيقة في صندوق بريدها وعدت إلى شقّتي في منطقة ساسكس. كانت لكل واحد منّا شقّة، وفي رأيي، كان الأمر الأسوأ العيش معاً. فأنا بحاجة إلى مسامرة ضجري وساعات نومي القليلة، أن لا أتحدّث مع أحد، خصوصاً في الصباح، وإلى الواحدة ما بعد الظهر على الأقل، هكذا، ليس من تعالٍ أو تشاوفٍ، المسألة تتعلّق بدزينة عيوبي التي لا أريدها أن

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تظهر أو تنعكس في عينَي تلك أو هذه كنوع من رفع الكلفة. ربما، نحن الرجال، لا نسمح بذلك أمام الآخرين، النساء في الدرجة الأولى... فتشحب صورنا ويبهت سحرنا ونغدو عرضة لفكّ اللغز الذي كنا نتلذّذ بفكرة وجوده، ولا أدري هل ما أقوله صحيح أو لا معنى له. اليوم، بناءً على رغبتك المغرية، تقودينني إلى تدوين ما يطرأ علينا ونحن في مجرى العلاقة، فأقع في فخّ هذا الالتباس، ما بين اعتراض طريقك لكي أترك أثري فيك، والاختباء من أمام الذات، ذاتي، فثقلها الفادح عليّ لم يكن في الحسبان، ولا سيما أن معظم ما لديّ عن حالي، وأهلي، ومشاغلي، فوضوي ومبعثر في مقتطفات ومقاطع وهوامش مشوّشة، وصفحات لم أسمح لأحد بالاطلاع عليها، فلم أقرر، تداركاً لأي سبب، ولا حتى من باب الأريحية، عرضها عليك لكي، ربما، لا تلاقي مصيري نفسه معك. هذا ما عنيته بالكلفة، أن تستلذّ بعزلة لا تسمح بوجودهم، أولئك وهؤلاء الذين أعرفهم ولا يسمح لي بالغياب عنهم فلا أتورط بتدوين تواريخ مضبوطة، والقيام بتمارين مبرمجة، والتصرّف تصرّفات معقولة تؤخذ مأخذ الجدّ. أنا باختصار، لا أقوى على التحمّل والتذكّر، على الاستيقاظ في ساعة معيّنة لكي ألاحظ روحي وهي تلاحقك من العين إلى الصدر إلى...، هذه الأمور تنغّصني كثيراً ولا أريد أن ألزم بها نفسي. إنني أكتب بدون عناية وبرتابة، وأكثر الأحيان بجزع من ألّا أحسن ذلك، فأنا مخلوق لا يتحمّل الحبّ إذا زاد إغراؤه وتضاعفت مسؤولياته.

لنعد إلى المحبوبة الجديدة، أنتِ، فهي لا تستطيع أن تعمل

لمصلحتك حالًا، وتكون تحت تصرّفك، وتشغف برؤيتك إن لم تترك في حوزتها بعض الأمانات الثمينة، الإلهام والإيهام أنك حقاً عاشق مُغرم، الغرام ليس من أجلها وحدها، بل بالأساس من أجلي أنا شخصياً. فتقول لها بين حين وآخر؛ هاكِ، خذي، أبصريني جيّداً فأنا لا أملك أيّة مقوّمات، تلك التي تقولون عنها في دياركم الفحولة الخبيثة التي تتصاعد أبخرتها وزيوتها من الأسطح والمداخن. يا إلهي، عضلاتي لم أدرّبها كرافعي الأثقال، وأعصابي تقوم بوظائفها بصورة طبيعية. أوعيتي الدموية تعمل حسب الأصول فتدفع الدم إلى باقي الأعضاء الشهوانية. نظراتي مرتاحة، أعني ليست لئيمة جداً، بل ربما تنبئ في بعض الأحيان بأنها مخدوعة مغفّلة، أما المفارقة اللطيفة فهي أنني فعلًا أتمتّع بفتنة، أمّي تسمّيها فتنة ملوكية ووالدي يقول عنها هي فتنة سلطانية أميرية شرقية بدوية. والعناوين كثيرة تتكرّر فتزيد من لهجة السخرية والفكاهة في كلامي. من الممكن أن هذا وغيره يجعلكِ تجتهدين على نحو بارع، وتبذلين الغالي والنفيس من أجلي. فأنا أستحقّ أن تلاحقيني. لا تقلبي شفتيك امتعاضاً من غروري، فأنا أقوم بعملي خير قيام، أندفع بالأنفة والذكاء وأمنحك النظر السخي، والأذن التي تصغي بدقّة لكل ما تتفوّهين به من غناء وأناشيد، وأعتني صدرك بالمسرّات وأحفظ وجهك بالصور، مئات الصور، كما تحفظ الأغذية والعطور والنقود والكنوز قبل أن تحلّ الشيخوخة الحنونة. كنت أصوّرك وأشتغل عليك لكي لا تخمد نيران وجهك. حتماً، أعمل كل هذا من أجلي لكي أتعافى ويزداد إشراقي.

ألاحقك في الأسواق الشعبية أو على مسرح صغير وبعيد عن الأعين أو في مقهى في أعلى الجبل. وراءك أنا وأمامك الإلهة فأقول لنفسي: ممكن يا بحر أن تعاود الاتصال في أحد الأيام، أجل، لمَ لا؟ فهي على ما أخمّن وأتصوّر تستهويها الغراميّات والملاحقة، ومن بعض النواحي تقول لنفسها: هيّا، هيّا، امضي مع بحر أو رالف فلا تقهري أحدهما وتغرمي بالآخر. لم يَدر في خلدي على الأقلّ، وفي البداية، أنني سوف أسمع منكِ، وعلى الفور:

ـ هه، اسمع، لست أنا الحلّ.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

العشيقة الآفلة

ما عدتُ أذكر متى توقّفت الحمى عن صعودها إلى دماغي كلما تعانقنا وتضاجعنا ومضينا أنا وليزا في إنهاك أحدنا للآخر. لا أتذكّر ذلك أبداً هل كان في الليل أم في الظهيرة، في الخريف أم في الصيف؟ القبلات التي تبادلناها في تتابع وشهيّة تتنصّل منا، تهزمنا، فأنظر إلى فمي وجلدي ومحيط جسمي وأردّد؛ وهذه الليلة والليالي التاليات، وأنت لست الرجل الأول نفسه ولا هذا التالي. كنت مضطراً إلى المبيت عندها وينبغي أن أرى ليزا على استعداد لهذا الترك، على شكل ما، بصورة من الصور: إنذار، شجار، احتجاج وتنديد، كأن أقول لها:

ـ انظري إليّ، أنت متعبة، لا تُطاقين، وأنا لم أعد أحتملك...

كلّا، لم يحدث هذا. نأكل جيّداً. نذهب إلى المطاعم في نهاية الأسبوع. نضيء الشموع في بعض الليالي ونفتح زجاجة شمبانيا معتدلة الثمن. فليزا تعمل بانتظام في Brighton Library الكائنة في In Jubilee Street، وأنا أعمالي شبه موسمية. حسناً، تصرفتُ آنيتا وعرّفتني أمامك تعريفات خالية من الحسم، سوف

أعود إليها في ما بعد، لكني أريد أن أخبرك أمراً: إذا ما كُلّفتُ عملًا فأنا أقوم به على أفضل صورة، وبعده أتوقّف لفترة من الوقت، ليس بسبب نفاد نقودي، وهذه حكاية أخرى هي أيضاً، وإنما بسبب الضجر. في الهندسة التي أشغف بها كما في الحبّ، لم يعد هناك عالم أفضل من عالم، أو عشيقة أفضل من ثانية أو عمارة أو مدينة ملائمة أو تلائمني أكثر من غيرها. حضرتُ قبل فترة معرض العمارة في روتردام، وهذا كان يطالب بمبانٍ للمحتاجين ونازحي الحروب. ما استوقفني، لا تتهكّمي رجاءً، فهذا الذي أرويه لك له علاقة بليزا، العشيقة السابقة. أقول، لاحظتُ ظهور ألعاب بلاستيكية نشطة تقوم بكامل عملها، وهذا كان أكثر موتيفات المعرض إيحاءً: «مرحين نشطين ودون كلل أو ملل، يعمل الرجال البلاستيكيون، المبتسمون دائماً، ضد نظام عنيف، ويشيدون مأوى إنسانياً لأجل ضعفاء المجتمع». هذا إغراء عالمي فظّ هدفه، ربما المزاح، وبالطبع الربح، فالمدن «ستواصل تضخمها الاعتباطي، وهذا التضخم تعبير عن إرادة البقاء». كما هي إرادة ليزا في أحقيتها فيّ ولو على نحو موارب، وهذا بدأ يحجب عندي لطافتها وتلقائيتها اللتين أُعجبت بهما. بدأتُ تتأهّب للقتال وتجاهر به ولا ترتدع، ثم بغتةً، تدخل في حالة صمت طويلة، نظراتها زائغة ونبضها يضعف وطاقتها تصل إلى الحد الأدنى. لا أدري لما تصوّرتُ أنها تصطنع، تتكلّف الكثير من التصرّفات الاعتباطية، والتي صارت ترتدّ مباشرة على ذلك الشطر من القلب الذي شغف بها في أحد الأيام. أنا لا أعرف حقّاً كيف

ومتى تنحرف هذه العلاقة الغرامية أو تلك عن مسارها الحميمي، ومن باب اللياقة وأمامك الآن، أتنهّد بصوت خفيض وأنا أسجّل هذه الأفكار. ففي النهاية نشاهد العلاقة الآفلة، وفي غضون دقائق تتهاوى كتلك البنايات التي اعترضت عليها الدولة ولأسباب شتّى أهمّها أنها لم تعد مناسبة، ولا تصلح للعيش، فمن البلاهة أن تبقى ماثلة للناظر. فالجميع في حاجة إلى بناية حديثة، قد تكون، وأرجو المعذرة، غير مختلفة كثيراً عن تلك التي تهاوت. إذاً يجب عليك أن تأخذ الطريق البعيد عن الغبار والشظايا، لكن، وأنت في هذه المعمعة، تسمع أنيناً وانتحاباً يرغمانك على التوقّف أمام هذه الميتة العاجلة التي ضاعفت دينامية المخيّلة، فترى ليزا لم تتهيأ لتوجيه ضربة خاطفة لك دون أن تتسلح جيداً، بل أكثر من ذلك، شعرتُ بأن المجابهة بين اثنين تقتضي تدريباً وتمريناً على مدى وقت طويل. أنا نفسي عشت أنواعاً من هذه المجابهات مع نساء لطيفات وقاسيات. شخصياً لم أكن أتمتّع بتجارب عميقة ولم أتفوّق أو أتساوَ مع أية واحدة منهن، معاً أو كل على انفراد. فبعد كل علاقة أدوّن في دفتر الملاحظات الصغير الذي تعرفينه، فأنا إلى اليوم لا أعرف ما هي النواقص التي تثلم العلاقة وكانت الأكثر حدوثاً في ما بيننا، وما هي الزوائد التي كان علينا واجب التخلّص منها. يحزنني بالطبع لأنني لم أستطع الانتباه اللازم وأنا في خضم العلاقة، فوقتذاك نرى كل شيء بإسراف وإفراط، بعطش وتناقض. ولم يدر بخاطرنا، ربما من باب الإتيكيت، أننا نقترب بصورة صاعقة من الفراق. سامحيني يا راوية إن انزلقت إلى هذا النوع من

الفوضى والجلبة. فهذا هو الوقت الذي يتحتّم عليّ التعرّف فيه على عواطفي والتدقيق في نزقها وشططها. فهذا لم أتعوّده من قبل. فالحبّ مسار مجهول يدخل فيه التهوّر وتقطيع الأنفاس، وتخييب الآمال، تدخل فيه الأوهام المضللة والاستعجال، وليس من مغيث قط للتدخّل كوسيط أو صاحب، كطبيب أو صديق، أو عدو يدير الغدر من ورائك. حالتي معك هي هكذا يا راوية، وإذا ما عدت إلى ذكر ليزا فما كان يعنيني أن أحقق أيّ نصر، وأول مرة أصل إلى أمر غريب أقوله أمامك بأمانة؛ كنت أريد لليزا الخروج من ويلات العلاقة وجنونها بشرف. وحين اختفت طويلًا لم أعرف ماذا أصابها إلا بعد فترة طويلة. قيل لي وأنا أزور المكتبة حين شاهدت كرسيها فارغاً، هي أنقذت نفسها بالدخول إلى مصحّ نفسيّ وعصبيّ. **يا ليزا** اللطيفة الحنونة العصابية التي تعرفتُ على مناوراتي الجنسية غير المباشرة، فما إن نبدأ من أول الصالون حتى يصير فمها وشفتاها ولسانها وأسنانها في طوعي، مغرية رقيقة ملساء، والمضاجعة بيننا كان فيها شيء من التمويه والتسلية. لا تستغربي يا راوية ولا تتضايقي من جميع هذه التفاصيل، فكّرت في تحاشيها من أجلي فعلياً لكن ليزا كانت الأكثر تأنيباً لي. فالجنس، مهما كانت أوضاعه صحّية وصحيحة، فما هو إلّا مجرّد مرحلة اسمها الاستطلاع كما في الحروب، ترسل بعض المؤشّرات من أجل كشف قطّاع الطرق والأعداء، وبالتالي الأصدقاء الذين سيحالفهم الحظ ونكون معاً. أضاجع ليزا وأتيقن أن الجنس حيلة، احتيال فعّال وخطير، أي نعم، كل هذه تسميات ونعوت، حتى إن

تمّ الإشباع، ولو لم يحدث هذا، ودائماً بالسقف الشاهق، وما بين جميع بني البشر. لكن الأمر الذي عليّ الظفر به أنا شخصياً هو الحبّ. اتخذ كل منا الحيطة كي لا تحمل فكانت تهزّ رأسها موافقة، لم تمانع، لكنّها كانت تحرد في الفراش يوماً أو اثنين ونعود. لون بشرتها فاتح، ليس عاجياً ولا أبيض مزهراً، هو لون يلمس بالنظر ويترك فجأة ولا تعود تراه إلا في بعض المناسبات التي غدت نادرة في ما بيننا؛ جلدها هو أكثر المناطق استعداداً للتدمير، فبدأ يتجمّع فيه ذلك الفائض من الألم، وربما الإهانة، هذا الذي جعلها تشرب بطريقة تثير الغضب الشديد من الجيران ومني بالطبع. كان منظر جسدينا معاً ونحن نتصادم في الحمّام أو المطبخ، أو نرتدي ثيابنا للخروج، كخصمين يتربّص أحدنا بالآخر، لكننا نفبرك ابتسامة خائبة ولمسة مائتة. أنا أختصر لك السنين الثلاث، أخرجها من الاحتدام وأغلّفها بالتهذيب، وهذا بدوره يسبّب لي الإحراج. لليوم، وبسبب جميع علاقاتي الملتبسة واللطيفة مع النساء، يتعذّر عليّ معرفة ماذا تريد العشيقة الجديدة وكم ستبقى تتصرّف بطريقة غير مضللة لأي واحد منّا، أنا وأنت مثلًا، كيف سنرتّب المواعيد والعناقات وذلك الأمر المتعلّق بالأشواق، الذي أخشى إذا ما كرّرته أمامك أن يغدو مبتذلًا وتافهاً. لكنني ألاحقك على جميع الجبهات لأنني أريد أن أقول إن الشوق أمر فردي تحتمله بمفردك ولست متأكّداً أن هناك من يتساوى به معك. لذلك حين أبدأ به لا أعرف كيف أنتهي منه كهذه الصفحات والفصول، أبتسم وأواصل السير بالدرّاجة والريح قوية تدفعني إلى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أمام في هذا الوقت من فصل الصيف. شعر صدري الخفيف من تحت القميص القطني يتحرّك فأقشعر، وسرعان ما أبتسم في وجهك. أجل، يا راوية كففت عن الشغف بليزا وذهب المحبّان للغمّ والأسى. فمن ناحيتي ما زلت أتساءل في سري؛ لماذا نتصوّر أن خاتمة كل علاقةتقتضي من أحدنا أو تستوجب عليه أن يكون هو الخسيس بامتياز؟ لم أحزر إلى اليوم ما هي عيوبي لكي أكشفها أمامك، ولم أنتبه لعيوب ليزا لكي أجهر بها لنفسي. طبيبتي النفسية إيفا تقول بكلمات عادية وصوت خفيض حازم:

ـ أظنّ، ربما، كان عليك أن تحبّ ليزا أكثر مما بمقدورك لكنك لم تفعل، من الجائز أنها لم تقدر.

ربما أنا لا أقول الحقيقة في هذه اللحظة كما هو المخلوق البشري «كأكثر المخلوقات انتهازية». بسبب هذا وغيره كنت أضع لليزا وغيرها اسماً مستعاراً كما هو الكود، وأكرّمها سرّاً، وبين حين وآخر، بالاتّصال عبر الهاتف، في عيدَيْ الميلاد ورأس السنة الجديدة، لا يحدث هذا دائماً ومعهن جميعاً بالطبع. من هنا بدت لي ليزا كتلك اللعبة البلاستيكية التي شاهدتها في المعرض، لم يعد ممكناً وجود علاقة غدت أو تحوّلت كما لو أنها تحصل نتيجة معالجة إلكترونية. آه، هي لعبة مرهفة بصورة لافتة لكن عناصرها قابلة للتغير. بالطبع هذا يُردّ عليه بإيجابية، أعني على دعوة ـ مارثا روزلر التي تقول: «علاقة وصور يظهر فيهما أثر التلاعب». راوية، هناك أمر فقد هيبته وهالته بعدما تحقّق بأكمله، واليوم يبدو بلا معنى، غير صالح، ولا نافع، وربما ضدّي. والعشيقة الجديدة،

أتحدّث عن نفسي، أتصوّرها ذهباً عيار أربعة وعشرين، كما كانت جدّتي تردّد وهي تصف والدي لا والدتي الأجنبية. ما زالت «صاغ» وسليمة العدّة مشبوبة الرغبات لكنها تؤلمني؛ فهي تجعلني وجهاً لوجه واقفاً أمام هاويتي أنا، فأدرك يومياً ولو بمكابرة سخيفة أنني فعلياً أقضم حالي. فكل علاقة أستسلم لها تجعل مخزوني من العزيمة في تآكل، فأدخل في عداوة خفية مع هذه العشيقة أو تلك. هذه هي الخطوات التي أحاول تحديدها لنفسي لا لك، فأبدو لأول مرة على استعداد لإعلان تعلّقي الشديد بك، ولكن بتكاليف مرتفعة وشديدة الإرهاق. ففي هذه المرحلة من السنّ وبدءاً من منتصفه كما في حالتي، يضيق المرء بالمؤشّرات التي تأتينا من الأعضاء والخلايا والأعصاب وتثير عندنا القلق وقلة الحيلة، فكنت أتصوّر وما زلتُ، حتى المسرّات واللذائذ التي تنتظرني منك وفي عمري هذا، مخاطرة! وإن كنت أعود إلى ليزا، مرّات عدة في هذه الصفحات، فلأنها ظلّت معي وقتاً طويلًا إلى حدّ ما. كنت أريد شيئاً ما لا أعرف ما هو بالضبط، أن تكون أكثر ضعفاً لكي أستطيع أن أصير ضدّها. بقيت طبيعية وهادئة. هذا في البداية، ثم بدأت تشرب بإسراف شديد وتنتظرني عارية في باب الشقّة وهي تنتحب بصوت يُسمع من أسفل السُلّم، وأنا أجري صاعداً فأراها بشعرها الطويل الفاتح. وعندما تبصرني تبدأ بتمريغه بالأرض. تتمايل ويكاد يغمى عليها وهي تولول، وبعض الجيران، النساء على الخصوص، تركن الباب مواربا ووقفن بعيدات يسمعن صوتها وأنا أشاهد دموعها:

ـ أريد أن أمسح خطواتك وآثار قدميك. أمسحك أنت وكل تزهاتك وسخافاتك وجبنك وأمراضك. أدعك غير موجود، ليس ميتاً، كلّا، أن أعرّضك للسخرية والاحتقار.

كانت في وضعية سيّئة جداً، وأنا شديد الاستياء، ولا توافق على لمسها. تواصل صراخها:

ـ قاتل، أنت بشع كريه. أنت خراء.

صفات عديدة أخرى لم أعد أتذكّرها تطلقها في وجهي وأنا أحاول بهدوء، وبدون صوت، لكي ندخل الشقّة. يجب عليك يا رالف أن لا تبالي بجميع هذه المبالغات فجميع العلاقات غير آمنة. أنتِ في المقدّمة يا راوية. وهناك من يذكّرني بجميع الصفات ونقاط الضعف التي كشفتها لي ليزا والباقيات الغائبات، كلهن دون استثناء تحدّثن بغلّ متماسك ومفردات مؤثرة وبكرم أجهل أنه موجود بهذه الوفرة. لم يتركن لي أية درجة من فضول أو ردّة فعل فجائية. فكنت أتصوّر أن كل واحدة منهن بدت معشوقة زائفة، وما تهذيبها ومرحها ولذتها معي إلا مرحلة من خداع النظر وصلنا تخومها أخيراً، وهذا هو وقت العودة إلى القاع. فكيف يكون بمقدوري أن أكون وأظلّ وأستمرّ عاشقاً فذّاً فريداً مثقّفاً بارعاً وسيماً معطراً مبجّلًا أنيقاً والأوفر حظاً في النظافة، هذه الأخيرة أعدك بصفحات وسخة عنها أتصوّر أنها ستعجبك وتضحكك.

راوية، لا أريدك أن تثقي بما أقول مئة في المئة لكن دعيني أخبرك إيّاه فقط. لو تدرين كم هو أمر بالغ الأهمية أن نقرأ أو نعرف القليل عنّا من قبل غيرنا. كان الأذى الجسدي والأذى

الروحي متساويين وهما يصاحبانني وأنا جالس أمام طبيبتي النفسية في عيادتها الكائنة في شارع أكسفورد في مدينة هوف. كنت أستعمل جاذبيتي الطافحة بالإثارة الشديدة وأنا أروي لها كيف ألتقط الأفلام لممثلات المسرح وبعض العارضات المبتدئات والهاويات والمخرجات المستجدّات. كانت أجسادهن مشتهاة بصورة فاجرة رخوة ومعضلة، حيويّة ويافعة جداً، فكنت أنام مع معظمهن وأشعر بأنني رجل مستورد من الشرق، عنواني موقّت وحقيقتي مزركشة. كلّا، لم أحسّ يوماً بالدونية، لكنني لم أتمتّع يوماً بالوصول إلى المرتبة الأولى. فكان أمامي متّسع من الوقت وأنا أتنقّل بينهن لكني دائماً في انتظار أمر ما سيحصل مردداً؛ ستحضر تلك العزيزة على القلب. حقيقة، كلّهن كن في غاية اللطافة والإغراء ونحن معاً على الفراش، ونحن على وشك التهام فاكهة الموسم، أنا الفاكهة والوجبة الكاملة الدسم. فلا أحاول النوم بالوكالة عن أحد، أبي مثلًا، فأقطر عنجهيّة وتكمن أرستقراطيتي في درجة التبرّم الذي يزيد من اللبس والغموض، ويرتفع صوتي أمام طبيبتي على غير عادتي:

ـ أريد أن أنجز أمراً آخر. أنا فارغ ومقطع إلى أجزاء، وأبدو أنني من صنع الخيال، خيالي، والأدقّ أنا زائف. أخفي هذا الزيف بوجهي الشهواني ورشاقتي كأيّ جنتلمان أوربي فريد. إحداهن قالت لي: أنت منقّح كثيراً فلم يبق منك أي شيء تتباهى به.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

دبلوماسية

ما جهر به أحدنا للآخر، أنا وأنتِ، بعد لقائنا الأول، سوف أعيد كتابته هنا. فلعلّي أستطيع وأنا اكتبه أن أعرف أي الطرق عليّ السير بها لكي لا تأكليني بلقمة واحدة، هكذا أشعر. قلتِ قبل سفركِ:

ـ اسمع، لا نعرف كيف ستجري الأمور في ما بيننا. لكنني سأتحدّث عن نفسي. أريد الاقتراب منك، لديّ قابلية للتمدّد فيك، قد لا تجاريني في مزاجي وحركتي ولا تدلّني على ما يقرّبني منك، لكن، من جهتي سأفعل، سأجرّب كل أسلوب معك: التقليدي والشعبي والحديث، الغربي والآسيوي والوثني... أجل ابتسم رجاءً. لن نبدأ من الصفر بالطبع، هذا شطط. فلكل منّا أولويّاته وعلاقاته الحميمة بالغير، وبالطبع عداواته. من الجائز إنْ سجّلنا ما بيننا، وما بدا لنا، وما سيحدث في ما بعد، فسيظهر للعيان بوضوح فيما لو بدأنا بتدوينه، في الفترة التي ستلي مغادرتي برايتون غداً، وبالتالي في الفترات التي تعقب ذلك. لا أدري من سنضع في الصدارة، أي الذبذبات والتحوّلات تنتظرنا في الأيام

والشهور الآتية؟ سألقي نظرة فاحصة على حالي، ربما من طراز لا سابق لي به من قبل. فحص، هو بمعنى ما تكريم لك. هو انتباهات لأجزاء غائرة في الأقصى من كل واحد منّا، ربما، هو أمر شائك ووعر فيما لو توصلنا في أحد الأيام إلى ذاك المنعطف الوعر، ألّا يتّسع صدر أحدنا لسماعه أو التفوّه به. سأحاول فعل ذلك حسب الأصول الدبلوماسية. سنتبادل أوراق الاعتماد بعد كذا شهراً، حتى إنْ التقينا في أثناء هذه الفترة فلن يخبر أحدنا الآخر ما توصل إليه، كذلك لن يطالب أحدنا الآخر بالكتابة بدوام كامل، أعني بدوام رسمي. أجل، أضحك قليلًا... ما هذا؟ ها، لماذا امتقع لونك، هل هذا مؤشّر حسن أم لا؟

أضفتِ بصوت أكثر حزماً كأن جميع ما قلته غير مُجدٍ:

ـ لا نريد أن نتحوّل إلى شخصيات روائية أو تراجيدية. أنا من جانبي أرفض ذلك. سيختفي أحدنا عن الآخر قليلًا بسبب حياة كل منا وما يتّصل بها في الخارج والداخل، وليس من أجل البقاء وحيدين لكي نكتب عنها. انظر إليّ، أريد أن نسمح لأحدنا أن يكون موجوداً في حياة الآخر. أن يكون بمستطاعي القيام بأعمال لم أقم بها من قبل فأؤديها بلا تأفّف. لا أعرف هل أصوغ أفكاري بصورة لا بأس بها، لكنني أحاول. رجاءً لا تلقّني دروساً عنك فسوف أنساها ولا تستعمل ضوابط ما ضدّك أو ضدّي، ولا تغلّب حتى هذا الموضوع على غيره، ولا تهدّئ من روع غضبك إنْ حلّ وحضر، دعْه كما هو، دعْ كل شيء كما تريد أنت. وأنا بدوري لن أسالك أيّة إيضاحات أو تضحيات لا ترغب فيها. ربما، بهذه

الطريقة، لا أعرف بعد، لن نصل إلى الانعطافات الكبرى والحادّة في العلاقة والتي قد تؤدي إلى نتائج وخيمة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

Google Earth

في الهندسة، يقولون إنّ العمائر المهيمنة على حيّز الفراغ هنا في مدينة برايتون، عمائر عريقة أسّسها الأنكلوساكسونيون في القرن الخامس الميلادي، ولم تحصل على اسمها الحالي إلا في عام ١٦٦٠ حسب النصوص التاريخية برغم أن استخدامه الرسمي يعود إلى عام ١٨١٠. هناك ألوف وملايين الأشكال والتصميمات التي يتفوّق بعضها على بعض في خدمة الغرض الحياتي. إن البروفسور هانز، زوج آنيتا، كان يلاحظ التنافس ما بين السوفيات والأميركان لا في تطوير الأسلحة النووية فحسب، بل في «تخطيط المدن وتدفّق المعماريين نحو المناطق المهمة استراتيجياً، فينظر إليه بوصفه أداة فعالة في الحرب الباردة، فوضع تصدير هندسة البناء وتخطيط المدن في خدمة الاستعمار الثقافي». من جانبي كنت أقول: هو استعادة للتلاقي مجدّداً ما بين الهويّات والثقافات، أعني بتلك الطرق التي ننظر بها إلى الأشياء المستترة والظاهرة، وكيف نخوض نحن بَني البشر جميعاً صراعاً بغية التأثير على وعي الناس. لمَ لا؟ على وعيكِ أنت. أنا أيضاً سعيت وأسعى إلى هذا على

مدار علاقتي بك، فكنت أعرض عليك مبادرات شتى فتدفعينني إلى وقت آخر. وعند الضرورة القصوى نلتقي على عجلة ما بين مدينتَي بازل وبرايتون، وإسبانيا وإيطاليا، وفي فنادق بعيدة عن الأنظار. لم تتفوّهي ولو مرّة بدعوتي إلى باريس. لكنت شغفت حقيقة لو فعلتِ ذلك على غرار ما يفعل معظم المغرمين. كلّا، لا تتصوّري أنك إذا لم تفعلي صار تكريمي ناقصاً، لا تمزحي رجاءً. فأنا أتصوّر، وربما ما زلتُ، أنه سيتاح لي في شقّتك بباريس، أن أسلّم إليك نفسي في جميع الأوقات، في الرطوبة والجفاف، في الزمهرير والسخونة، أن أتولّع بك بالهمّة التي يرتفع بها منسوب المياه في أثناء الفيضانات، فلا تُفتح مجارٍ فرعية له، فأفيض ولا أنوي الخروج من البيت خوفاً من التيه. كان هذا الأمر أحد أهداف دعوتي إلى باريس، أن تحميني وسامتي وأرستقراطيتي، فأنا أستحقّ يا راوية، أستحقّ التعب، تعبك. فكّرتُ في هذا الاحتمال وأعتقد أنني قادر على العيش وإيّاك. أظنّ أنني عشت وإيّاك سابقاً، في ماضٍ وحاضر افتراضيين. فأبتسم وأمامي على الشاشة مدينة باريس والحيّ الذي تسكنين فيه، وها هي العمارة، أؤطّرها بالأزرق، فيبدو الأمر مثيراً للاهتمام، وأنا أقوم بمحاولات دؤوبة للتدقيق في موضع شقّتك. ثبّتُّ الصورة فظهرت متكاملة: نوع الحجر، واجهة العمارة، نوع البناء وعمره، والقرميد الذي بدا قديماً في الواجهة، بالطبع أتمنى أن يكون هكذا، فأنا أفضّل هذا النوع من العمارات. أشاهد الحديقة المجاورة وأبدأ بقياس مساحتها، وكم دقيقة يستغرق المشي منها إلى بيتك، وأردّد: لا بدّ

أن هناك خطأ ما في سلوكك وإلّا فكيف تفوّتين فرصة دعوتي؟ تضايقتُ برغم التوقّعات المنتظرة من العلاقة التي تذكّرني بما يعدّه مكتب السياحة لزواره بالفرجة على أشياء كثيرة بسعر مناسب. طبعاً، ستتضايقين مني، وهذا ما أرغب فيه. فهل كل زائر يزورك يجد بغيته لديك؟ نعم، أريد إغضابك وأنا أكتب إليك. أقرّ بذلك وأدع صورة الشقّة مجمّدة على اتّساع الشاشة فأحسب أن المتاعب التي أواجهها من وجودك هي ذاتها المتاعب التي يسبّبها غيابك. هذا من الناحية النظرية صحيح. فشهيّتي مفتوحة وأنا أتجوّل حول العمارة، ومن نقطة محدّدة في الرصيف المقابل أقف في انتظار نزولك كقطرة ندى على شفتَيّ وجبيني. غادرتُ إليك بضع مرّات من دون إبلاغك بالطبع. تفيأت بظلال الأشجار الكبيرة في الجنينة وأنا جالس أدخّن. واصلت المشي بحذاء رياضي عتيق جلبته معي وأنا أجوب ما بين الشارعين الرئيسي والفرعي حيث تعيشين كأنني كوميسير في الشرطة الجنائية كما تقولون عندكم، يراقب كل شاردة وواردة ويعود إلى مسرح الجريمة. أظلّ مستيقظاً والوقت يمرّ قبل أن تغلق أبواب الحديقة، فأبدأ بالتثاؤب محاولاً أن لا أغمض عينَيّ. فهناك الكثير الذي عليّ القيام به، فربما يمكن العثور عليك بين الوافدين أو الذاهبين، أصحاب العربات والمشاة الذين يحملون المظلات الصغيرة أحدّق إليهم بإمعان، وأصحاب القبعات الكبيرة أنحني قليلًا لكي أتعرّف إلى وجوههم. أنتظر جميع الرجال الذين يظهرون من باب العمارة، أتفحّص الوجوه على طريقة القضاة لمجرمين محتملين، وأعترض إذا ما غابوا عن ناظرَيّ بسرعة.

أدوّن بعض الملاحظات والدفتر الصغير لم يعد كافياً، فبدّلته بآخر متوسّط الحجم يتّسع لأشياء كثيرة. كان عليّ أن أتعلّم الحكم على نفسي قبل الحكم عليك أو على الآخرين. فكنت أعيد بناء هذه المخطوطة عدة مرات. غيّرت البدايات ولم يستهوني هذا الشكل أو ذاك، ولم أستقرّ على شيء معيّن. فأنا لا اعرف ما هو المناسب وغيره، هذا الذي أعيشه وإيّاك: التجربة النارية، وخسارة الجولات التي مرّت ولم أحظَ بك، واللاتوقّع في كسب الجولة الآتية معك ولو عبر هذه الشاشة. فهل يعقل أن أقضي وقتي ما بين السفر إليك وعدم العثور عليك، والاتصال بك دون جواب مبعثراً ما بين صوتك وغيابك والكتابة إليكِ. أفتّش عنك وأزور مواقع غرامنا، ولا أعرف من أحارب، فلا أرى أحداً في مواجهتي إلّا الفراغ والأشواق، وها أنت ترين أنني أقوم بمهمّات عدة: عاشق عارٍ، وشاعر يكسوه شعر كثيف، ومصوّر يريد تصوير أسرارك ومناطق نفوذك. أظنّ أنّ هذا عرق موجود بين البشر، عرق الخائبين والفاشلين. ها، راوية، لا تخفضي رأسك من فضلك. لو تدرين كم أحاول تدمير ما بقي في داخلي من كلام عربي سابق، ونحو وإملاء ومجاز وطباق إلخ. ترى، كيف يتمّ ذلك لكي أواجه لغتي على أن أواجهك وأواجه نفسي، أحفر وأحفر هناك وهنا. ألا ترين التراب والغبار على جانبي الروح، روحي. إنني أشمّ غبار اللغة وأنا أحفر فيها ولا أعثر على أيّ شيء، لا أنت تحضرين ولا هي ترحل. إلى أين تذهب اللغة منذ تلك الأعوام إلى اليوم، اللغة لا تعيد إليّ جميع الذين غادروا واختفوا وقضوا. فدعيني أنحني عليك

هكذا كما حرف النون مقلوبة. أتعب وأرهق ويتورّم إبطي من الحزن الشديد، فلا أقدر على رفع يدي إلى أعلى. وما إن ألاحظ جميع الرجال الذين خرجوا أو دخلوا العمارة التي تسكنين، حتى يتهلل وجهي، فأقول بتشفٍّ حقيقي مضحك:

ـ حسناً، لا أحد من جميع هؤلاء يليق أن يكون رجلك، هكذا أحسب.

فأقترح على نفسي اقتراحات لا حصر لها، وأفكّر أن هذه الرحلات إليكِ ما هي إلا دورات تدريبية لصدّ الحظّ العاثر عني، وبالطريقة التي ـ قد ـ تشاهديني بها، لو حصل هذا، وأنا بجوار العمارة. وهذا الأمر يبطن مخاطرة كبيرة على الخصوص إذا لم تكوني بمفردك. أحبطتني هذه الأفكار وحاولتُ باستماتة أن أبقى هادئاً، خافت الصوت، أنا بالأصل هكذا إنْ حدث هذا حقاً، رجل آخر وأنت برفقته، لا تقاطعيني رجاءً. دعيني أنظّم سبل هذه العلاقة كما لو كنا معاً على أحد المسارح وأنت تسرعين إليّ، تضعين نفسك بين ذراعيّ فأغمض عينيّ، وأحاول اختبار كل حيلة أضعها في طريقك، وأنا أتحرّى وأستمرّ في التحقيق ثانية وثالثة، فحدسي يقول: إن لك حياة غامضة وسريّة، ولديك عشّاقاً تكتمين علاقتك بهم. وإنْ استرسلتُ بالحديث فأنا مشغوف بمثل هذه النوعيات من النساء. فلننظر إلى الموضوع من عنوان آخر؛ الفضول الشديد، فلا ضير من الشكوك والارتيابات التي تنتاب العلاقة، أيّة علاقة. فأنا على ما أزعم قطعت شوطاً بعيداً في البحث والتقصّي، وفي الفحص والتحليل والتركيب أيضاً. لن

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تغفري لي، أراهن على ذلك لأنني كنت أفكر بطريقة إجرامية، وأيّ سرّ من أسرارك كنت لا أطيق ألا أكون داخله، أو أحد مؤسّسيه لكي أبوح به، وأترك أثره فيّ. الغيرة التي ورثتها من والدي الذي فتنته وقتلته السيدة الوالدة. الغيرة التي لا أقدر أن أتأقلم معها حتى لو تبدّلت البيئة الجغرافية كلها. إذا شئتِ، إنني أصرخ الآن كما كانت ليزا في السابق، مما يتراءى لي غداً وبعد غد فلا أحاول قطع الطريق عليّ. نعم، أبذل جهدي لكي أظلّ متخصّصاً في الغيرة، فمن الجائز أن هذا هو ميزان تطوّري معك. والحال، رجاءً، لا أريد أن تبدو غيرتي مبتذلة. فمن الجائز أنني خزّنتها من عموم علاقاتي المتلاشية فظهرتْ معك على أكمل صورة. لم تنجح أية محاولة معك فأدخل نفسي مجالًا آخر فربما كان له بعض التأثير. أبدأ بإرسال رسائل صوتية على هاتفك الأرضي، فأنت لم تخبريني عن رقم الجوّال. أحملق بالأرقام وأنا أضغط عليها. هذه مرحلة تجريبية في الغرام، مكافأة سماع الصوت البشري ومعاينة الخطّة حين يظهر صوتك أمامي، على الأرجح أنا لا أصغي إليك، وهذا كلام دقيق، إنني أصغي لأمر آخر متعلّق بالعشق، عشقي أنا لا عشقك. هنا، عليّ إضافة بعض التفاصيل؛ فالصوت، صوتك، كأنني اعتدت أن أسمعه على فترات متباعدة، بعد أن تعارفنا. الصوت هذا لا يفتقر مثلك إلى المراعاة والمواساة. هو صوت صحيح، أعني يوفّر معلومات عنك وربما عنّي. له فم ينبسط وهو يردّد بمودّة أقلّ عدد من الكلمات. له ذراع أشتهي لو تطاردني وتأخذني إليها، وله أخيراً

عينان تسمحان لك بأن تريني وتفعلا ذلك بشيء من البهجة. لا أمثّل دوراً وأنا أطلق شهيقاً عالياً وزفيراً بطيئاً. لا أقول شيئاً محدّداً، لا أبعث بأسئلة ولا الدور كان على مقاسي. أتأفّف، أدخّن وأنفث دخاني في وجهك... ها فبماذا سترديّن على تبغي وحماقاتي؟ أبتكر أصواتاً أتدبّر بها أمري لكي أتخلّص من البله الذي شعرت أنني أتمتّع به دون علمي وعلمك، فأروي لك بعض النكات والطرائف وأبتكر بعض الخدع كما لو أنني فوق مسرح، فلا أجعلك تذهبين خالية الوفاض. أصرّ على ألا أعاتبك إلّا عن طريق الصفير والمواء والإشارات المضحكة والهزلية، فتنتهي الدقائق الثلاث المقرّرة وتظهر الإشارة، فأعاود من جديد. أنا الموكل إليّ في هذه المرحلة من سن العلاقة، أن أحدث تأثيراً مرئياً صوتياً وعصبياً عليك، فلا أعود أعرف كم هي المصاعب التي ستواجهني لو أوليت اهتمامي ـ ووحده ـ أن تكوني أهمّ، ربما، أجمل مشروع أستطيع أن أنجزه في هذه الفترة الحرجة من حياتي دون أن أدعك تعرفين ذلك حقيقة. مؤشر غوغل أضع له أصابع وأظافر فيتشكّل وجهك أمامي، الوجه الذي أريده أن يدوم لكني أخشى الحيرة والشتات والتبدّل وهي منغّصات لي. وجهك القديم الذي تشكّل وثبتّت ملامحه في غيابي، والجديد الذي يتشكّل في غيابك عني، وجميع ما له علاقة بك: القصائد، اللهجات، الأشعار القديمة والأناشيد الآرامية والسريانية والبابلية والعربية، جلبة الموتى المنبعثة من أولئك، أصحاب الكآبات والكرامات المجروحة، مثلي، وجوقة النبلاء المرموقين والأكثر

أقدمية وجرأة مني. لمَ لا؟ كل هذا أستدعيه مراراً وتكراراً علّه يتواطأ معك ويمنحني بعض السكينة. فأرفع صوتك بالإنشاد إلى سقفه العالي وتظهر العمارة للتوّ فيلماً من أفلام الخيال العلمي، لا أحد يقدر على الخروج أو الدخول إليها. وكان يجب أن أصدّق كل ما يجري أمامي. أنظر فقط إلى صفحات غوغل وفي مكان ما، في الخارج يمكنني أنا الغيور المتطيّر، الشديد الغيرة، غير القادر إلّا على الغيرة؛ أن أستعين بأيّة ضربة على الماوس تدعني أشقّ طريقي إليك، أدوّخك فتترنّحين وتتمايلين عليّ فيتلقّفك جسمي اللطيف.

حين يغرم رجل في منتصف العمر بامرأة، ربما هي في مثل سنّه، أكبر أو أصغر قليلًا، لا نحتاج كثيراً إلى تكرار أخطاء الماضي، ماضينا، كل على انفراد، بل على العكس، نقول إنها علاقة غير نموذجية كثيراً لكن لا تعود علينا بالشكوى والتبرّم. ولا بأس في شيء من الضنى، فأجعلك تسرعين إليّ قائلة:

ـ كلمة شرف، وعد شرف سأحضر ليوم ونصف، ليومين فقط. لا تزعل أرجوك ها...

نتلاقى وتتشابك الأذرع فأميل إليك ونمشي متعانقين خارجين من باب المحطة. كل محطّة ألتقيك فيها أعود إليها تباعاً. أودّعك فيها فأبدو مثل أرامل الحروب. أمتلئ بشيء سوداوي يوشك أن يضرم النار في حلقي فيحترق بلعومي وأنا أبلع الدخان، فأدفع أثماناً مضاعفة للفراق والوداع، باللقاء الذي يبدو لي كل مرة ونحن نبدأ من الصفر. أستنطق المحطّات وأدعو عليك كما كانت جدّتي

أمّ أبي تدعو لوالدي حين كان ينوي السفر عائداً إلى السيدة هايدرون، والدتي في النمسا. أكتب إليك ما بين الدعاء والصلوات وأهيم على وجهي مردّداً، هذه أسوأ كتابة يا راوية، لا هي ترشد إلى مشروع هندسي أجعله بيت اللحظة بيتنا، فأنت لا تغزك الأبدية كما تقول آنيتا، ولا هو قصيدة، فهذه لا تحضر إلا لغرض مستحيل، فأبدأ بالاختفاء عنك. لا أصرخ عليك في الهاتف، ولا حين أقود درّاجتي الهوائية. أتوقّف وأتسلّل منتظراً بعيداً، ويمكن المرء أن يسمع أرقّ وأبشع التعليقات حين يختبئ في ظلّ عمارة، خلف بناية مطلّة على شارع هادئ كشارعك. إذاً الفرضيات تتوالى، هذا بيتك وهو مستعدّ للانقضاض عليّ، وشباكك الذي ينغّص عليّ راحتي، وكل الأمتار في الداخل، وأنا أسمع حركة مجرى الدم في عروقك. نداءات حديثة العهد بدأت بطيئة ثم أخذت تسرع من يديك وأنفاسك وبصرك وأنت تتحركين بعيداً عني، وأنا لا أثر لي عندك، وبعد مرور الوقت وأنت بدوني، فأبدو بحاجة إلى جراحة تجميلية لكي لا أواجه نفسي بالاستهجان، وأنا أصادف خطر وجود رجل آخر يرافقك، وأنتما تطفئان المصباح، ولا تذهبان إلى النوم مباشرة، تتحدّثان بصوت خفيض وأكاد أرى طرف سيجارته المشتعلة، وأنت التي كنت تدمّرين رغبتي في التدخين أمامك. راوية، أحدهم يقرع باب شقّتك باتفاق جيد أو سيّئ، هيّا، يبدو الأمر مستحيلاً لو وقفتُ أنا أمام الباب وبدأتُ... أمشي ببطء، أبحث عن شيء لا أعرف ما هو بالضبط، لا يصلك ولا يكتمل، وأنا أضع يدك بيدي وأقول لك

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

هيا، هيا لن أتأخر هذه المرّة كما في المرّات السابقات، فأعاود الاتّصال بالهاتف قائلًا:

ـ اليوم أربعاء والساعة الثامنة مساءً وهذه هي المرة الثالثة بعد الـ... وأيضاً أنت غير موجودة. هه، إلى أين تذهبين؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ـ ٣ ـ

الحمّام

مثل حيوان بريّ من فصيلة الذئاب، كانت أذناي مجهّزتين بشكل غير عادي، بالطبع من أجل التلخيصات والتدريبات التي أقوم بها على الصوت البشري، صوتي وذبذباته. متى أخفضه وكيف أرفعه؟ متى أنتج صوتاً مزدوج الشخصية ما بين الحيوان والإنسان لكنه يحمل خصائص جديدة ولا يصير شاذاً وقبيحاً. هكذا أنظّف طبلة أذنيّ وأصغي مجدداً إلى رسالتك الصوتية. كم رقمها يا ترى؟ أحسب، وأضع الرقم في ورقة ألصقها على باب الثلاجة الخارجي وبجوارها الحرف الأول من اسمك. المعلومة منها اثنتا عشرة رسالة صوتية، والمجهولة ثلاث وثلاثون. كلّ رسالة كانت لها حياتها ومخيّلتها واستفزازها، تبدأ وتنتهي ولا تكرّر نفسها بالضبط، ولا تقول متى ستحضر بدقّة. ففي كل مرة أسمعك أسعى وراءك في كل بقعة من الشقّة فلا شيء يوازي صوتك إلا ضيافتك هنا. ماذا أقدّم وماذا أهمل؟ من هنا كانت الورطة، فهذا المكان بدا كما قلت لك سابقاً تنفرط نهايات أعصابه. فكنت

أشاهد حالات الانحلال المكشوفة أمامي، وكان وضعي داخله محيراً فعلاً. أريد إجراء التعديلات والترميمات خلال فترة قياسية في السرعة والإتقان. وإذا ما قمت بكل هذا، وحالفني النجاح، تبدو وضعيتي الفيزيائية والبيولوجية مكشوفة أمامك وأمامي، وهي أيضاً بحاجة إلى ترتيب أطوارها لكي أتغاضى عن بعض الحماقات التي قد أقوم بها قبل اللقاء بك.

عادية جداً هذه الستة وثلاثون متراً مربّعاً التي أشغلها. فالعمارة شُيّدت في نهاية أربعينيات القرن الماضي كما هو مدوّن في مستندات البلدية. وهي لا تلفت النظر، لا لفائف معدنية ولا زجاج برّاقاً. ولو شاهدتها يا بحر من الخارج فمن الجائز أنك ستقول: بها تشنّجات عصبية وهندسية كما لدى أصحاب الشقّق الذين لا يتبادلون الابتسامات الودودة، ويردّون على التحيّات المسائية من بين أسنانهم، وأغلبهم ينظر بارتياب مصطنع هو الآخر، لكنهم للأمانة، لا يقومون بأية ردة فعل هوجاء، فقط الإهمال. وهذا ما أقوم به من جانبي أيضاً. كانت مؤسسة فورد الأميركية تصف مشاريعها التي نفّذتها بعد الحرب الثانية بـ «الخبز الأبيض White Bread. هو خبز بسيط طري وبلا طعم إلى حد ما» وعمارتنا هكذا بالضبط، بلا حسنات ولا مزايا. على العموم يتبدّى لي أن حياة المدن الكبرى عالية التطوّر «تنشأ تلقائياً وتقريباً مع استعمار واضطهاد الثقافات الإقليمية الضعيفة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً»، مثلي ومَنْ على شاكلتي. فمنذ عقدين وأكثر وأنا أستخدم الفطنة وشيئاً من الذكاء في الاندماج الجزئي، أو تدريب

درجة الكوابح الذاتية في الامتناع عنه. الانفلات من هذا، أو الغوص فيه تدريجاً، كان يربكني أكثر مما تتصوّر. وحين أجريت تحسينات مضنية حالما شاهدت الشقّة التي كانت خربة ومنيعة على التغيرات الجذرية بسبب هندستها الارتجالية ومعمارها الضعيف، كانت سخريتي تتواصل وأنا خارجة وعائدة إليها مردّدة: أظنّ أنك شقّة تافهة، والتواصل معك يحتاج إلى لامبالاة تامّة. لكن بلدية الحيّ الذي أسكن فيه سوف تجيبني نافية ومردّدة: «انظروا لقد قدّمنا لهذه السيدة مسكناً وهي تتأفف». عملياً، المرأة، أعني أنا التي أقوم بكل شيء، وأيّ شيء يخطر ببالك، طبعاً المعلومات في حوزتي تقول وتعلن الأطوار التي مررنا بها أنا وهي، أعني الشقّة، سامحني لا أعرف كيف أضعها بالترتيب اللازم، كما نقول في آخر أي كتاب:

ـ الكاتب في سطور.

هذا التعريف يبطن نوعاً من التحذير أيضاً. إنني هنا، ولكن هناك بقعة في قعر الكبد، كبدي تقول: أنت غير مرحّب بك بصورة من الصور. حسناً، تركتُ أو هجرتُ بلدي ولم أستطع استنطاق أمّي، من قتل والدي، أو فلنقلْ كيف مات وأين دفن؟ بعدما غادرت، فأنا أتظاهر أمامك بذلك، لكن، لم تحبّني الوالدة يوماً، ولا هدّأت من فزعي بل على العكس كانت تضاعفه ساخرة:

ـ أي الحنين حامض وطعمه مرّ مثلك يا راوية، ألم أقل لك ذلك من قبل؟ لا أعرف عمّا تسألين، راح لدار الحقّ وعافني للباطل، أنت كلك باطل ومن اليوم الأول.

هذا صحيح، هناك أمور غير صالحة للترجمة وهي غير مؤكّدة، فالحنين عمل غير نافع وبعضنا يتظاهر بفوائده مثل هذه الشقّة. ليل تقول:

- أي بس هو يقرص كالبراغيث فيجعلنا نتقافز كالمجانين.

لا أعرف يا بحر، الوالد العربي كان كاتباً وصحافياً، ثم بغتة اختفى. واليوم أفكّر فيه بصورة شديدة التعقيد، فتمتنع صورته عن التلاشي. الوالدان يصبحان مضجرين لأنهما لا يناسبان الدروس التي تلقّيناها في أحد الأعوام، فلم تصب الهدف. بحر، هل تصغي إليّ؟ والداي حين أعرضهما على نفسي، الأمّ هذيانها ما زال يربكني، والوالد غيابه شكّل ولا يزال اللاأمان في حياتي، فصرفت النظر عنهما. سامحني، لكن دعني أكمل من فضلك. أفضّل البدء من الحمّام، المرحاض داخله، ونصف بانيو زهري اللون بحنفيات صدئت، تنضح منذ قرن، فحفرت في باطنه بقعة احترقت أطرافها فتداخلت الألوان بين الأصفر والأرجواني، وهذا غير ضارّ بالصحّة إنْ حضرت وبدأتُ بشطفك هنا. ما دمت ستحضر فما عليّ إلا القيام بجميع ما أخبرتك به، ومن الواجب ملاحقة أولئك الرجال، دزينة هم، معظمهم من شمال أفريقيا. ستحضر إذاً وأضعك في وسط الغرفة الثانية الشاسعة المضيئة التي تزداد ابتهاجاً وأناقة بعد إجراء اللازم. ها، ما رأيك؟ فربما تفضّل الجلوس على الكرسي الهزّاز اللطيف جداً بعدما نشرت فوقه سجّاد مدينتَي الكوت والسماوة. تقتضي الحفاوة بك صفحات وصفحات، مناشف جديدة، ليست تلك التي اهترأت من الشطف

والتعقيم مئات المرّات. عليّ شراء شراشف زاهية، وقطع صابون خالية من المواد الكيمائية، ورائحتها مرحة وتبعث على السرور. سأمسح جسمك بزيت الطيب، الزيت الفاخر، فمسحاته «علامات للفرح الذي يوفّر البهجة. فعندما ينفذ الزيت بعمق في الجسد يعطيه قوّة وصحّة وفرحاً وجمالاً». وأوقد البخور الذي يثير نعاسك وخدرك. أضعه في الزوايا فيعجّ عبقنا معاً. آه لم أسألك: هل تفضّل ارتداء البرنس الثخين الأبيض ذي التيلة القطنية الغالية والراقية؟ على أيّة حال، سوف أشتريه خصوصاً لك. ألا ترى أن الحبّ يكلّف كثيراً، لا تنْسَ بعض الأدوية من المهدّئات والمنبّهات معاً، المسكّنات والمراهم، والمناديل الورقية الرقيقة جداً، المشروبات المباركة التي تسرّ الأرواح والأغذية الفردوسية، لا أعرف ماذا تفضّل في الصباح، فلنقل إن عندي وفراً من:

«على الزبد والتمر والجبن والفواكه وبأحسن الأنواع، سأملأ المائدة وتصبّ لي شراباً معتماً وأصبّ لك شراباً فاتحاً، سأصنع لك مخلوطة بالعسل والزبد وأعدّ لك الخبز المعمول من العسل والتمر».

فهذه المدينة تصالحك مع شهواتك ومتعك ولذائذك وتهيئ لك أفضل السبل لتدريب يدك على رياضة دفع الفلوس. فكل شيء ينتج ويستخدم ويستهلك، وأوّله الهواء، عليك بدفع أجوره. بالطبع أجور الباصات والقطارات الأرضية التي تتزايد سنوياً، ودخول المعارض التشكيلية وأفلام السينما، والمشي، نحن مشّاءان بصورة ممتازة، وهذا يقود إلى الجلوس في مقاهٍ، وباريس ليست

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

غالية كما تعلم جيداً، هي فقط مدينة حرّة حيويّة شديدة الرقّة والنعومة والرأفة بالمغرمين، ولا تريد إلّا تسديد النفقات التي تكلّفنا بها في نوبة من المرح. أظنّ أننا نحتاج إلى شهر لجميع هذه الإجراءات، عال، أحزم الأشياء: فرش السرير، خزائن الصحون، أواني المطبخ، لا تسأل عن الكتب. فقد حضرتُ الكراتين ووضعتها في السرداب. لديّ أشياء تُطوى، الكراسي والطاولات إلخ. أتعب فأجلس على حافّة البانيو وأتحدّث معك بصوت خفيض وأنظر إليك؛ في الخريف نتعابث هنا في هذا البانيو الزهري. الماء يمدّنا بالأملاح التي نريدها. أخاطبك وأبدأ من جميع هذه الأشياء التي لا لزوم لها الآن: «علينا تعلّم حبّ ما هو متناقض» أليس كذلك؟ الحمّام مكان التلاقي الحميمي قبل الجنس وبعده. سوف أكتب صفحات قادمة عنه، فهو منطقة تجريبية لأنماط سلوكية معقّدة ومتوتّرة. بخّاخات مختلفة مصنوعة من المطّاط والمعدن للتشنّج العضلي، للرقبة والأكتاف والظهر نزولًا إلى الفخذ المُعَضّلة، أضعها أمامي بالتساوي وآخذها معي أينما أسافر وأحلّ من أجل متاعب الوقوف الطويل والإيماءات والحركات وكل ما يلم بي، وأنا، أظنّ أن هذه المواد هي التي تسهر عليّ. شغفت بيدك فور وصولك إلى بيت آنيتا الصيفي في مدينة هوف المجاورة لبرايتون في عام ٢٠٠٥، وتقابلنا وجهاً لوجه. في تلك اللحظة، وأنت تدخل من الباب تنفصل عن الجميع وتأخذني على عاتقك، أليس هذا ما يقال يا بحر؟ قلت لك، قلت لي وابتسمنا، كلا، أطلقنا ضحكاً عالياً، وحين خرجنا

غير عابئين بأحد وصلنا الفندق. كنت أنظر إليك بطريقة من لديه فقر دم وتغذية سيّئة وهرش أزلي. فقلت لنفسي وربما سمعتني:

ـ هيّا يا بحر تعالَ لكي ترتب أعضائي على هواك.

يتمرّغ أحدنا في الآخر وأشتهي لو تنجز كل شيء بصورة تفصيلية وإنْ أثارت الملل. ظهري الحريري الجلد، هذا وصفك له وهو مبالغ فيه، تردّدت في الأخذ به لكني وافقت. فأنا أحبّ الحرير والموسلين. الفكرة التي نأخذها عن المرء ونحن ندخل حمّامه. آه، عذوبة لا حدّ لها وأنت ترى وتشمّ وتسمع كما أعمل للتوّ بك ومعك. أسمع صوتك مرّة ومرّات ولا أجيب. صوتك كالمورفين لا يعالجني إلّا بالتكرار والإعادة. ثيابي صارت فضفاضة جداً على بدني، ووزني ينقص ساعة بعد ساعة وأنا أنتظر مكالمتك، أنتظرك. فجأة، أتوقّف عن التنفّس كما تفعل أنت، فلن أعرف فيما كنت تفكر، وأنا أتأجّج وأناقشك بصوت مسموع في الطريقة التي تفضل ملاقاتك بها؛ أي الثياب، الرائحة، الأغذية، الشراب، الفواكه، الزيتون، الفستق، أنواع الخبز، وذاك النعاس الفاتن الذي يغطي عينيك. بالطبع، الجاذبية الجنسية التي تتصاعد ذهاباً وإياباً ما بين الحمّام وباقي الغرف والأمتار، والتوقّف عن القبلات بعدما أفرغنا اللعاب والعرق وقليلًا من الدموع، لم أدعك تلاحظها تماماً، فالإضاءة خانسة وأنا أرقد فوق صدرك. أردّد في سرّي: إنني أشهد نجاحي معك، من حسن الحظّ أننا لم نجب عن جميع الأسئلة، نقهقه، نتمازح كثيراً قبل أن نتوقّف تماماً عن اللثم. نضحك وتظهر أسناننا البيضاء الصالحة للعضّ الحميم.

على عجلة نقوم بأشياء عدة وكثيرة في وقت واحد، نفحص بطريقنا الساعات الباقية لنا، وأنت تقول:

ـ حبّ أرض أرض. حبّ من المغيب إلى الضحى.

وأنا أعدك وأعد نفسي بترميم هذا البيت لكي يتّسع لكلينا، فالغرام يحتاج إلى مساحة شاسعة، فلنقلْ مساحة الفردوس لكي يختفي أحدنا عن الآخر ثم نعاود الظهور. أظنّ أن المعماريّ الذي هندس الشقّة كان بوليسياً. فهو لا يحتاج إلّا إلى بضع خطوات لكي يرى ويسمع ويلمس العدو. فهذا المكان يصلح لفئة قصار القامة، أصحاب الأجسام الصغيرة النحيلة، فكيف ستكون الحال معك يا بحر؟ عندما سكنت هنا تصوّرت المكان مجرّد ملحق لشيء أو مكان آخر، شيء لا علاقة له ببلدية باريس في الحيّ الذي أسكن فيه، ولا بالنظام المعماري في توزيع الجادات والشوارع والعمارات التي كلما سرتُ بمحاذاتها تناهى إلي أنني أصغي إلى نوتات موسيقية، وأنني بعد قليل من السير سوف أتمايل طرباً وأنا ألمس الدانتيل. عمارتنا لها علاقة بالملابس المستعملة، مهما نظّفت وأعدت شطفها أو طلاءها فلن تصبح جديدة أو معقولة، بل ربما ستظل مبتذلة.

عـــادي

من قبل كنت أردد:

ـ انتبهي يا امرأة، لقد انتهت الخدمة، خدمات حالي لنفسي وهذه الشقّة.

لكني لا أبالي. لم أنكفئ ولا اختفيت. صحيح أني كنت أصدر بعض الآهات والصيحات كأنني طرزان في الغابة، لكني لم أسمح لقرودها بالتعرّف على صوتي الفطري كما معك. لا تظنّ بي المبالغة. فأنا لا أحبّ هذه الشقّة، لكن، منذ تعارفنا، بدأت بتطوير قدراتي الصوتية أكثر من ذي قبل، فهي مجالي الوحيد لتحقيق الغرام. في الحمّام كل شيء ينال حقوقه، وأنا أحاول التدرّب عليك وعليّ، وها أنا ثانية أعود إلى هذا المكان فهو يتطلّب إعادة تأهيل أكثر من أيّ مكان في الشقّة. أضع علامات هنا وهناك؛ آه، بعض التغييرات في الأبعاد وبالتالي في الوظائف، لمَ لا؟ فكنت أشاهد علامات هنا في بدني وبصري وشهواتي. وأينما ألتفت تواجهني الوالدة وهي تدندن بصوتها الجميل وبيدها ليفة المواعين الخشنة. كانت تتحدّث مع نفسها وهي تسخر:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ أريد أقشر وأكشط لحمك وجلدك.

فأبتعد قليلاً لكي لا أقع تحت فظاظة يدها. تلك اليد كانت تصل إلى الأشياء فتقول لها:

ـ أنتِ هنا وأنا هنا وسوف نتحادث قليلًا.

فتتخاطب مع جميع الموجودات والأشياء العادية والبسيطة والتافهة، الخفيفة والثقيلة، وكل ما يخطر ببالك تفتح له ذراعيها، وتتوصّل إلى جوهره وهي تغنّي، فألاحظ المباهج والأحزان تتوافر في الوقت نفسه. فالوالدة سوداوية يا بحر، وأنا أيضاً. فقد أوشكتْ أن تحرق البيت وهي في داخله في إحدى السنين، وإلى اليوم لم نعرف لماذا. لكن بعض الجيران قالوا إنها تعمّدت ذلك، ربما حاولت الانتحار ولم تكن تعي ذلك تماماً. شمّرتُ عن ساعدي وقلت أنا أيضاً سأبدأ من هنا، أريد لهذا المكان بكل زواياه وأمتاره القليلة أن يفتح شهيّة نفسي على نفسي في الدرجة الأولى. أريد أن أستيقظ في اليوم الذي يليه وتظل عيناي مستيقظتين، أتأمّل جسمي العاري وآخذك لصقي، أبدأ بك فتبدو منزعجاً. يا الله، أنت كيّس ومهذّب وضمنياً تدور بمحاذاة العري لكنك لا تبذل ما بوسعك. اتّصلت بالصبّاغ السيّد أحمد المصري، الذي يعرف الحدّاد والنجّار وباقي الفريق الرياضي. ليل تقول عنه:

ـ إنه رجل أسطوري. جرّبيه.

لم آخذ كلامها على محمل الجدّ، فالعرب في الغالب لا يصدّقون الوعود ولا يتقنون الأعمال. أريد أحداً بل أكثر وأكثر في الترميم والتعديل والتغيير. أجابني السيّد أحمد بأنه سيحضر غداً بعد الثامنة ليلًا حين يفرغ من أشغاله.

وأضاف:

ـ إذا شئتِ أفرغي الحمّام والرفوف. هل لديك صناديق كافية؟

صار الأمر جدياً إذاً:

ـ مدام، هل أجلب معي بعض الكرتون؟

ـ آه.. لمَ لا؟ اجلب ما تشاء.

قلت هذا من باب التهكّم وأنا أغلق الهاتف. ابتسمت ورحت أردّد بصوت هادئ:

ـ حسناً سوف أحصل على مناظر طبيعية ومتكاملة لهذا السكن الذي سأشغف به. الموضوع يستحقّ العناية التامّة.

بحثت عن الكاميرا العادية التي لديّ وبدأت بأخذ الصور، صور الشقّة وهي في حالتها المنفرة. لو كنتَ مكاني لأخذت لقطات بعدسات فيكس، زوم ٢٠٠ بكاميرا NIKON التي شاهدتها بين يديك في اللقاء الثاني، ولكنت حصلت عليّ وأنا أستحمّ ما بين الضوء والعتمة، وأشياء كثيرة. فلديك ما تعمله يا بحر لو حضرت الآن. على أيّة حال، هذه وثيقة لسيرة بيت وغرف ورجال حاشية وثياب على الجدران ولوحات أورجينال، كما تردّد الفنانة ليل. تذكّرت جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي، قلت لي عندما شاهدتك أول مرة، في تلك الليلة من اليوم الواقع فيه الرابع من تموز من عام ٢٠٠٥ في المكتبة الوطنية في مدينة برايتون وبيدك الكاميرا، إنك تريد كتابة سيرة وجهي وملامحي، قسماتي وتصرفاتي:

ـ هذه الكاميرا ليست إلا وسيلة من الوسائل للتأثير في وعي البشر، وربما في الاحتجاج على الواقع.

تصوّرتك رجلاً تقف أمام الكاميرا. كان وجهك أرستقراطياً وجمالك ملوكياً ويصعب على من يمتلك بعض هذه الصفات التفاهم معه. وأنا أدور في هذه الأمتار الصغيرة وأشاهد كل تلك الموجودات التي رميت بعضها للزبالة، وتركت الباقي للسيّد أحمد، وها أنا أتفرّج على بعضها الآخر. كنت أتابع عملي وأنقل عينيّ ويديّ ما بينك وبين الأشياء. كنت أراها تتحرّك باتجاهنا فأحبّك بشيء من الفوضى والسوقية، آه، فلنقلّ هذه الأمتار القليلة تغذّي الفجور والتهتّك كتلك التي توفّرها الحمّامات التركية والمغربية، وربما الشرقية والأوروبية. الرخام هو الشيء الوحيد الثمين في هذا الحمّام، والشقوق فيه تتّسع وبريقه يمحى. وما إن أرفع رأسي إلى أعلى ومن الجانبين حتى أشاهدك تبتسم وتدير رأسك إليّ:

ـ أحبّك طوال فترة ما بعد الظهر.

أسألك:

ـ وقبله وبعده ماذا تفعل؟

كنت أتجاهل الجيران وأنا أزيد فتحة الفم بالضحك، ثم بغتة، أنخرط في التأفّف والتبرّم فيتغيّر مزاجي وأبدأ بالصياح والبكاء. يتصاعد زفيري ثم يهبط نفيري وأحاول تكسير طبقات صوتي الأصلي في محاولة مستميتة للوصول إلى ذاك الصوت: لحظة ولادة الطفل البشري، لحظة الصرخة غير المدرّبة قطّ على نظام أو إشارة أو نيل أية مكافأة. فالوضع هو ذاته في الحبّ. لا شيء حقيقياً لكنك تبالي بكل ما يأتي به.

تعلّمت في هذا البيت دفع الأمور إلى حدودها القصوى، بمعنى أن هذا السكن مكان عاطفي وهو لا يستطيع تدبير أمره إلا إذا ساعدته أنا، فكنت أطوّر قدراتي على حبّ المكان كما أقوم الآن معك، أقدّمك لنفسي كمكافأة نهاية الخدمة حين أجعلها معقولة، وأنا أنظر حول العينين، وحول فمي وما يجاوره، والجبين ذي الخطّ المحفور قرب الحاجب الأيمن، والخطوط والتجاعيد التي تدلّ على تاريخ الاستعمال وصلاحيته التي لا توجز قط، والرقبة ذات الأعصاب والشرايين النافرة التي استوفت جميع مواعيدها وثبتت بهذا الهدوء الموضوعي. أظنّ أني لم أحسب تماماً فترة الدقائق التي لثم فيها أحدنا الآخر في الملاقاة الأولى قبل عامين، لم تدعني واقفة على الأرض برزانة، فألفت قصة طويلة عريضة كاملة عن ذلك اللثم للشفاه وشحمة الأذن وامتصاص اللسان والهمس ما بين الرقبة والكتف، كانت تسهّل عليّ تلقي مؤشرات الشغف البدائي الذي كركبنا معاً، ورددنا ذلك وحدنا مرات عدة، فكنت أخاطبك يومياً، بلى، أتحدّث بصوت مسموع وأنت صرت أصمّ فأحاول أن أتأقلم مع قامتك الطويلة وأستغني عن الكثير من الأثاث، الكثير من العوائق، لكي أدع جسمك الرشيق يستمتع بالفراغ فهو مثير جداً، ألم تعرف ذلك من قبل؟ ينبغي تعلّم أشياء كثيرة، وينبغي أن نلقي نظرة فاحصة على أبداننا. فأنا أضجر من النظر إلى جسمي، وأنا أستحمّ وأنا أتلفّت، وأنا ألمح حدود الاسترخاء في الثدي العاري أو الزندين اللذين هما بحاجة إلى تجديد برفع الأثقال الخفيفة باستمرار. كانت بشرتي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تتبدّل ألوانها حين لا أنظر إليها بفكاهة، أي واللّه، كل شيء أدخله في هذا النظام وأدعه يبدو مرتاحاً من الرضى والقبول إلى أن يتمّ الترميم، فأردّد:

- برافو راوية، الثديان تحت الفانيلا السوداء شيئان آخران، حرّان لطيفان، ناجحان قديمان ينتظران عبثاً ولا يصرخان، وهذه علامة جيدة، فلا أعرف ماذا أفعل.

البقع السوداء تحت العين، تقول عنها جنان، إنها تحضر من اتّساع الشرايين بسبب تقدّم العمر. لا أردّ عليها وأواصل النظر، فأرى النمش الموزّع عشوائياً في الصدغين والوجنتين والحنك. أما اللسان فكنت أخرجه لنفسي ولك وللكثيرين ممن أعرف، فلونه يتغيّر ويصبح أبيض بسبب ضعف جهاز مناعتي، رجاءً، هذا كلام علمي وليس عاطفياً. فالمناعة تدخل طور الدفاع عني وعنه ما دامت الهناءة تتأخر. أما حين يكون بلون زهري فصوتك يكون في الهاتف، أصغي ولا أجيب. أجل، لماذا أفعل هذا يا ترى؟ أريد صوتك تاماً كاملاً يتناقل ويتوزع بين الغبار وأرضية الخشب، والرفوف والثياب والبهارات والبكاء فيصلني كما هو، وأنت على أفضل صورة، عادي، جدّ عادي، وأنا أيضاً.

- ٤ -

حضرت لكي أحبكِ

عندما تنتهي الدقائق ويتوقّف صوتي لا أتذكّر ماذا قلت لكِ، فأعاود وأخاطبك بضمير الغائب هي، أو بضمير المخاطب أنتِ. لكل ضمير كما يقول النحاة ذبذبات صوتية، وصوتك يضعني في حالة من الاستنزاف، فأحتاج إلى وقت طويل من الترميم. لا أذكر أن قلت أحبّكِ، وهل هو أمر مهمّ أن يقول المغرم الكلمة؟ رجاءً، لا تضحكي أو تصفّقي أو تصفري، فحين أقول أحبّك باللغة الإنكليزية أو الألمانية وحتى الفرنسية، أشعر بأنني أقولها بموجب عقد عمل فتبدو الكلمة رائجة كالإعلان، بلى، بها شيء من اللطافة والخفّة لكنها شديدة الشحّ، لا تكفي، تقف عند عتبة فمي ولا تنزل إلى الأحشاء. المفردة هذه عصيّة جداً لا يظفر بها الجميع، ولشدّة تعقيدها أخشى أن تأخذ مكان الألم والمرض والساعات التي توقّفت منذ دهر، وباقي المفردات الاعتباطية التي يبدو أن الطلب عليها لا يضرّ كثيراً لكنه لا ينفع، ولا يقوم بمساعدة الجنس البشري كما يجب. تصوّري يا راوية، هي المرة الأولى

التي أقول فيها أحبّك بالعربية، ربّما لم تسمعيها بوضوح، فقد قلتها بعد أن أغلقت الهاتف. نقلت السمّاعة من اليد اليمنى إلى اليسرى، أخذت نفساً طويلاً من السيجارة وقرّرت أن أقولها، كنت أريد ان أحبّك بسرعة واحد من ألف من الثانية، هذه هي المدّة التي تستغرقها الصورة لكي تثبت على الشريط الحسّاس، فألمح وأهمس بها، لكن الكلمة لا تعيرني انتباهاً، كان بها شيء من العجز والاستعراضية، وقبل النطق بها في سرّي انتهت الدقائق ورأيتك تهرعين إلى صدري وتردّدين بصوتي: أحبّك، أحبّك فقط. حرف الكاف خشن قليلًا يقضم طرفاً من اللسان وباقي الحروف تعلق بلعابي فأراقب نفسي وأنا أتلذّذ، وأتلمّظ بك وبها.

سافرت إلى باريس مرّات لم أحسبها ولم أخبرك بها. وقفتُ في مدخل شارعك وشاهدت اسمه فتأكّدت من ذلك، وحين سرت قليلًا وصلت العمارة ورمقت الشقّة بالطبع. لم أرك. هيّا، ابتسمي، حضرتُ لكي أحبّك، من الأفضل أن أفعل هذا، فالكلام الذي لا يقال هو، هو الآخر يُقال، ولكن ليس هو. هل أنت تلك المرأة التي شاهدتها أول مرة في مكتبة برايتون؟ دمدمت خشية الازعاج:

«لعل النسوة يدخلن مع أغانيهن، امرأة مريضة بالحبّ».

أما «إذا حلّ حزن برجل وضاقت حنجرته، أو عندما يأكل طعاماً أو يشرب ماءً لا يوافقه ويقول آه قلبي ويستمرّ بالأنين، فإنه مريض بمرض الحبّ». هكذا قلتُ حين ضجّت القاعة بالتصفيق، وآه ما أجمل رجلاً مريضاً بالحبّ، فدعيني أحبّك لحظة بعد

لحظة، ومن وراء الكواليس أسمع صوتاً يقوى وتتضاعف ذبذباته القويّة:

«وفي اليوم الذي تركت فيه العاصفة البلاد، غادرتها والمدينة خراب، آه أيّها الأب، لقد ترك المدينة يباباً والناس ينوحون. قد تكدّس فيها الموتى، في جميع الطرق والسبل تناثرت الجثث، وفي الحقول الطلقة تراكم الموتى، وملأ دم البلاد ثقوبها، وكمعدن في قالب ذابت الأجسام كالدهن تحت الشمس».

هكذا إذاً، ضجّت القاعة بالحماسة وتساءلت والأمر يزداد انغلاقاً عليّ. آنيتا ذكرت عرضاً أنك تنشدين للغرام والشهوات والرغبات الدفينة لديّ فهي الأكثر إثارة لي، ما هذا الذي تنشدينه يا راوية وأنا أنظر باتجاهك تماماً. ظهر لك ما يشبه الأنياب. أما الأظافر فقد كانت فتّاكة:

«سأهيب بالشمس فتترك شعاعها، وأغطّي بالظلام الدامس وجه النهار. فمن ولدته أُمّه في يوم ماطر، ستدفنه في يوم مسبغة. ومن مضى من طريق مروية خضراء، سيتّخذ في عودته طريق غبار ورمال».

بيدك الصوت، صوتك، وأنت تقلّبينه أمامنا فيظهر ضوءاً ليقول لي، وحدي، إن الطبيعة تؤدي واجبها معك، والشمس شريك قاتل فيما تنشدين فيظهر صوتك وقد تقادم عليه الدهر فبدا محلياً ودهرياً، ففهمت خطتك على الفور وأنت تقفين في منتصف المسرح: امرأة متوسّطة القامة ذات وجه قديم هو الآخر، أعني: عريق، وربما غير زائل:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

«زيّنت جسدها بالجواهر والحلي».

قلت، ربما للإغراء. «خواتم من الفضّة في أصابعك وأقراط من الذهب والفضة كبيرة وتتلألأ. وزنّار له شكل زخرفي يبرق في كل التفاتة فينير وجهك، والأساور الفضّية العريضة كانت تخشخش بها في كل ارتفاعة يد ونزولها، وكان هناك المشبك أو الإبزيم وكذلك المغزل الذي صنعت بواسطته ملابسها. أظنّ هي (الإبرة) والأكثر دقّة هو دبّوس مسمار العقدة الذي يساعد على ربط حمّالة الثدي مع الثوب. وكانت ترتدي العباءة مشبكة بدبوس على الجهة اليسرى ورائحة مرهم أو زيت كانت تذهب إلى حافّة العباءة».

وتصلنا الرائحة ونحن في الصف الخامس. طَلّتْ عينيها بكحل عربي ثقيل، وحمرة شفتيها مكسوّة بلون رمّاني غامق، وهي، رجاءً، دعيني أخاطبك بهذا الضمير وأمكث فيه كما أشاء. وليس من واجبي في كل مرّة طلب الاستئذان منك. كانت ترتدي سروالًا أسود وقميصاً باللون نفسه بحمّالات رفيعة تحت العباءة، التي كانت كلما تحرّكت انفتحت على امتدادات جسمها الرقيق. نهداها صغيران ناهضان وهي في أقصى حالات الجاذبيّة فتصدر منها وعنها إشارات ما بين الإغراء والطفولة، هذه الأخيرة بهذا المعنى كانت علامة وقف مما ضاعف فتنة الصوت وطريقة الإنشاد. فهي تنادي، تنوح، تهذي وتقهقه، تؤلف وتؤرّخ أمامنا قصصاً آنية وسحيقة القِدم، والصوت يتشكّل بالتدريج، فلا نقدر على إحصاء الأمكنة، الأنهر، الكتب، المخطوطات والمدن التي مرّ بها فيمتنع عن التأطير. تتحرّك بسرعة خاطفة وتدور على

نفسها، تجلس بغتة وتقوم بعد لحظات فيظهر جسمها، وهو يتّسع بعدما تخلع العباءة. كانت تنشد لكل واحد منا على حدة، وبلغات لم نفهمها جميعاً، فينتفض بدنها ويرتفع إلى أعلى، يهتزّ عصبياً فنرى شرايين رقبتها على وشك... ما هذا؟ الأضواء تتغير كما لو كنّا في مراحل جيولوجية، الوصول فيها مستحيل إلّا عبر الصوت. والسيّدة تلك، المنشدة الموجودة، الآفة التي لا يسعني إلّا أن أقول إنها على غرار تلك الفنانة الأميركية التي كانت تأكل الصالة والمسرح. وفي غضون ذلك، كنت أرتعب منك ومنها، تلك المدينة، بغداد، وهي تفتح لي ذراعيها كما كانت تفعل راوية قبل قليل تكشف مفاتنها والمدينة سواء بسواء، تغمرني بالعناق فأشعر بأن كل يد هي نافذة تفتح وتغلق بفعل دقّات القلب، وأرى نفسي وأنا جالس في الصالة أجمع نفسي بين صدرك وبطنك ورقبتك. تأثّرت بصوتك، بأدائك الغريب، **بالطرق** السريّة التي تقومين بها وأنت تتغيّرين أمامنا فتظهرين في كل ثانية بهيئة مغايرة. اشتهيت أن ألمسك وأعانقك وأضاجعك أمام الجميع، وأمام الكاميرات، فأعيد تركيبك وأنت تعيدين تركيب تلك البقعة الوحيدة الباقية من تلك الأرض التي غادرتها منذ ستة وثلاثين عاماً. يتكرّر الإنشاد فأكرّر تقبيلك وأعرف أننا نشبه فريق عمل خاصاً من المصوّرين والشعراء والمهندسين والممثّلين اللطفاء. لكن بغدادك ليست هي ذاتها بغدادي:

«سأظهر مزيداً من الفتك والانتقام، فأستلب روح الابن ويدفنه أبوه. ثم أستلب روح الأب ولا يجد أحداً ليدفنه. فمن بنى لنفسه

بيتاً وقال: هذا مكان راحتي (وإقامتي) فإني جاعل بيته هذا مستقراً لي، عندما تحملني الأقدار إليه، فألبث في وسطه، حاملًا الموت لصاحبه، ثم أدمّر بيت راحته وإقامته. فإذا صار خراباً (يباباً) وهبته لشخص آخر».

اليوم لا أعرف بالضبط، هل أنت راوية ذاتها التي أنشدت في تلك الليلة من عام ٢٠٠٥. كنتُ في مزاج بالغ السوء وأنا أسمع لغات عدة بينها العربية. وأشاهد سحنات وألواناً وأعراقاً وأزياءً شتّى، تقليدية وعلى الموضة كما تردّد آنيتا التي بقيتُ أنتظرها وزوجها الألماني هانز صديقَيّ الحميمين. شخصياً لا تستهويني هذه الحفلات والدعوات. لكن آنيتا طلبت بإلحاح ورجاء: أن أحضر ومعي الكاميرا. قالت: أيّ كاميرا وعلى هواك، ربما، تلك الألمانية LEICA، أو كما تشاء، الأمر ليس عملًا ولا صيداً، لكن رجاءً، احضرْ. شاهدتُ كاميرات محمولة على الأكتاف وسمعت رنين هواتف جوّالة والجمهور كان يتزايد بسرعة غريبة. المسرح مفتوح أمامنا، مايكرفون وكرسي منخفض. سجّاد ووسائد في قعر المسرح من الصناعات الأفريقية والباكستانية الزاهية الألوان، والجمهور بدأ بالجلوس، وأنا، دفعة واحدة تكفي لكي أتسلّل بعيداً. حركتان في وقت واحد، كل على كتف، وبصوت شبه هامس:

ـ رالف، منذ متى وصلت من بازل؟ لم نتوقّع أن نراك، قالت آنيتا، وتصل قبلنا أيضاً هذه مجازفة كبيرة. أكمل هانس. آنيتا المصرية أستاذة اللغة العربية والمسؤولة عن الترجمة واختيار

الروايات والكتب العربية في دار النشر الألمانية في مدينة بازل، وهانز من أصل جرماني وأستاذ في معهد الدراسات الشرقية في المدينة. هذا المعهد يهتمّ بتاريخ العالمين الإسلامي والعربي. وهو مفتون ومتخصص في الأدب العربي الكلاسيكي للغتين العربية والفارسية. رجل رزين حنون وذكي جداً. آنيتا تسمّيه «القوّة الهادئة»، وهي المصرية، شديدة المرح والأريحية، فيطلق عليها «الساعة الذريّة». دمدمت من بين أسناني:

ـ حسناً سنصغي إلى السيّدة التي صدعتما رأسي بها، هه، سنرى بعد قليل.

ـ سنصغي يا رالف أرجوك ارفع الغبار عن لغتك.

ـ أيّ لغة يا عزيزتي؟ وإيّاك أن تحاكميني بواحدة، فهذه كثيرة.

بدأ الحاضرون باتّخاذ الأماكن غير المرقّمة. كنا نقارب المئة فجلسنا معاً نحن الثلاثة في الصفّ الخامس. بدأت الأضواء تخنس قليلًا حتى اختفت. في تلك الليلة، كان لحمها أمامنا يتحوّل إلى أمواج من العرق والنشيج والشهوة والغضب.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

القفا

ـ هذه راوية، نصف عراقية مثلك، منشدة، هي تفضّل الإنشاد.

تواصل آنيتا وتقدّمني إليكِ بعدما انتقل بضعة أصدقاء إلى دارتهما الجميلة في مدينة هوف المحاذية لمدينة برايتون. كنت واحداً منهم بالطبع. قدت درّاجتي الهوائية وتأخّرتُ قليلًا وحين وصلتُ كنتِ في مواجهتي:

ـ رالف ألن، أو مستر بحر الخليل كما نفضّل مناداته أيضاً، نصف عراقي، نصف شاعر، نصف مصوّر، أحياناً نصف عاشق، وممثّل هاوٍ.

ابتسامتا النداء والرجاء اللتان لم تخفهما عن الموجودين وعني في الدرجة الأولى. ابتسامة صريحة أظهرت نضارتك وباقي عناصرك: الأسنان الصغيرة غير المتناسقة تماماً. فشعرت فوراً أنها ستغلق على شفتي فلا أقوى على التردّد كما حصل أمام تلك البائعة قبل قليل. كيف لا يحضر من وجهك إلا تلك الابتسامة وهي تذهب إلى الحدّ الأقصى من شجنك الذي كان يفيض على ذقنك

وثيابك. قلت لكِ، قلت لها، ونحن على بُعد خطوتين من ضميرَي المخاطب والغائب، فلا أهتدي إلى أيّهما المناسب والأفضل، أو هما متساويان وأنت غائبة الآن. ثمة أشخاص وحدهم كانوا، ثمة ما لا يكفي من أيّ شيء، وكل شيء يتقدّم ولا يمضي في ما بيننا، من فمك الذي يبتسم باتّجاهي ولا يلاحظه أحد غيري، وأنا أراك غير مبالية، شديدة الحيلة ومهذّبة أيضاً:

ـ آه، هذه أنتِ، أنتِ راوية.

نحيلة أنتِ، أكثر مما بدوت على المسرح وتحت الأضواء. ابتسمتُ بدوري وقلتُ لنفسي وأنا أقف أمامك: تحتاجين إلى تغذية، أعني إلى برامج تامّة في التنمية. وما إن أمعنتُ النظر فيك حتى وجدتك مترامية الأطراف. وكان بمقدوري أن أدلّ على عمرك بعدد المسرّات التي أزهرت وهي بانتظاري. انكشافك عليّ وأنا خليلك منذ دهر، بهجة بشرتك التي تمنح السكينة ثم تدعو إلى اللثم، نداوة جلدك الذي، لثانية، شعرت أنه بمتناولي كله، وطريقتك المباشرة في التخصص بي، هكذا شعرت، وإلى اليوم، حين فتحتِ يديك الاثنتين كأنك تريدين نقلي من ذاك النصف إلى نصفك أنتِ. كفّاك حانيتان صغيرتان مسترخيتان موجودتان أمامي وبين يدَيّ الصلبتين وأنا أريد الاقتراب أكثر والاستعداد لاحتضانك. كيف تدربتِ على تلك النظرات؛ نظرات السهر عليّ، على راحتي. أنتِ وجُدت أصلًا لهذا الغرض. سروري وغروري كانا سيفقداني كياستي حين أخذتني آنيتا لثانية وهي تقول:

ـ هيّا، اذهب وقدّم لها كأساً.

- وماذا تشرب؟

- اسألها.

- أخبريني أنت.

- يمكنها أن تخبرك هي.

- و...

لا تخفضين عينيك وبيدي قدحان من الشمبانيا احتفاءً بك وبنجاح حفلتك في برايتون. أتلقى النظرات وأكاد أجزم أنني لست ذاك الرجل نفسه، أنا النصف من ذاك الكل، ليس الأمر الذي يتمّ في ما بيننا كتبادل التحيّات بين شخصين مجهولين يلتقيان أول مرة. اثنان يقفان وجهاً لوجه ويشيران من أطراف عدة علانيّة وسريّة: أن هناك شيئاً ما يقترب عن كثب، لا يتراجع، بلا صوت ولا كلمة، لا هو نعم ولا هو لا. لا أنا أستطيع الفرار من أمامه ولا أنتِ، ولا أدري إن عرفته في السابق. جائز، نقول دائماً هذا الأمر ذاته، نعتقد أنه صحيح ونعرف أيضاً أننا نمتلك الوقت الكافي لكي نزاول هذه المراوحة ما بين القول والسكوت، وعلى هذا النحو، نرغب في المزيد من النظر والاشتباك الهادئ لكي ننقذ ذاك الأمر غير المتوقّع، وما سوف يحدث لنا من جراء المتوقّع، والذي لا يقتصر على الإفصاح ولا يراعي الإتيكيت، ولم يتدرّب عليه أيّ واحد منّا. ربما، تصوّرت هكذا، هو شيء على مرأى منا نشاهده بوضوح وندري أن لا وقت معيّناً له، ولا نستطيع إخباره لأيّ واحد منا، كل على انفراد، ولا لأيّ أحد، آنيتا مثلاً، لأننا لا نعرف، فندع أنفسنا تنجرف فيه فنمشي إليه، وبحركة واحدة نجلس على

مقعد ضيّق جداً لا يتّسع إلّا لشخص واحد، واحدة، لا هو أنا، ولا هو أنتِ، وصوتانا يتعاليان بالضحك. أطلقنا قهقهات متلاحقة فاستدارت الرؤوس نحونا ومؤخّرتانا تتلامسان وتتدافعان، فالتفتِ إليّ وفمك أمامي كشخص ثالث يختلف عنا نحن الاثنين. أومأت برأسك بأنك ذاهبة إلى الشرفة وأنت تغصّين بالضحك، وأنا أفرغ كأسي الأولى وأصبّ الثانية، وأنظر إليك من وراء الزجاج. ظهرك مكشوف عن لحم ناعم لطيف، ذراعاك عاريان نحيلان. جذّابة وتشعّين. وكنتِ وحيدة. شعرتُ أن وحدتك لها عضلات فابتسمتُ وحركت رأسي بعيداً لتفادي إحدى اللكمات. ظهرك جعلني أقف بعيداً لكي أتأمّلك. قفاك قبالتي ويحادثني، وأنا أريد أن أقلّبه بين ذراعيّ، وأنت واقفة بصورة مستقيمة ثابتة، لا انحناءة في عمودك الفقري. وصلتُ ووقفتُ وراءك. كنت أصغي إلى أنفاسك الحارّة الهادئة، فأشعر أن المجال الحيويّ بجوارك يتّسع ويتضاعف. الأمر الذي فاجأني أنك تصرّفت كأنك تعرفينني منذ قرن، وأنك اتّخذتِ قراراً، ولنقلْ صعباً، أن تتكتّمي على معرفتك بي. ابتسمتُ وأنا أشعرُ أن هناك شيئاً منكِ يتغلغل في طبيعتي الفاترة ولا يعنيه كثيراً كيف ستسير الأمور؟ كان الشيء الأكثر إزعاجاً لنا هو وجود كل هذا الحشد من الناس ومن أجلكِ أنتِ في الدرجة الأولى، فقلتُ في خاطري:

- رؤيتك تشرح الصدر.

وكانت حالتي هذه المرة هي الأكثر اضطراباً وتشوّشاً فتقدّمتُ أكثر، وبصوت أعلى قليلاً ناديتك:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

- راوية.

التفتِ ومسقط الضوء أضاء نصف وجهكِ فازدادتْ ملامحك تأجّجاً، فقلتُ:

- في صحّة الدلال.

لا أعرف من أين جلبت هذا النعت وممن سمعته أول مرّة، وكيف تفوّهت به بسهولة بالغة؛ الدلال، كان مدّخراً بشكل خصوصي لها ولم يتعرّض لبحث وأنا أقوم بضبطه عليها. أنظر إليك بصورة غير مباشرة، كأنك تتابعين حديثاً توقّف منذ ومنذ... فصرتِ قبالتي وبدا صفاء عينيك العسليتين أكثر إشراقاً. رابطة الجأش كنتِ وحرّة بطريقة مزعجة، أعني، الحريّة التي تمنحك ومن يجاورك الحماية التامّة. قلتِ بصوت هامس ثمل:

- نخرج من هنا حالاً، ها، ما رأيك؟

- حالاً.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ٥ -

الشمّ

دخل الصبّاغ السيّد أحمد المصري إلى البيت مبتسماً وأنا أفسح له الطريق إلى الداخل. ارتفعت معنوياتي حين شاهدته وبيده العدّة وثياب الشغل. شاهد كل شيء في هذه الأمتار بعين فاحصة وخبيرة. سألني أسئلة حرفية وعيناه تتفحّصان الزوايا وتدقّقان في الجدران وما وراءها. يتحدّث ولا ينتظر الردّ. شعرت أن هذا السكن موجود بهذه الدرجة من التقهقر لأنني أتشبّث به، ممسدة بيدي على شقوقه وحجارته المتأكلة. شعرت والصبّاغ يتحرّك أمامي والابتسامة الحيية لا تفارق شفتيه، أني أنا والشقّة، سوف ننتهي من نظرات العداء التي نتبادلها، ليس بسببك يا بحر أنني أعيد إنتاج أشياء كثيرة هنا. الأكيد، وأنا أراقب وجهي المتشنّج وهو يتعثّر بالموجودات، أنني سيّدة لها ملامح وتكوينات من كل هذا في المظهر والإخفاق، في الطارئ والخاوي. هذا المكان كان له هدف واحد: أن أغادره إلى مكان آخر، ولا ألتفت إلى وجودي التامّ وأنا داخله فيدعني أتخلّص من رفقته وأذهب إلى مسافات ومساحات لا

أعود أتذكّر طرقها وقطاراتها وطائراتها. فكم هي البيوت التي سكنتها والفنادق التي شغلتها؟ إذاً سأحصل أنا وأنت يا بحر على صفقة مع السيّد أحمد هذا، سنكون تحت حمايته نحن الاثنين. كيف حملتني على التراجع عمّا قررت تأجيله منذ سنين طويلة؟ لقد تركت كل شيء مزرياً حتى خرب فعلًا. الأشياء تتضاءل وأنا معها، بل كنا نتبارى من سيكون تدميره أكثر مهنية من الآخر، وجود أحدنا هو ضمان للآخر:

- ترى يا سيّد أحمد كم نحتاج من الوقت لكي تمرّ يداك على كل ستمتر هنا؟ أضفت وأنا أبتسم:

- أريد أن أرى الجدران كلها تبتسم، وإذا كان بمقدورك أن تجعلها تغنّي فلمَ لا؟ مدام ليل قالت: إنك تقدر، ها.. صحيح...

تردّد لكنه أجاب بصوت خجول:

- بإذن الله. إن شاء الله، أسبوع وربما أكثر شوية، كله بأمر الله.

كنت أريد أحداً ما يشتغل معي ويساعدني في حبّك. فأنا لا أستطيع عمل ذلك بمفردي. رجاءً يا بحر لا ترمقني بهذه النظرات. فالحبّ لا يطابق ما نفكر فيه، وهو لا ينجو منّا، نحن أبناء البشر، إلّا بكون أيّ شيء مطابقاً لأيّ شيء آخر نفكر فيه. دعني أشرح لك: أريد ترتيب الأولويات في هذه الشقّة: جسمي وأعضائي، ثيابي وخزانتي كما هي في الحبّ، وأنت قادم إليّ، الحبّ الذي لملمته من الغمّ والفقد والسخط. لا أدري أكان بمقدورنا حقّاً

إنجاز جميع ما نفكر فيه قبل وصولك. دخل السيّد أحمد الحمّام وأغلق الباب وراءه. خفضت صوت المسجّلة قليلًا وأعدت النظر ثانية في جميع الموجودات حين ستتكوّم في وسط كل غرفة. بعد قليل يبدأ العمل، وحين تنفذ عيناي إلى جميع الأشياء، إلى أعماق من سكنها ويسكنها، إلى فجوات الغبار والحشرات والحرارة ومجرى الهواء ورذاذ الماء وهدوء الدم الذي ينحدر منها لبشرتي وجلدي، أعصابي وتركيبتي، إلى ما يزعزع المعاشرة والسلوك فيؤثر على نبرة الصوت، تعابير الوجه، حركات البدن وأشياء كثيرة سيأتي ذكرها تباعاً، لا أعرفها للتوّ ولا بمقدوري اختصارها. لكنني أهجس أنني أحضّر مكان سكناك. أزيح كل شيء جانباً لأفسح جميع الأمكنة لك. أشتغل وأتدخّل في كل شيء من طعامك وطرق الطهو التي أتفنن بها، إلى ثيابك الداخلية وقمصانك بالياقات الكلاسيكية أو من دونها تلك التي أفضلها. عندما خرجنا من بيت آنيتا في تلك الليلة الأولى من عام ٢٠٠٥ لم أنل لحظة استراحة واحدة، كنت تنذرني أول ما شاهدتك، تملأ الكأس وأنا أنوي أن أتنافس عليك مع نفسي بأصغر وأدقّ تفاصيل وضعك ومزاجك، دخانك وصوتك. كنت تحضر الكأس الثانية وأنا واقفة في الشرفة، فأتصوّرك وديعة عندي، وما عليّ إلا الحصول على النسبة الكاملة منك فأبسط صفاته السرية والعلنية: الجشع. يظهر أمامي السيّد أحمد بملابس الشغل، السروال المبقّع الرثّ القصير وفوقه القميص مثله. قال لي: إنه يعرف أين يضع الأشياء وكيف يتولّى أمور رعايتها. أضاف بلهجة جدّ حنونة: لا تخشي على أيّ

شيء مدام. فأنا حريص أكثر من الزبون. أخبرته أن رائحة الدهان سوف تقضي عليّ وأنا أضحك. أجاب أن هناك أصباغاً لا رائحة لها لكنها أغلى. إذاً فلتكن أغلى، أجبته. كنت أتخيّل اللون، سيكون العاجي، هه، هو لون لا يعوق حركاتي معك فأمسك يدك: تفضّل إلى الحمّام. كل مرة تحضر بعض الأمكنة، وعلى الفور ومن حيث لا نتوقّع، فحين أعثر عليك أضعك في حجري وأنزلك على مهل في البانيو فأبدأ بك. الليفة العراقية خشنة قليلًا فتطلق اسماً لطيفاً عليها:

ـ الليفة الجلفة، حتى الليف جلف لديكم.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الحموضة والحلاوة

هذه المرّة إن تحدّثتَ فسأجيبك حالًا، هيّا، هيّا، لمَ توقّفت عن الاتّصالات الهاتفية؟ أرغب في المزيد، كرّرت ذلك بصوت داخلي لكي لا يسمعه السيّد أحمد. أصبح لزاماً عليك التحدّث بالهاتف وما عليك إلّا تجاهل صمتي. أخبرني الصبّاغ برجاء شديد وهو لا ينظر في عينَيّ، أن لا أدخل الغرفة الكبيرة إلى أن يطلب ذلك مني. كان هادئاً حيياً وإيمانه يعدي فأردّد وراءه: إن شاء الله.

بدأتْ رائحة الدهان تنتقم مني، أراها تركض ورائي بسرعة فائقة وتتقدّم بصلف إلى شعيرات الأنف، العين، الأذن، خصلات الشعر، مسام الجلد، فأبدأ بالحكّ الخفيف حتى يتضاعف في عينَيّ، وشحمة أذني بدأت بالتورّم وأنا أجسّها بيدي، فأنظر إليها في المرآة وأضحك. أضع القناع وأربطه وراء أذنَيّ. أفتح الشبابيك إلى آخرها. أتحرّك دون مضيعة للوقت، وأنا في طريقي إلى خارج الشقّة والتوقّف في الفسحة الفاصلة بيننا وبين الجنينة المجاورة. تنفّست بصوت عالٍ، زفير شهيق، رافعة رأسي ويدَيّ إلى أعلى بحركات رياضيّة منتظمة. هواء الخارج لطيف وأصوات الأطفال

في أقصى حدود الصخب والمرح. كان الجو ملائماً لكي يفاتحني المهندس بونا فريدمان في مجموعة تأمّلاته التي تلائم مزاجي، على الخصوص هذا اليوم، فقد بقي يردّد أن مدينة أحلامه ستكون معلّقة بالهواء، في الأعالي، عندئذ لا نحتاج إلى مساحات كبيرة من الأرض، لا جدران ولا رفوف، لا سطوح ساكنة ولا سقوف ستقع على رأسك إلخ. لا تتصوّرني أبالغ يا بحر لو حدثتك عن بعض الخصائص الجديدة التي ظهرت في وجودي من جراء الوحدة، وحدتي. كنت أعتقد أنني أحتاج إلى مئات وألوف من السنين لكي أمرّ بتلك الانقلابات البيولوجية، حتى يحاول نموذجي التحقّق، وأنا أقيم في هذا السكن، مقذوفة بكامل كياني ما بين الثعلب والكلب البري وإرادة الحياة أن أعيش بسلاح الصوت؛ غنّي لكي تعيشي. غنّي لكي أسمعك، لكي نرى ذلك المزيج من الغرائز والمعارف والحواس والسلوك والطاقة. كنت أرقب جميع هذه التفاصيل وأختبر سرعة صوتي وحاسة شمّي واتساع قوة سمعي. هذه المدنيّة تنتج في كثير من الأحيان مخلوقات جديدة لديها طاقات للعب أدوار متطوّرة جداً وخطيرة أيضاً. قلت لآنيتا في أول لقاء بيننا في مدينة بازل في شهر أيار من عام ٢٠٠٢، ونحن في طريقنا إلى مؤسسة بيلير التي دعتني في أول أمسية موسيقية وثقافية أقوم بها في بلد أوروبي:

ـ هل هذه المؤسسة أجرت بعض الإصلاحات ولم تنته منها بعد، فرائحة الدهان والبناء والتهديم تفوح في هذه الشوارع الموازية للبناية، أليست هي قريبة من مقرّ عملك في دار النشر؟

توقّفت آنيتا حالاً، التفتت إليّ في دهشة واستغراب:

ـ هل قرأت عن هذا من قبل؟ لكن هذا لم ينشر على نطاق واسع. هل أخبرك أحدهم به، أحد الأصدقاء، فهو صحيح فعلاً. كيف عرفتِ؟

كانت المرة الأولى التي أقابل فيها آنيتا ولم أشأ القول أمامها إن حاسّة الشمّ لديّ قويّة لا أستطيع التحكّم بها. ابتسمت وأنا أنظر إليها، وقتذاك، كان شعاع من عينَي آنيتا السوداوين البرّاقتين يصلني فينتج مودّة شديدة فقرّرت أن أبوح لها، وأنا أقول بلهجة ساخرة:

ـ «حاسّة الشمّ لدى الكلاب تفوق حاسّة الشمّ لدى البشر بمليون أو ألف مليون مرة. العلماء شكّكوا في هذه النسبة فذكروا أنها تفوق مئة مرّة حاسّة الشمّ لدى الإنسان». أنا لديّ بعض العناصر المعقّدة التي تخصّ حاسّتَي الشمّ والسمع، فأحياناً يحدث، بغير نظام، أن تلطمني مركبات روائح عدة، أتريّث قليلاً وأفرزها أمام هذا الصديق أو ذاك. هل تعلمين، بمقدوري أن أستحضر رائحة أول ولد لثمني وأنا مراهقة، وأتحكّم قدر المستطاع بتوزيعها على مساحات جسمي فتنبثق الروائح والمفاجآت، والقبلات قبلة بعد قبلة، أحياناً من اليمين إلى اليسار وأحياناً بالعكس. هيا لا تفتحي فمك بهذه الطريقة اللطيفة كالأطفال، فأنا أعرض أمامك بعض أسراري من أجل صداقتنا في المستقبل.

دعني أخبرك وأنا في هذه السن، بأنني أخلط جيّداً كما تتطلّب آداب وحشمة المُتع واللذائذ، الدماء القديمة والغرائز النارية بعصائر الليمون والنارنج، وما إن نتبادل القبل العميقة الرطبة فلا نقدر على

التمييز تماماً ما بين حسيّة حموضة طباعي الغالية على قلبي، وبين حموضة وحلاوة عرقك الذي شممته براحة تامّة في مكان ما من جسدي فصار دليلي إليك. بقيت أسير أنا وآنيتا بضع دقائق حتى شاهدت عمارة حديثة ما زال العمّال ينظّمون ويشيدون وينظّفون زجاجها الصقيل والداكن اللون. نقف أمام بوّاباتها الدوّارة، التفتّ إليها قائلة وأنا أمدّ يدي:

ـ هيّا يا آنيتا تفضّلي. حاسّة الشمّ لا تنام بين الشراشف والأغطية والثياب.

عندما أقف في وسط مدينة بازل تصير فرنسا إلى يساري وألمانيا إلى يميني، وأنت يا بحر لم تكن موجوداً بعد في حياتي، وحين أختبر الحواس، حواسي، وأنا أريد التدريب على تذوّقك، أعني محاولة استرجاع ما حدث وتكرّر وتوفّر وتوقّف واختفى وحصل وجرّب واخترع من الوصال والمذاقات، من الروائح والشمّ، من التمويه أن نكون أكثر من مغرمين، لا أدري هل نحصل على هذا أم لا؟ كيف نصدّ ونهجر ونعاود، نتبدّل ولا نلحظ ذلك إلا بصعوبة لأننا عجولان. أنا كنت أحصل على أجزاء منك، وفي مقدوري انتظار باقي أجزائك ودون تعليمات منك ولا من أي أحد. فكل عضو فيك يوصلني إلى لذّة، ما بين الكهرباء وجميع الجهات التي بمقدوري المرور بها. كنت أشعر وأنا في بازل أنني أتنفّس الهواء الذي مرّ بفتحتَي أنفك وأعدت شهيقه في هذا الفضاء من حولي، وها أنا أعود وأستعيده ثانيةً فأزدحم بك، وأنا لا أعرفك... سوف أشرح لك الأمر، دون أن نضع خططاً أو

تكتيفات ثقافية نمطية ماسخة، أعرف أمراً واحداً، أن لي الحقّ في أن أبلّغ عنك وعني: «من أجل اكتشافك يجب عليّ أن أبلّغ عنك».

أخبرت آنيتا أنني أتوق إلى المرور بعموم محالّ الشكولاته. بحثتُ عن أشهر محالّها قبل حضوري فظهر أمامي الصيدلاني السويسري هنري نستلي المولود في بداية عام ١٨٦٠. كان من أصول ألمانية ومن مدينة فوفي. قلت لآنيتا وأنا أتلمّظ لساني وأضحك:

ـ أستطيع وضع لوح الشكولاته في بطن الخبز الريفي الكامل اللذّة، فهو وجبتي المفضّلة.

كانت تستهويني أسرار «تقنيات التخمّر والتجفيف والتمليح وتركيز السوائل، والذي نتذوّقه ونأكله يمثل مجرّد إمكانية من بين عديد الوصفات الغذائية» وكل هذا يأخذني إلى أمّي، وآنيتا تدور بي في مدينة بازل القديمة Altstadi، في الشارع الذي يستهويها بالدرجة الأولى؛ Freie Strass، لم تمرّ بنا عربة واحدة فهو مخصّص للمشاة. كانت الجموع كثيرة فكدت أضيع منها فتلتفت وتبصرني طلقة مسرورة وأنا وسط الضجيج:

ـ لديك قدرة لطيفة على الاندماج بأقلّ تعارض ممكن. على العكس من صديقنا رالف، آه، هو على العكس منك، لديه قدرة مخيفة على الانفصال عما حوله فهو مكتفٍ بنفسه. لا أدري لماذا أتحدث عنه أمامك ونحن لم نلتقِه بعد. كنت أصغي إلى نصف الكلام فتعاود ثانية وتكمل الباقي وأنا أبتسم، من يقرّر اللقاء أو اللالقاء؟ نقف أمام أشهر محلّ لبيع الشكولاته، فتشتري لنا قرصاً

كبيراً، تزيح الورق الفضّي فتأتي موجة من الشبّان فتندافع ونصير فجأة، كل واحدة منّا في حضن شاب يافع ولطيف، نبتسم ونرتبك نحن جميعاً فنعتذر وخدودنا تتورّد. تكسر قطعة صغيرة لها ثم تسلّم إليّ الباقي قائلة ببهجة:

ـ كلي بدلاً منّي ومن هانز ومن صديقنا رالف، آه لو كان هنا لأخذك بالدرّاجة الهوائية ودار بك في عموم بازل.

تكرّر حضور اسمك وأنا أنتظر قدومه فلم أعلّق بشيء، لا أخوض في سيرتك ولا أضعك أمامي، تستحقّ كل تقدير حين أتحرّش بك، وأنت بجواري، فاسمك مصدر شعاع لي، فهل تثق يا بحر أنك كنت خاصّتي وحدي؟ باستطاعتي أن أقول لك الآن: أنت موجود على نحو ما، وأنا لا أبذل أيّ مجهود للنجاة منك. ألتهم الشكولاته وأحسب أن عدد حليمات الذوق لا يقلّ عن عشرة آلاف، لكن، نحن البشر لا نعرف «إلا أربعاً: الحلو، والمرّ، والمالح، والحامض. وبعضهم يؤكد أن رأس اللسان يتجاوب خاصةً مع المالح والحلو، أما جانباه فمع الحامض وخلفه المرّ». في كل محلّ خاص بالشكولاته يظهر شخص آخر يقبع في داخلي. فالتشكيلات المعروضة في واجهات المحالّ الكبرى والمطارات، والحملات الدعائية لها جميعها تنظر باتّجاهي فأغض الطرف، أتجاهل، ولكن كل شيء، هكذا أتصوّر، مبيّت ضدّي، ولا تمضي دقائق فأقف وأشتري، أتلمّظ وأتلذّذ وأقوم بالدور على أفضل صورة، فالوالدة تظلّ تراقبني، أراها وبيدها منظار، والسيجارة بفمها تنفث الدخان في وجهي وتهزأ بي، فأنا بكل أسف لن أحقّق

أمنيتها الكريمة لكي تحسب حموضتي، المحرّض، ربما الوحيد على ما أصابها مني ومن والدي، فالأمر الذي كنت واثقة منه، ليس «لدينا دكاكين لبيع الحامض». بغتة، وأنا مع آنيتا، أشمّ من بين ثيابي، وخصلات شعري وتحت إبطي، أبخرة طبيخ أمّي تتصاعد إلى أعلى بناية في بازل، وفضائل عتيقة تتقاسمني وتصلني في الأماكن الخطأ. فما عادت الوالدة إلا مجرّد نظرية بائرة، ومطبخها يذكّرني بالذبائح التي تطرد كلام الإلهة. أما صحن اليوم فما عاد إلّا اعترافاً بالقصاص، ويوم الجمعة ذاك، وأشياء من هذا القبيل المتواضع لن نعثر عليها على سبيل الفكاهة في صالة المزاد والبيع.

ـ ها لذيذة هذه النستلة؟ سألت آنيتا:

لو كانت الوالدة أمامي لنظرت إليّ بعدائية، كعادتها، ولردّدت بغلٍّ ظريف:

ـ واللّه لو أكلت كل نستلات الدنيا فلن تخفّف حموضتك.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ٦ -

ملل الصيّاد

الحبّ بشكل أو بآخر فعل هدّام، يستعجل الهدم ويجعل الشخص أو الأشخاص في موقف الدفاع عن النفس. للتوّ، وأنا أسجّل هذه الصفحات، أسمع صوتكِ يعترض وأنا جالس أتأمّل أمام البحر: «المعرفة يا بحر هي أحد جوانب الحبّ، وحتى لو عرفنا أشياء أكثر ألف مرّة عن أنفسنا، فلن نصل إلى القاع. سنظلّ لغزاً غامضاً لأنفسنا، كما سيظلّ رفيقنا الإنسان لغزاً غامضاً لنا. الطريق الوحيد إلى المعرفة الكاملة يكمن في فعل الحبّ». يا الله، حين أتوسّع في التحدّث معك أدرك يقيناً أن الحب عمل شاقّ جداً ليس بوسع الجميع إنجاز ربعه أو ثلثه، فيتمّ الانفراط والوقوف جانباً، فنقول آه، إلى هذا الحدّ كافٍ، ونحن لا نعرف ما هو هذا الحدّ بعينه، وماذا سيحدث بعد ذلك فنردّد: تصرّفنا على أحسن صورة، والواقع أنني في اللحظة التي أكون فيها مهيمناً، متحكّماً ومتيّماً بك تصيرين هدفاً لعداوتي أيضاً. أريد أن أنتزع نفسي مما يطرأ على العلاقة من توسّع وتمدّد روحي يجعلني أبدو فائضاً عن

الحاجة، فلا أنا أقف في أرضي، ولا الأرض التي نسير فيها معاً تزداد صلابة فأبدأ بالنفور منك. وكلما نمت العلاقة وصارت لها قرائن، وعليها دلائل كثيرة، بدا الضيق عندي أقوى. تماماً، أضيق ذرعاً بك، وشيء في جوهر روحي يملي عليّ تبديد الوقت كجوهر للعب معه، لكي أرتفع قليلًا وأنا أكذب وأراوغ، أبحث عنك من خلف هذه الصخور والأمواج وأسراب الطيور وأريد إتلافك وابتلاعك بطريقة واقعية لا تعتمد على المزاج، بل هي متعمّدة. آنيتا كانت تمازحني بصوت رائق وأنا في ضيافتهما في مدينة بازل قائلة:

ـ بحر، أحياناً أتصوّر أن لا علاقة لك بالزمن، وأنت تعيش ما بين مدن سويسرا، البشر هنا هم سادة الزمن فتسخر منّا قائلًا: «أنتما تعيشان في وادي الزمن، ربما منذ بدء الزمان». فنأخذك في جولة في قلب تلك المنطقة التي اشتهرت بتطوّر صناعة الساعات، فكنت تقف وتشاهد الورش القديمة، الكبيرة والصغيرة التي صارت اليوم شهيرة مثل زينيت، أوميغا، تيسو، لونجانس، لكنك سرعان ما تضجر وتتركنا مدمدماً:

ـ أحتاج إلى زمن يشبه الأكلة السريعة، يخلص بسرعة لكي أخلص أنا و...

آه، صحيح يخلص الوقت لكي أنتهي من هذا الغموض الذي يلفّ غيابك، فما إن نلتقي حتى تغيبي كأننا لم نتعارف في أحد الأيام. حسناً، فهذا جائز. الغموض هو الذي يسندنا جميعاً كبشر أفضل من الوضوح. هنا على هذه المصطبة شاهدت ليزا أول مرّة. كانت قدماها مغروستين بالرمال البيضاء. فخذاها للتوّ أخفق في وصفهما، هل هما جميلتان فاتنتان فقط؟ كانت كائناً بحرياً تصغي

إلى النداء السريّ القديم الذي يدعوها إلى القيام بمهرجانها غير المألوف؛ نزعت الثوب القطني الواسع دفعة واحدة فوقع على قدميها. تركته ومشت بهدوء لا نظير له إلى داخل البحر. التفت المارّة الذين يتمشّون في المرسى الذي كان ممتلئاً بالمراكب والسفن. ظهرت بعض الرؤوس من المطاعم المنتشرة وتوقّفت قليلًا عربات التوك توك بركابها لكي يلتقطوا ولو من بعيد صوراً لقفا ليزا العاري الذي هبط ولم نعد نراه. في تلك الساعات، لم أتوقّع أن تكون في طريقها إلى الانتحار، ولا كانت تودّ إلحاق الأذى بأيّ واحد على الشاطئ، خصوصاً أنا، لا تستغربي يا راوية، فأنا كنت أنتظرها، فشعرت بأن الملل هو الذي يدع أحدنا يكتشف الآخر من مظهره الاجتماعي اللائق. ومن الجائز أنه يرسخ مكاننا لتلك الفتاة أو السيّدة... أعني، نحن موظّفون لديه، كلنا دون استثناء، لكننا نختلف في بعض التفاصيل. ليزا كانت علامة أو ماركة مسجّلة للضجر، ويستطيع من سيقيم علاقة معها أن يحدّد قيمتها أو سعرها. رجاءً يا راوية لا تتطيّري وتتشبّثي بالشكليّات بحقّ الآلهة، أعني، مفردة السعر. فالعشيقة الجديدة، وليزا كانت تجسّد هذا المعنى للصيّاد الخائب في كثير من الأحوال، وفي تلك الظهيرة من شهر أغسطس من عام ٢٠٠٢، وهي تقوم بتلك الرحلة البحرية كآخر برنامج لي من التلصّص والسأم. حسناً، سوف أنتظرها لكي أراها بالثياب فتتجسّد رحلتي السياحية، وأنا في الأحوال جميعاً غير قادر على نسيان تلك اللحظات، فهي لا تعوّض، عندما نكون في معمعة البدء بنشوة العلاقة ونشوئها، فنتصوّر أن العشيقة بعيدة المنال، هي تقف في منعطف الزمان والمكان، فلا اعتبارات للطبقة والاندماج، للبستانيّ الذي يشذّب

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

جنائن هذه المدينة الامبراطورية العريقة، ولذاك المحروم بمحض الإرادة من بلده، للطبيعة باعتبارها سيّدة الضجر الأولى دون منازع، وأنت تنظر إلى البعيد الأبعد فيتمّ تثبتك كنسخة مكرّرة، بالضبط، أنت استنساخ ساري المفعول ويحسن بك انتظار الأصل، ليزا. حتماً، يا راوية أنا أعني شيئاً آخر الآن ليس أنت أيضاً فهو يحبطني كثيراً، شيئاً أعاني منه كملول يائس من النظر والملامسة والانكشاف. وأدري أنني أغشّ في أغلب الأحيان، فلا أملّ كما يجب، أو يبدو مللي كأنه لا يستطيع أن ينقذني منك فأمشي وأمشي، أقود درّاجتي الهوائية وأستهزئ بالعشيقة القديمة والحديثة والـ بين بين. فأغلب الأشياء تتعلّق بالنقص في الزمن، بالوقت الذي أرى فيه كل هذه الجموع المسرورة على الشاطئ، الناس، البشر العائدين إلى بلدان بعيدة أو العكس، وأنا الفار للتوّ من أمام ليزا وأمامك، بهذا الحاضر الذي أكابد فيه الآن بسبب الفترة المنقضية وأنا أنتظرك فأميل أو أتحول إلى ليزا، أوازن بين نهايتها وبدايتك، بين طوفانك فيّ وفرار ليزا ببلاهة من أمامي وتنصّلي منها. فهل تسمحين ببضع صفحات من كتابك عنها؟ كل عشيقة سابقة هي امرأة، على الأرجح كان أمامها الوقت غير المستحبّ لكي تفشل وتنسحب، ومن جرّاء ذلك تطلّب الأمر مني تصرّفات في غاية التهذيب، وشيئاً من العناية الطبية، على الخصوص ما يتعلّق بالدوافع والرغبات الجنسية وما توصلنا إليه. دعيني أتحدّث عن نفسي. فما عادت الأحوال تسعدني أو تشجّعني ولو كتمارين روحية. حسناً، ليزا لم تحشرني ما بيني وبين نفسي مثلك. تجلس الآن ورائي، وأنت دهاؤكِ يجرح عينيّ، وبسبب ذلك الضوء القادم من بشرة ليزا الذي أُنهك دون عمد وزال نهائياً، وأنا أعلن أمامك

يا راوية، ودون مواربة: بحقّ أنني أشعر بالفزع، هل أنا من يورث عشيقاته سلطان هذا التبدّد والتصدّع ولا ينتج إلا التعاسة. تلك الشابّة ظهرت لي قبل ثلاثة أعوام بتقاطيع غير مكتملة، فلا هي طبق الأصل ذاتها، ولا أدري بحقّ ما ينقصها وأنا أرقبها خلسةً. جلست بجوارها، فعلت ذلك دون شكّ لكي أنظر في اتّجاه ذلك الجسم القادر على أن يضاف إلى أحد ما، لست أنا بالطبع لكني تلقّفتها. جسمها كان يشير إلى أمر أو شيء من الاستسلام التامّ، كيف أقول لك، يريد الاحتماء بي، يقول لي: تمهّل بي وأنت تنظر إليّ، رجاءً لا تتركني، وقتذاك قامت ومشت إلى داخل الموج. في تلك اللحظة، كانت النزوة المشتهاة قد مضت وليزا تواجهني دون أيّ عون مني، وفي الوقت نفسه لا تتعمّد غوايتي. قلّبتُ الشهوة على جميع الاحتمالات، وكنت أعرف أنني أطاردها عشرين دقيقة في اليوم وأتجنّبها بقية اليوم. ففي أثناء المطاردة، كل شيء مباح، تعرفين هذا جيداً يا راوية. وهو أمر معقّد حتى ليبدو لي أن الرجال يختلفون في أشياء كثيرة إلّا في التعاون على الصيد. وأنا أريد أن أنتسب إلى اختراع آخر غير علني، ولا ينتمي إليه الجميع، ربما بعضنا، لا أعرف ما هو، ولا تدرّبت عليه من قبل، لكن بالمقابل سأعثر عليه، ليس من أجلك، أقسم لك، واسمحي لي بهذا، ولا من أجلي، بل من أجل شيء عظيم لا أعرف تسميته، وقد لا أعثر عليه لاحقاً. ليزا كانت أمامي في تلك الظهيرة، وأنا في طريقي إلى مشاهدة عرض إحدى المسرحيات الموسيقية الآتية من أميركا الجنوبية. هي لم تسعَ إلى أن تكون كلمة في كرّاسة، هذه أو غيرها. كانت غير مؤكّدة إلى الحدّ الذي جعلني أشعر أنني مذنب. وأنت يا راوية مزدحمة بتجارب أخرى، فأشعر في كثير من الأحيان

أن الرسو عندك لا يُستنفد، وهذا ما يدفعني إلى عدم تصديقك فأرتكب الأغلاط. منذ تعارفنا وأنا أرتكب الخطأ تلو الآخر، فقدّمت لك نفسي وأنا راضٍ أن أكون بين ذراعيك ضعيفاً هشّاً وفزعاً. منذ اللقاء الأول حين أخذتِ يدي لنخرج من الحفلة التي أقيمت من أجلك، فلم نودّع أحداً، وأنت تتصرّفين كأنني من أملاكك الشخصيّة، ودون تبجّح، فهذا الأمر أيضاً أخافني وأقلقني معاً. نتدبّر أمر ذلك التلاطم والجاذبية، وأحدنا يلتصق بالآخر. ملمس أصابعك رقيق وأنا أتلقّى ضغطاً لا مثيل له في الاستلطاف، فوضعتِ يدك على ظهري، حاولتِ ذلك وأنت ترفعين جذعك إلى أعلى، فأنا أطول منك، فوقعت يدك اليمنى على خصري. أنا أزن سبعين كيلوغراماً على متر وثمانين. وكتفاك بحوزتي توذان ضمّهما والضغط عليهما. فور نزولنا السُلّم ازددنا التصاقاً وكدنا نتهاوى عن إحدى الدرجات، وأحدنا ينظر في عينَي الآخر. كانت مهمّة كل منا، هكذا تصوّرتُ، ألّا يتملّص أحدنا من بين يدَي الآخر. لم نتحادث، متعانقين ويلتفت أحدنا في وجه الآخر، ونعود إلى الابتسام، والأشياء في ما بيننا غير مؤكّدة، بمعنى: الوقت، متى ستغادرين، من أنت؟ ومن أنا؟ وأي زمن يكفي بالاتّجاه نحوك، وأنا أرغب في أن تكون ليدَيّ عيون لكي ترى قلبك وتدور في رأسك. يداك لديهما أفكار عديدة عمّا يجري ويحدث لنا، فشعرت بوخز خفيف في القلب؛ توصلتُ إلى أمر غريب؛ أقسمت ألّا تدعي حياتك بيد أحد، أي أحد، فكيف بي، أنا المتردّد، اليائس والخائب. أنا المجهول لي أكثر مما لك، فتسحبينني وتجلّسينني على إحدى درجات السُلّم، وفي ثانية تجلسين في حضني. تدفنين رأسك تحت إبطي، تشدّين على كتفي وساعدي، تميلين إلى رقبتي

وتمرّغين أنفك وشفتيك ولسانك. كنت أحاول أن أنظّم أنفاسي داخلك، أنشئ شيئاً خصوصياً لا يحدث كثيراً، لا يحدث نادراً، وأحياناً لا يحدث أبداً. ترى من أين يجلب المغرمون شهادة منشأ له، لهذا المكّار: الحبّ؟ فألاحظ حشمتي وتكلّفي يتفتتان بالتدريج. كنا نلثم كل جزئيّة في الخد والذقن، الجبين وشحمة الأذن، الشفاه والرقبة. لا أدري لماذا حضر في تلك الدقيقة السيّد أينشتاين بجواري وردّد عليّ ما يلي: «أن المكان سينحني، أي سيتقعّر بالقرب من الكتل الضخمة، الأمر الذي يعني أن المسافة بين نقطتين لن تكون خطاً مستقيماً بل ستتخذ هيئة منحنى، وأن الكتل ستؤدي إلى انحناء إشعاعات الضوء...». هذا ما درسنا بعضه في الجامعة، وها أنا أنحني عليك وأنت في حضن العتمة، عتمتي، ولا ضوء ينحني عليّ أفضل من ابتكار هذه القصّة الحقيقية التي ضبطتْ إيقاعات أنفاسنا كجزء من هذا النظام المرتّب من حولنا. يومذاك شعرت أنني أتحوّل إلى ساعة شمسيّة وقمريّة قد تخطئ في ثانية واحدة كل مليون سنة. وقتذاك فعلًا شعرت أنني لست بحاجة إلى ساعة يد.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الاستحمام والحبّ

كنت أتكوّم على حالي وأنا أواجه آنيتا في شقّتها ببازل. أصلها بالقطار وأسمع وقع خطواتي على أسفلت الشارع لدى اقترابي من المسكن الصغير في ضاحية Allschwil الهادئة الحاشدة بالمزارع والحدائق والعمارات القليلة الارتفاع. تفتح الباب وبيدها فنجان القهوة بالحليب، تقبّلني ولا تعلّق على هذه الزيارة الصباحية المبكرة، تعودتها منذ تعارفنا أنا وأنت. أذهب مباشرة للشبّاك ووجهي لا يخفي وجومي وتوتّري. آنيتا بقيت تقول بعد كل زيارة:

ـ ارتباكك الشديد يتضاعف وعلى الخصوص بعد أن تغادرك راوية عائدة إلى باريس. هه، لا أدري أحياناً، أفكّر أن حيرتك وحزنك الشديدين يتضاعفان من عدم قدرتك على اللحاق بها، فأشعر أن في غضبك جانباً استعراضياً، سامحني يا بحر. راوية لسوء حظّك من الفئة التي تتحرّك كثيراً، ولا تستقرّ في مكان واحد، أو تهتمّ بشأن واحد. أظنّ أن هذا الشخص المتحرّك يحرّك ما حوله وما يجاوره فيثير بعض اللغط والتأويلات. هي لا تهتمّ، تدير ظهرها ولا تلتفت إلى وراء. كانت تقول لهانز بعد نجاح حفلاتها:

ـ علينا أن نتعلّم فن تجاهل النجاح ولو لفترة من الزمن، فهو يأخذك خارج ذاتك، ثم نبدأ من الصفر، دائماً الصفر يلاحقني كأنني ورثته. لكنني أواصل، فالانتشاء وأنت تنشد أمر يشبه الافتتان بالحبيب. ربما، ذاك القول، قولها كليشيه، هه، فما رأيك أنت يا بحر؟

. . . صرت أتضايق كثيراً من آنيتا وهانز لأنهما لم يجيبا عن جميع أسئلتي. حتى أنت يا راوية، أشعر أنك زائدة عليّ، فضفاضة، تطلعين من تحت حفاف جلدي، وأحتاج إلى مقصّ يشذّب الأطراف والأظافر والشعر والأهداب، فأناديك بصوت لا يسمعه مخلوق: لماذا جئت إليّ، ها، لماذا؟ أريدك أمامي لكي تقولي لا، هذا ليس حسناً، أو عال، هذا جيّد. إذا قدت درّاجتي الهوائية بسرعة وأوقفتني الرياح قائلة: هذه ليست عادتك يا بحر، تمهّل، لمَ العجلة؟ من ينتظرك؟ كانت انتظاراتي انتقائية، اليوم اختزلتها بلذّة واحدة وشخص واحد: أنتِ. فشعرت كذلك أن هذا كثير جداً هو أيضاً، إذاً، ماذا أفعل؟ أفرح وأنا أتشبّث بانتظارك فأنا محميّ به. حسناً، جميع ما اقترفته كان لسان اعتراضي على غيابك والتحريض ضدّك، فأشعر أن أغلب المؤشّرات الصادرة مني إليك غير مشجّعة، لم تشجّعك وتدفعك نحوي كما أشتهي، وعلى وجه التقريب، أنا لا أعرف أيّ نوع من السلوك معك أفضل. هل الهجوم الزائد على حدّه يعلي شأني أمامك، أم رباطة الجأش والاتزان الشديدان بمقدورهما منحي بعض التقدير؟ هل تستطيعين اكتشافي وأنا ألجأ إلى المماطلة والتسويف، وربما الخداع؟ وظلّ

تلك الخيانات السريعة الفورية، والزلات الانفعالية الطارئة يتبعني من صفحة إلى صفحة، فأقول لنفسي، كما يحدث في الأزمنة الغابرة، كان الرجل يتولّع بأكثر من واحدة، ليس على أساس خطّة مرسومة، وليس مثل اليوم، بالكاد واحدة، وعلى الأغلب هذا أيضاً غير متوافر. ماذا أفعل، التلميح بكل ذلك على شكل مناوشات، وأنا أرقبك وألاحقك في مناطق نفوذك: الحفلات، ما وراء الكواليس، الصحافة والإعلام، إعادة تشكيلك وتصويرك، وإبقاء صورتك على سطح الحاسوب. التعرّف على سيرة حياتك وأخبارك من مصادر شتّى، وتداخل الخاص بالخاص. أمّا العام فعلى الغالب لا يعنيك كثيراً ما عدا العراق، وهذا أيضاً أرهقني كثيراً ومن أجلك في الدرجة الأولى. فأنا لست معنياً به مثلك. كان شكل أدائي وتصرّفاتي، ويا للأسف، سخيفاً وغبياً جداً، ربما لاحظتِ وسهوتِ، وبالتالي غفرتِ. فالصدق بدا لي، واغفري لي هذا، أعلى نقطة من نقاط ضعفي. ربما بسبب هذه الأمانة الماسخة في سرد كل هذه الوقائع والتفاصيل يبدو الصدق تافهاً زائفاً هو أيضاً، وأخشى أن تتصوّريه واحداً من أدواري أو أقنعتي التي أضعها أمامك لكي أستعيدك بدون العتاب واللوم. هذا هو الشقاء الذي يجعلني أقوم بتصرّفات انحرافية نوعاً ما، لكي أحظى بالاهتمام، اهتمامك، وبالطبع ليس كله. دعيني أسألك بهذه الصيغة الاستفزازية: هل أنت الموكل إليها على مدى فترة، أو فترات، إصلاح أحوالي وأوضاعي، وجداني وكركبتي التي بدأت بالتفاقم بعد ساعات من التعارف؟ أصغي إليّ يا راوية، أحاول أن أشرح

لك أني غير قادر على الجلوس يومياً أمام الطاولة والكتابة النظامية. لست على استعداد، لا أستطيع القيام بهذه الرحلة ما بين الطاولة والشاشة أو الورق. هذا التأمّل وهذه الدينامية، هذا الفحص وذاك الانخطاف بالذات لا بك. انظري إليّ، هيّا، أنظريّ إلي مباشرة، لم أنجح يا راوية ولم أفشل أيضاً. لم أقدر، ربما، لأنني لست معنياً بأن يكون لي هدف ما يستطيع بطرفة عين أن يوجّهني صوبه. أنا هدف لروحي، لست مستعداً لذلك، تتململين فأسمعك تتأففين وتريدين حشري بيني وبيني، بين الكتابة إليك، وإخراجي من اللوائح النمطية، وبالتالي تشكيل وترتيب أوضاعي الروحية والعصبية والعاطفية قبل ضبط هذه الصفحات بالذات. وها نحن ندور حولنا. أنا أدخل الهلوسة كما ترين فتبدين أنت، لحسن الطالع، رصينة وعاقلة. ولكن لا شيء من هذا يا راوية صحيح، أو دقيق، أو هو مقدّر لي للتأكّد منه. إنني أتلفتُ الآن برفق لكي أعيد على مسامعك: سوف أفسد مخطّطاتك الجهنمية. لن أغتسل كل يومين مثلًا، ولست معنياً بقانون النظافة والعناية والصيانة. فأنا لا أحتمل البقاء نظيفاً خفيفاً وخطواتي تزداد رشاقة. حين أشاهد القطط وهي تلحس وبرها وتحكّه، والقردة «تلجأ إلى تنظيف بعضها بعضاً» أفكّر فيك، وينحصر اهتمامي في أن تبتكري لي طريقة ما لهرشي وحكّي، غسلي وشطفي خارج المياه والصابون، وغرفة الاستحمام بالذات فأنا لا أطيقها. عليك القيام بنظافتي أنت، انقعيني في الزيوت الليلية المقدّسة فتبعث رائحتها تأجيج المسام والغرائز. اشربي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عرقي بلسانك واجعلي لعابك ريقي وقبّليني من كل مكان لم تلاحظه الوالدة والجدّة ولا حتى الله. رجاءً، ليس بعجلةٍ فأنا بطيء، أكتنز البطء كموهبة، وأتقدّم بالشكر لك حين أراني متراصاً بين يديك وتفوح مني رائحتك. هيّا يا رواية، أتذكّر الآن يوم الاستحمام في بغداد وأنا في الثامنة، والجدّة السيّدة بهيّة كانت ترافقني، تداعبني وأحياناً تقرصني وهي تحكّ جلدي بالليفة الخشنة التي عرفت في ما بعد أنها لا تستخدم إلا لتنظيف جلود بعض الحيوانات، يُقال الخيول! الوالدة كانت تفرّ من يوم استحمامي، تلك السيّدة الألمانية الأب، السويسرية الأمّ، كانت تتسبّب لنا بالألم الشديد، جميعاً نحن أصحاب البيت، فيبدو جمالها الصاعق نوعاً من النقصان لنا كلنا، وخصوصاً أنا، والوالد في المقدّمة. الاستحمام في الحمّامات العراقية يجعل الدم يغلي كأرضيّاتها وجدرانها ومياهها. أمّا يدا الجدّة تلك فكانتا كالجمر وما زلتُ أسمع طقطقة عظامي كما لو كانت مقبض باب ترخيها وتشدّها كما تشاء. هذا، وغيره، جعل جلدي خاوياً، صرت فارغاً، خالي الوفاض بلا أيّة أسرار. فالنظافة الشديدة تجعلني أشعر بهاجس، بأن شيئاً ما ليس بوسعي تذكّره ولا بدّ من فراقه. لا تسخّفي رأيي يا راوية وتتصوّري تصوّرات شتّى. فأنا أفضل من السيّد سلوان العبد الذي لا يزال يدعوني إلى العمل في المركز الاستراتيجي مصوّراً متفرّغاً قائلًا:

ـ سندعك تعيش كما نخطّط لك فنحن أفضل من يخطّط للآخرين. هل تسمعني يا رالف، سندعك معلّقاً في الأعلى، فلا

تدع قدميك تلامسان الأرض، من فوق يكون التصوير أدقّ فترى الخرائط، تلك الخرائط جميعاً على خطأ.

رائحة سلوان العبد تراوح بين الزناخة الشديدة وشيء لم يسبق أن شممته. فكنت أفرّ منه حين يزورني في برايتون، فتظهر تلك الرائحة في أثناء إخفاء ميوله الجنسية في مدينة حنونة مع الجميع، فيجري وراثي وصوته يعلو قائلًا:

ـ اسمع رالف «نحن كبقية الرئيسيات، لا نزال نحكّ أنفسنا ونفرك عيوننا أو نداوي جروحنا. وقد أضفنا إلى سلوكنا عملية الاستحمام الشائعة بين الناس أجمعين، ولكن التنظيف بالماء المبالغ فيه يعوق الغدد الجلدية عن إفراز الاملاح والزيوت الضرورية للجلد، وقد يؤدي الأمر إلى جعل الجلد حسّاساً جداً تجاه الأمراض». ذاك شقاء الاستحمامات التي انحصرت صورها جميعاً ما بين الصبي المهدود بين يدَي الجدّة القوية، والمراهق الذي كان جسده يزداد إبهاماً عليه كلما نما، ويزداد عذاباً فلا يعرف هل أسهمت وساخة العِرق البشري في تكوينه أم نظافة الدعاية والإعلان ومزيل الروائح، والرجل الذي كان ينظر إلى جسمه، وهو يدخل عيادة الطبيبة النفسية إيفا فيحاول الإغواء بشكل خفي من بقعته، برائحته الحيوانية التي تتفاقم حين يكون في سورة الغضب والألم معاً، فيرى أنه رجل جميل، شديد الجمال، جسمه جميل، أجمل من جسم إيفا ذات الأصول الهندية، ومن ليزا وآنيتا وهانز، ومن جسمك أنت يا راوية. تماماً، إنني جميل وفارغ، فالامتلاء يتعسّر، هو عسير جداً، حتى ما تدعينه الوطن هو الأكثر عسراً،

يذكّرني بحمّام الجدّة بهيّة، يكشط ويفرّغ فأبدو غير ضروري، عابراً منه ومن دونه، فلا هو اقترب، ولا أنا تحرّكت، فلم أسأله لماذا كنت تردّد ليل نهار: هيّا غادر، امضِ، توارَ، اجرِ، أُركض، ابتعد، فأتوصّل إليه وحدي بطرقي الملتوية كما فعلت وأفعل مع النساء؛ هو بلد مبالغ فيه، وأهله يتشاوفون عليه. هانز يقول:

ـ في بعض الأحيان علينا أن نتخصّص بالوطن، لمَ لا؟

سامحيني، لن أغتسل يومياً ولا كل ثلاثة أيام، فرائحتي الطبيعية عادية، أعني، هذه الرائحة الخاصة قد تكون بدورها سبباً لهياجك الجنسيّ، لمَ لا؟ الأمر ليس مستحيلًا بالطبع، وأنت لن تتجاهلي رائحة غددي التي تعمل بطريقة ممتازة، لكنني من جهة ثانية أقدر، من أجلك، على القيام بفعل تعويضي مناسب: إزالة شعر إبطي والعانة، أو الحلاقة اليومية، واستخدام بعض العطور المناسبة، على الوجه المطلوب. الاستحمام بالمنظور ذاته يشبه ما تطلبينه مني في أثناء الكتابة: التعرية والعري، التلصّص بصبر أيوب على ما تأسّس واستقرّ فتخاف أن تُكشف من جهة أخرى حقيقة ما، ربما غابت عن بالك في الدرجة الأولى. هذا جانب من خبثكِ ومكركِ يا راوية، ربما، أعود إلى الموضوع ثانيةً، فأنا كما ترين أدوّن مجرّد ملاحظات ثم، في ما بعد، حين أعود إليها أبدأ كالبنّائين بالحفر إلى أسفل حتى لا أعود قادراً على التعرّف على نفسي، فأشقى من كل هذا: صبرك عليّ وحماستك في القول:

ـ الكتابة يا بحر تبيّت مفاجآت غير متوقّعة لك أنت بالذات، وأظنّ سوف تجني من ذلك الكثير، وخصوصاً في الحبّ.

ـ ٧ ـ

خزانة الملابس المستعملة

هذه المرة لا أستطيع تجنّب ذكر محبوبي السابق، عال. لا أريد عمل فرقعة ولا يبدو الأمر صعباً. تأخّرتُ في ذكره لكن ما إن دخلت غرفتي وشاهدت الخزانة التي تأكل الحائط الأيسر كله حتى حضر كطفل مشاغب جداً. ضحكت بصوت عالٍ وأنا أريد أن أحضّرها للسيّد أحمد المصري الذي قال لي مساء أمس وهو يودّعني:

ـ أرجوك، مدام راوية إذا قدرت، إفراغ كل الخزانة ووضعها في الغرفة التي انتهينا منها. لقد شاهدت الأصباغ وراء الملابس وقد تقشّرت بأجمعها، كما أن هناك شيئاً من الرطوبة والثلمات والشروخ والبقع، هذه جميعاً تؤثّر على أساسات الجدران، ربما لم تلاحظيها من قبل. معذرة منك إذ لا أستطيع مساعدتك في هذه فقط. ولكن...

نكس رأسه وهو يتمتم:

ـ سامحيني مدام. تصبحين على خير.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وها أنا أقف أمام تلك البقعة التي تؤوي أولئك الذين تنصّلنا منهم وتجاهلناهم، ومن الجائز استعجلنا الإجازة بعضنا من بعض لفترة طويلة الأمد، تماماً، فالفراق سهل المنال. كنت أتشكّك في المهمّة، فأراهم بأكملهم، لم نفترق نهائياً، وضعتهم في هذه الخزانة وبدأت أتلصّص عليهم وهم محميّون من التعب والفوضى، وهم على أهبة الاستعداد، فيما إذا أخرجت أحدهم ليلًا وبادرت إلى شيء من المواساة له ولي. فأنا أعرف نقاط ضعفنا. فلم أنتزع من رأسي جميع الشجارات والأحاديث والتفاصيل. آه كم كان لدينا من عتاد وذخيرة حيّة للقتال، وبالتالي، كل واحد منّا تابع سيره ولائحة الاستفهام ما زالت معلّقة. بحر، أنا وضعت بعضهم هنا، على طول هذه الخزانة وعرضها، معهم بدأت مهمّتي تزدهر، فهنا لا أحد يعترض، لا هم ولا أنا. نلعب، نتواطأ بعدما رفعت جميع الأقواس، ودفعت بهم إلى آخر مدى. أحياناً أتحفّظ عليهم وأنوي فعلًا رميهم إلى الجمعيات الخيرية. لكن أغلب الأحيان أحضر لكل واحد من المحبوبين السابقين الأغنية التي رقصنا على أنغامها وشغفنا بها. لم أفكر في إزالة أيّ أثر منهم، ولا عانيت من الشعور بالإثم، أبداً يا بحر، هو ليس مكمناً لهم وربما في الغد لك، هي ضيافة من التوادّ والحنوّ وفّرت لي المحادثة، واستئناف الكلام معهم من باب الزهو، وإعادة اكتشاف مواهبنا وألعابنا ونكاتنا وطرائفنا وروائحنا التي يتقاسمها التبغ والكحول والغيرة، وإلا فكيف يقدر الغريب المهمل، الوحيد المستوحش، أن يدشّن وحده ظهيرة باريس وليلها الروتيني؟ وها هم في حوزتي وأنا أستدعيهم

في الوقت المناسب واحداً تلو الآخر. ربما، هذا الذي يبقى منا جميعاً يا بحر: وحشة نحاول تبديدها بالهزء والتهكّم والعنجهية. وعلى ذلك النحو لم أتردّد في كشفهم أمامك. لا تقلْ كفى، كفى، فها أنا أستدعي عيوبك بهذا القدر أو ذاك، أما جمالك فهو يضغط على أعصابي، فليس لي ملابس نوم ولا ثياب سهرة، هي فقط أردية ذات بذخ احتفالي خفيف خاص بظهوري على المسرح، وبعضها نفّذت ليل تصميمه، وهو يعتمد على الخطّ العربي، والطباعة، وكانت تسمّيه:

ـ هذا لباس أصحاب الرتب العالية.

فتضع على كل قطعة من تلك الثياب إشارة خاصة. وها أنا أفتح الخزانة فتهبّ عليّ روائح الرجال السابقين، بعضهم يذكّر برائحة الأسماك المقدّدة على الرغم من أنني أضع أكياساً صغيرة تحتوي على أعشاب ذات رائحة طيّبة، ودوائر من الخشب أعلّقها في ما بينهم تطرد العثّ والحشرات، فأرى الرجال يتطايرون ويتقافزون أمامي بالسراويل العادية، والقمصان الباهتة الألوان، والأطقم ذات الجودة والماركة المشهورة. وحين أمدّ يدي على أحد أثوابي كنت أردّد: على الأرجح سوف أخفّف من العناد فأحاول الاستقرار قليلًا معك. سجّلت على كل قميص وبنطلون، تنورة وشال، انجذاباتي وتزهاتي. وها أنا أفتح وأنظر ولا أغضّ الطرف عن أيّ واحد منهم. رجاءً، لم يكن أمامي إلّا هذا الحلّ بعدما طليت أرواحهم باللسعات فكانت حياة كل واحد منهم قصيرة جداً، أقصر من قيلولة. فهنا تفاصيل جدّ دقيقة من نسيج ومواد

وعناصر وحواسّ وتعاليم تلك الأناشيد التي سمعتها، ألفتها أو استعرتها من الكتب. ضبط هذا النوع من المناورات يجعلك لا ترتكب الخطأ الجسيم، فتفرح وأنت تعرف أنك المسؤول عنهم جميعاً، فنحن كلنا لدينا مهمّة شاقّة، فليس هناك أشقّ من الحبّ يا بحر. حسناً، في بعض الأوقات، أقف وأتفرّج عليهم وأطلق شتيمة ويتضاعف شططي، لكني أواصل السير. لا تبتئس، دعنا نبتسم، نتمازح ونقول، إنني أخفيتهم هنا لأنني لا أريد التخلّص منهم، أضع لنفسي مقعداً وسطهم، فأنا أريد جمهوراً يصغي وأفواهاً تنطق بالاستحسان. فتركتهم عراة مقابل تبجّحهم وهشاشتهم ورعبهم، لكن لا مفرّ من اللعب معاً. من الجائز أن تحصل الأمور على هذا المنوال حين نبلغ تلك الدرجة من العزوف والتبدّل. الثياب، ثيابي هذه وأنا أفتح باب الخزانة كانت تقضي معي ليالي السهاد الممض، وأنا أختار هذا الثوب القطني الطويل المقلّم طولياً بالأبيض والرصاصي، وبفضل هذا الثوب لا أقوى على إعادة رواية الحدث ثانيةً. ما نفع الالتصاق بالثوب والعشيق السابق لا يستحقّ إلا هذا العناء: الاحتفاظ بالثوب والرائحة، بالعرق والدموع، الإغواء والسخط. الثوب عمل يقوم بوظيفته على أفضل صورة حين تتضافر العلاقة بالبدن والفتنة، وما لم يكن في الحسبان، أن لا تأخذ مهلة محدّدة وأنت تقوم بالتمرين تلو الآخر، تتخيّل ماذا يحدث للتوّ والثانية، تقول وأنت تبلع ريقك أمام المحبوب: آه، أنا أستحي، لكنني أتصرّف بعجلة وعبط فنضحك، فأعاود وأبدأ من جديد، وأيضاً بشيء من الرتابة فلنسمّ ذلك مزاحاً خفيفاً، وتفاهماً بالعين،

ها ما رأيك؟ لا أفضل التورّط في الأسماء، هه، دعنا نطلق على أحدهم اسم الشهر الذي انخطفت فيه، وكان ذلك في شهر آذار، فليكن اسمه إذاً مارس. الرغبة أراها في باطن يدي تنغر وتعاود الكرة، ومن ثم لا بدّ من قول ذلك بطريقة جدّ عادية. آه هذا أكيد، هو أمر مؤكّد، التحفّظ وقتذاك لا يعني أيّ شيء. هؤلاء أمامي: الثياب بكل أنسجتها، تشتتها، وتعريفاتها هي مواد الشبق والظنون والشراهة وتفضيل نفسي عليهم كلهم بدون استثناء. محبوبي الأخير، سامحني، لا أدري إلى اليوم، وبالضبط، ومن طرفي وحدي، إن تمّ التخلّي التامّ عنه وانتهى الأمر. لا علاقة تنتهي بالتمام، هذه قوّة البشر واستعراضاتهم وروتينهم واضطرابهم أيضاً، فلنقلْ هو فائض الخراب الذي يعاود الظهور مجدداً، وعلى هيئات عدّة. لا تتصوّر يا بحر أن هذه عبارات في مخطوطة تنتظر منك القراءة في أحد الأيام. أظنّ أنه قد حان الوقت للانتهاء منها بطريقة ما.

فتحت الخزانة بشيء من الابتهاج. كان دافعي أمام نفسي التسليم التامّ بأن الثياب هي الأثر الإيروسي الذي يهبّ عليّ الآن وأنا أحمل القمصان، ثياب الحفلات والسهرات، العباءات والهاشميات العراقية المطرّزة بالفضّة، الأثواب بأكمام مقفلة، والسراويل التي تصل إلى الكاحل كانت تسحبني إلى الذروة وأنا داخلها وقبل أن ألفظ اسم ذاك الرجل الذي أُغرمت به حتى الجنون. النسيج الحريري المترف، الكتاني، الصوفي والكشميري، ما إن أمد يدي وألمس، والأمر لا يستغرق إلّا ثوانيَ، حتى أسمع

أنين ذاك الملك المخلوع، هو شخص غيري أنا، أنا لست ملكة، أنا خادمة للذّاتي وعللي وسقمي. حين طلب مني السيّد أحمد هذا الأمر لم تدخلني تلك المخاوف كما هي الآن، والأبواب مفتوحة إلى آخرها وأنا أتحرّك وأخرجهم أمامي واحداً بعد الآخر، ثوباً بعد ثوب، معطفاً فوق معطف، سلالات وافدة، وكائنات متخيّلة أكثر من حقيقتها، وعلى الأرجح يا بحر، أن مجرّد حمل كل هذه المقتنيات يعلي شأنهم أمامي، فالأمر أكثر بساطة، لا غلبة لأحد في هذا الذي بيننا. وواقع الحال أننا نولي شؤوننا الحميمة وأجسامنا الملدوغة بالغرام عناية فائقة. فأنا مثلاً أتدخّل في شؤونه وثيابه وتفاصيله وأحبّ شهواته اللطيفة بدءاً من الإبزيم والحزام، الشال، البطانة الرقيقة، الفتحة من الخلف، الفتحة من الوسط، وعلى جنب. التنورة الهفهافة، حمّالات الصدر الصغير، الفانيلات السوداء والبيضاء، الملابس الداخلية الحنونة الصغيرة الصحّية الناعمة والغالية الثمن. منامتي المنزلية النادرة والوحيدة، ثيابي الرياضية الأكثر شيوعاً، الجوارب الثقيلة والقصيرة، معاطف المطر والدموع، للصقيع والثلوج التي لا تذوب إلّا نادراً. كنت أضحك وأنا ألمس وأفرد بيدي جميع تلك الكائنات فأشعر أنني أقف أمام خزانة غرامياتي المتروكة، المهجورة، وهي تشقّ طريقها إليّ كما يشقّ الجزّاح اللحم الحيّ وهو يقول لي:

ـ سيدركك التوفيق يا ست راوية وأنت تبدين حسنة الهندام، ولحمك الحي تخشين عليه أن يقدّم على مائدة الإفطار، وبلا رغيف خبز طازج حتى.

الأزرار والبطانة

هل كان عليّ الاحتفاظ بكل هذه الثياب لكي أبلغ نسيانها، نسيان أولئك المحبوبين، هم قليلون جداً على أية حال، فأقول كلّا، لا أريد التخلّص منهم، ولا القلق من وجودهم. بضعة أثواب ارتديتها وكنا معاً يا بحر، ثوب أول لقاء بيننا في مدينة برايتون. الثوب الموشاة حاشيته بشريط من الفضّة الجديدة، أحرقتها بيدي وقبل أن أغادر إليكم بمادة كاوية فبدت قديمة جداً، والأزرار على جنب، جنب الخاصرة، هذه كانت الموضة السائدة في عصر أمّي فهو ثوبها العتيق والرحيم على جسمي. فمن الطبيعي أن يكون للأزرار مساهمات شتّى، ويدك ترفع يدي إلى أعلى. تشمّ وتلثم إبطي، أنت بالذات من يتحرّك على جسمي ما بين الكتف والصدر، تطرّزني بأنفاسك وسخونة وجهك وتنظر إليّ، إلى تلك البقاع، فكنت أقول لحالي: بحر يقوم بتدشيني فتتعدد أرواحي، أقول من ثم بصوت خفيض: فلتبدأ بلثمي من فتحة الأزرار، في خصري. تنحني وتفتح الزرّ وراء الآخر، تتحدّث مع اللحم الذي يهدأ بكامله بين يديك. لا تقطع الزرّ الصغير جداً ولا تتأفّف وهو

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لا يفتح بيسر، صبور أنت، أنيق ولا تتعطّل الخيوط بين أسنانك فتديرني إلى أمام، ظهري، أحبُّ عملك فيه، فقلت لك: لدى ظهري الكثير من الدوافع أن تكون له لغته الشخصيّة من بداية الكتفين اللتين أحبهما كثيراً، ففيهما تشقّ الرغبة لنفسها دروباً وحظوظاً، لا أدري ما يلي الآخر السرور أم العذاب. دوافع الظهر من المستحيل التنبؤ بماذا تلمّح فتسيل اللذة، وأنت تشقني في كل خيط من ذلك الثوب، حمّالة الصدر، من بطانة الثوب وأحفة الأردان. تشم فيّ جميع النساء اللاتي غسلن أيديهن منك فعدت لي نظيفاً بجميع ما يحيط بك، أنت ومعارض تصاويرك، وأنت تلقنني الدرس قائلًا:

ـ «التفصيل يعني الكل». فكل شيء يصلح للتصوير، هذا الزرّ العاجي الصغير جداً، أو مدينة ستردم بأهلها.

ألتصق بك وأجيبك بين لثمة وأخرى:

ـ أنت تطلق إشاراتك وشراراتك من خلال العدسة والفلاش، وأنا أجمع لك الرغبة كلها في جلدي هذا.

للأمانة يا بحر، أنا التي كنت أتلصّص على أخطائك، هويّاتك المتعدّدة، واللغّات الأجنبية الفائضة عليك وعليّ. هزيلة اللغات التي تعادلنا، كلما مشينا إليها وجدنا أنفسنا وحيدين أكثر أمام القول، وحيدين أمام ما نقوم به في هذه اللحظات ونحن نريد المزيد من اللمس واللثم والسعال والإغماء، والوقوف ورائي، وأنا هنا بباريس في المطبخ أحضر لك الشاي الثقيل الذي تفضّله في الإفطار. كنت أحضرك كما أشاء من بازل وبرايتون وبغداد

وهامبورغ وبرلين ولا آخذ منك رخصة، ويمكنك التسليم لي بذلك. قلت لجنان صديقتي العراقية التي تشغل مركزاً مرموقاً في إحدى منظّمات الأمم المتحدة في جنيف، وهي تتنقل ما بين أوروبا وآسيا:

ـ هه، اسمعي، لا أريد النظر إلى المحبوبين السابقين بعين الحنين. فأنا لا أحبّهم أبداً، ترى ماذا سأفعل بهم؟ أريد أن يكون الأمر طواعية فلا هم المرض ولا الطبيب، لا التفاخر ولا المضايقة. هه، لماذا لا تجيبين؟

جنان أطلقت ضحكة أعلى من أيّ وقت مرّ على صداقتنا وأجابت من بين السعال والقهقهة:

ـ وأنت تتحدّثين عنهم صرت أعرفهم. اسمعي، دعيهم متنكّرين في ثياب قرصان، أمير مخلوع، ديك قروي، حلزون في غابة، أو، أو... وادفعيهم إلى آخر خزانتك.

وأغلقت الخطّ ونحن نصرخ من الفكاهة. من الجائز أن يكون صحيحاً جداً القول إن الرجل السابق مجاور لك ولغريمه أيضاً، يلتقيان يتشاجران ويقرف أحدهما من الآخر، فرسان سابقون محاصرون في خزانة، أحدهم يسترق النظر إلى الآخر، السيّد مارس الناريّ يحاصر سبتمبر الهوائي، ويرتطم الكونت مايو، بالجنتلمان المفلس أكتوبر، إنها فصول وأوضاع وألقاب، مشاعر وتخبّط، لا أحد منهم تفتر حماسته، فلا ينفصل عن رفيقه. استهوتنا المهمّة وتحمّست لها أنا وجنان، ونحن ننقل بعض اللطفاء جداً من مكان إلى آخر كما هم نزلاء أحد الملاجئ أو

المصحّات. كنا نصغي إلى أصواتهم ولا نلبث أن نصنّف ذبذباتهم بالموجات القصيرة والمتوسّطة والطويلة. فكنا نزفر معهم، ونقلّدهم بالتأفّف، ونغيّر طبقات صوتينا. وضعنا مصطلحات وتصنيفات شتّى، وكنت أشرح لجنان بالهاتف:

- إنني أسمع في بعض الأحيان صفير أحدهم موجّهاً إلى الآخر، لكنّ لغة تخاطبهما مهذّبة، وكان فاصل من الصمت يعقب كل محادثة.

وحين أفتح الخزانة يخطر لي أن آخذهم كلهم في حضني، فهنا، لا أحد منهم يقاوم، ولا أنت تتعبين من الشروع يومياً في المراقبة. فحين يكون الآفل المتروك هادئاً ساكناً، يصير بمقدورك دعوته إلى التهوية في الخارج. فأبدأ بإخراجهم بين حين وآخر والنظر إليهم بحذر، ووضعهم في وجه الشمس والريح، أمام بخار الزهور القادمة من الجنينة المجاورة، وسرعان ما أرى الحشرات الصغيرة والرقيقة جداً تتطاير إلى الخارج، العثّ، البكتريا التي تظلّ ساهرة، والأغبرة تتطاير منهم وأمامي، تلك التي لا تُرى بالعين المغرمة السابقة. أنت يا بحر مادة لا تُدرك نظرياً دائماً؛ نصف عراقي، وهذا يجعلني أستدعي نصفي العراقي فنكون جزءاً من ذاك المكان العراقي المزعوم، فليس بمقدور الكلمات عمل ذلك، ولا الماضي غير المؤكّد بعدُ، ففي هذه اللحظة، اللحظات الجنونية، أريد إبلاغك بالفعل أن تصاويرك وقصائدك وتصاميمك الهندسية الناقصة، وتنكّرك بزيّ العراقي النصف، هو الذي أقوم بنقله، والانتقال معه من هذا الجانب إلى ذاك على طول الاقتلاع العراقي

المنظّم، وحول الجدران، على أمتار الشقّة الفوضوية، وأميال اللحظات غير المرئية، وأنا أحرّك جسمي ما بين الخزانة والأصوات والرؤوس التي تريد التنفّس قليلًا من خلف الواجهة. فأجهّز لك في غيابك، والآن، للتوّ، واليوم، وبعد قليل، أجهّز لك الحبّ، وعليّ أن أتحقّق أوّلًا أن في هذا التعبير؛ التجهيز به، شيئاً من الدقّة والمسؤولية. قلت لي في اليوم الثاني من اللقاء وأنا وراءك على الدرّاجة الهوائية:

- أحياناً أشعر أن الحبّ هو الذي يضع العقبات أمام البشر، هو الذي يواجهنا دائما وأبداً، وهذا ليس وهماً أو فنتازيا. فنحن لا نصل إليه مباشرة إلّا بالانتظار، ولعلّ الانتظار أخطر ما في الحبّ. فنقول: لن نجد له أيّ حلّ. وعن حقّ أقول لك كما لنفسي: لماذا نريد العثور على حلّ، فلندعه يواجهنا ونواجهه، فهذه ربما، بها جانب من الحل. لا أقول إنّ أحدنا خطر على الآخر لكنني عنيت: ترى أين يجب البحث عنك وعني، فأنا إضافي على الحبّ وأنتِ أيضاً، العشّاق كذلك في كثير من الأحيان.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

خزانة الكلمات المستعملة

السيّد مارس، تذكره يا بحر، ذكرته قبل صفحات ولا أحبّذ التكرار، تكرار السابق إلخ. بإمكاني أن أستدعيه في كل صفحة، كلّا، لن أفرد له فصلًا، ولن أشتغل على كل واحد بمفرده كما لو كنا في مباراة لرفع الأثقال.

يقتضي حسن الختام الكفّ عن ندب الميتات التراجيدية. حان الوقت للاستفراد بهم الآن وأنا أباغتهم وأمامك، تراءى لي، وأنا أسحبهم من الخزانة بهدوء، أنهم مطمئنون، فلا نبيّت الأحقاد بعضنا لبعض. وها إني أعود بهم ثانيةً وتحت حراستي، أحملهم بيدي وتلحق بهم الكلمات بالتوازي مع خطواتي البطيئة، فأمشي بهم منتقلة من غرفة إلى غرفة. كانت وجوه وقامات بعضهم تطلّ برشاقة من بين ثنيات الثياب، من الياقة، الردن، البطانة والذيل، فلا أتوقّف عن النظر والابتسام في وجوههم. أين سأضعهم وأنا أخرجهم من الخزانة؟ فالمكان ما زال غير مستعدّ لاستقبالهم. هل أكوّم بعضهم فوق بعض؟ فقد يتضايق أو يختنق النحيل الرشيق بسبب الممتلئ قليلًا والعنيف. كنت أسمع أصوات تنفّسهم

ودمدمتهم، لكنني غيّرت رأيي فبدأت أعلّقهم على حافة الحديد النافر الحامل لرفوف الكتب، ريثما يتمّ الانتهاء من كل شيء. أخذت أبصرهم بعينين نافذتين إلى الأقصى، أذهب وأعود، أعلّق وألمس، أتحادث وأواسي. لكنني لا أمتلك مفردات تليق بهم ويكون بمقدوري مضاعفتها وأنا أشاهدهم أمامي، فأقول: إن حصيلتي اللغوية في الحبّ الخائب قاصرة، بخيلة وشحيحة. يبدو أننا لا نقدر أن نغرم دون مساعدة تلك الكلمات المستعملة كهذه التي قدامي. الثوب هذا يتأرجح ما بين الجدار وأمام يدي. لمسته هو بالذات ذا النسيج القطني المقلّم طولياً وبدأت بالنظر إليه، نظرت طويلًا وبدأت الرقص معه، أخذني بكاملي في ذلك المطعم الليلي في فلورنسا. رقصنا وشربنا، ورقصنا ثانيةً. كنت أفكر فيه وهو بجواري، كيف سأحبّه وكأنها المرة الأولى، هذه الجزئية يا بحر، نحن البشر نثرثر بها وحولها طويلًا، ونحن نحثّ أنفسنا على حلّ لغز الغرام، هذا الذي يطرحنا أرضاً، فنختلق المقدمة والحجج؛ إن هناك أمراً لن يكون مؤكداً بعد، ولهذا الغرض ننتظر قدومه. أنت بدأت تزداد وضوحاً الآن، أريح الجميع فأراك وسط الدائرة، أراقصك وأضع رأسي على كتفك ونتقدّم. هذا الجدار في شقّتي يحاول مواساتي، وهذا الذراع، ذراعك يلمّ شتاتي فأعود وأرسخ في جسمك. جسدك طبيعي، جدّ طبيعي، لحمه جميل، مكتمل، تشكّل وأخذ وقته في جميع أطواره وما زال يتشكّل أمامي، ينجز على مهل ويقول لي: على الرحب والسعة، سلو موشن. هيّا يا بحر صوّرني وأنا أراقص غيرك، ذاك السابق عليك،

ما الضير؟ في داخلنا تتقاسمنا أرواح الكائنات أجمع، الحجر النادر والنبتة المحمومة، وذاك الوجيب في قلوب الرجال الذين وصلوا متأخّرين فلم يصبحوا أفراد الأسرة الواحدة. رجاءً لا تزجر أيّ مغرم مرّ، كما لن أطلب منك الترحاب الجمّ أيضاً. هيّا، هيّا، من هنا أفضل يا بحر، صوّرني صوراً موضوعية لا تضلّ طريقها إلى النشر على غرار الصور الصحافية في الحروب، وإخلاء المدن من الأهالي. هل تفضّل إخلاءهم جميعاً من طريقك لتهدأ غيرتك؟ صوّر جميع هذه الثياب وهي معلّقة مبعثرة مترامية أو على وشك الاندثار، وأنا وسطها أتمايل، وخارجها أتهالك. ينبغي لك إكمال الشوط معي ومعهم يا بحر، فكل ما بيننا من المطارحات يجدّد القوى ويردم الشقوق. ينبغي أن تتأكّد من ذلك يا بحر، فكل ثوب أيضاً له تاريخ ولو كان مخاتلاً، فهو ينتمي إلى وقت وموضة وعصر وحبيب، وهو كالكلمات المستعملة، يحمل الرائحة التي تضيء المسام وتجذب المحبوب، يفلح الصدر الضعيف ويعثر على الدموع السخية التي تمكث ولا تغادر، هذا وغيره مضمون وجوده فيه وأكثر، وأنا أتلاعب في جميع هذه الوقائع الموجودة بحوزتي، وأنت ضمنهم يا بحر. أذهب وأعود، أُخرج جميع محتويات الخزانة فيبدو بطنها وتفاصيلها موقعاً جيداً للقيام بجولة داخلها وتجديد مكان المراقبة، وأنا عاقدة العزم على أن لا أجعل المسافة متساوية بين مغرم وآخر. شاهدت ما علّقته أمامي في الغرفة الثانية، ياه، لم أرتد من هذه الثياب إلا القليل مع القليل، وحين أبصر كل هذا الفراغ أمامي أشعر بصلابة المكائد والأسرار

السحيقة الغور التي أخذتنا جميعاً إلى شباكها، والغناء الذي تعلّمته وأنا أطوف بهم وأراقصهم، بالأغنية التي شقّت البلعوم وتلاشت بين رياح المدن، فيظهر لي وللتوّ وكل شيء يحلّق أمامي إلى أعلى، مبتعداً عنك وعني وعن كل شيء في هذه المدينة، باريس. لثانية، بدا لي الأمر دعابة لا تطاق، إن هناك صاحباً غيري لهذه الملابس والكائنات والموجودات، شخصاً آخر أخلّ بالشكل والمضمون والسطوح والارتفاعات، بالأحداث والمشاعر، وأنا أبحث عنه داخل كل ثوب وشال ومعطف وقميص وسروال، ونحن على وشك التصادم والتقاطع، التحليق بعيداً قبل الارتطام بكل هذا الذي يملأ الأرض والسماء، «فمن يدرك أشياء مختلفة فهو يعيش أيضاً بشكل مختلف. ومن يعش بشكل مختلف يفكّر بشكل مختلف، ومن يفكّر بشكل مختلف يستعمل أيضاً لغة أخرى. وما يحقق لدى الأفراد المختلفين هذا الاختلاف في التفكير والتعبير هو ما يميّز الإنسان من بقية الحيوانات. وحدود جهاز إدراكنا الحسيّ، وحدود لغتنا هي حدود عالمنا، لأن اختيار كلمات لباساً لفكرنا يتمّ دائماً من خزانة الكلمات التي يملكها النوع البشري».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ٨ -

المنفعة العليا

ماذا جنيت، تمارين أقوم بها وأريد اللحاق بك، تتبع خطواتك وأنواع أنشطتك ورحلاتك، فأستعيض عنك بالكتابة لك، فتتسع الأوراق ووقتي لا يتّسع لها، لكي أعدّد أمامك التسلسل الدقيق والمفرط في ترتيب الأولويات المطلوب مني عملها، لكي لا أفسد جو الغرام، ولا تتفشّى رائحتي بين منخريك فتهربي مني. أنا المتهاون المتردّد، وأنتِ، ربّ العمل الذي يطلب مني: العمل الإضافي، وما عليّ إلّا إتقانه حتى لو أطلقتُ جميع الشكاوى ضدّك، فكل شيء فيك ضدّي وضدّ مصلحتي، العلاقة وهيمنتها عليّ، وأنا أفكّر فيك وأنت بعيدة، وهذا يتطلّب مني فترة تدريب طويلة وشاقة، وهمّتي صارت سريعة الانطفاء فألجأ إلى التسويف، آه، هو بمعنى ما كذب وربما مرخّص له، ونتائجه تضعضعني لكنها لا تقطعني إلا لنصفين. «هذه الطريقة يؤدّيها الكاذبون المحترفون كالممثّلين والممثّلات فإنهم يقضون حياتهم بكاملها وهم يمثّلون لنا سلوكاً كاذباً»، وهذه التفاصيل يا راوية هي التي تنهكني عصبياً

فتزداد شراهتي للتدخين ويرتفع السكّر في الدم، وبالتالي يصعد مؤشّر ضغط الدم. في الأصل أنا سليم من جميع هذه وغيرها من الأمراض، والنتيجة: أنت تقومين بضرر كبير في حياتي، تفلحين في ذلك أكثر مما تفعله شخصياتي الأخرى التي أرتطم بها وأهرب منها: المهندس المدنيّ الذي لم يكمل الشوط إلى آخره فتوقّف عن الدراسة وهو في السنة الثالثة قائلًا للوالد بلهجة تراجيدية هازئة:

ـ لم أعد ذاك «المثابر العظيم» الذي كنت تتوق إليه كثيراً.

في تلك الأثناء، كنت أشاهد الدخان يتصاعد من جسم أبي وأنا أشمّ رائحة احتراقه أمامي، في منتصف الثمانينيات، بدأ الوالد بالتلاشي وبالتدريج. كان يتوجّه صوب الاكتئاب بلا حسرات ترتفع في وجه الوالدة، وفي ظنّي حتى اليوم أن ذاك البلد هو المركز القديم والحديث لتعدّد تخييب الآمال في عموم الرحلات الارتجالية في الميثولوجيا العراقية. فالوالد يا راوية كان واحداً من أهم مخطّطي المدن في العراق، ويحلم فعلًا بمزيج من إشاعة روح الفنون التشكيلية ضمن المعمار الحديث، خارج عقلية «الحرب على الشيوعية» وضدّ بناء الساحات والمجتمعات السكنية «المصمّمة حسب المنظور التاريخي». الأرجح أنه أراد الذهاب إلى ما في حوزته، المدينة ذاتها بغداد الدينامية والتي لم يشبع من التحديق فيها وفي نهرها وأجزائها واستعاراتها والتغيير المستمرّ لسكّانها، فيشعر بالابتهاج، علمت بذلك متأخّراً، فهو يعتبر المدينة، أيّة مدينة «حيث يلتقي البشر وتوجد أماكن تبادل الثقافات، ويتمكّن الغرباء من التلاقي فينشأ التحضّر». كان يسقيه «سعادة التلاقي».

فالمدينة تضمّ «عدداً من الرغبات والقيم الثقافية وتعلّم حبّ ما هو متناقض، والقدرة على التعايش مع القوّة الكبيرة». تسمعين بالطبع عبر الأخبار التلفزيونية عن مدينة (الثورة) التي تغيّر اسمها اليوم إلى (مدينة الصدر). في مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي، كلّفت الحكومة العراقية «المهندس المعماري دوكسيادس بإقامة مشروع سكني وطني. فأسس ما يشبه «وزارة» للإسكان والبناء المدني والإعمار وتدريب المهندسين المعماريين. بعد أن أسقط النظام الثوري سلطة الملك فيصل الثاني عام ١٩٥٨ بقي ذلك المهندس وصمّم فريقه المتعدّد الاختصاصات عشرات الآلاف من المنازل وتمكّن كذلك من بنائها». الوالد كان واحداً من أولئك المهندسين المصمّمين والمخطّطين، من الذين اشتغلوا على تلك المساحة من مدينة الصدر، ودخل في نقاشات طويلة مع المكتب الإقليمي لإجراء التعديلات الكثيرة على تلك «المربّعات المتكرّرة إلى ما لا نهاية. فهي منطقة مزدحمة مؤلّفة من بنايات بطابق واحد أو طابقين وبشوارع ضيّقة وأزقة رمادية من الإسمنت. ويعرف الجميع في الوقت الحاضر هذا الحيّ السكني الذي بات يشكّل خلفية للحرب الأهلية، ويعيش اليوم في هذا الحيّ مليونا مواطن، ويعدّ منطقة غيتو كابوسية معزولة تماماً ومعقلًا للمقاومة ضد الأميركان. وقد اكتسب هذا الحيّ شرفاً لا يحسد عليه، إذ أصبح مسرحاً للعبة الإنترنت: المهمة ١٦، معركة مدينة الصدر». حُورب أبي، وقُمع، ولم يوفّق بالدفاع عن مجمل أفكاره الثورية في فن العمارة. أتى كانت تعيّره بذلك، وبعد سنين طويلة من هذه الأحداث حين

يخبرها وهما في حالة شبه هيام، ولكن، بغتة، يصلان إلى هذا النوع من الشجار الذي يدمي قلب أبي، قائلة له بصوت غاضب:

- إنك قليل الإيمان بتلك الأفكار. وأصلًا إنك غير قادر على حملها محمل الجدّ والدفاع عنها.

فشدّ الرحال وهاجر إلى إنكلترا، إلى برايتون بالذات، وحين تراجعت جميع خططه غزته أمّي بجميع خططها في أحد الأعوام وكانت تتمشّى على الشاطئ.

- رجعت إلى وراء وأفسحت لها الطريق كله وأنا غير قادر على أن أدرجها في خانة الإنس أو الجنّ. كانت هي الموضوع المعماري الإمبراطوري العظيم الذي لم أستطع إنجازه فقد تطلّب مني بناء شبكة عملاقة من النظم والمنشآت، فلم أكن أملك إلّا نداءً إلهياً: إخضاع تلك الشابة لكي تصير برمّتها لي. كان بمقدوري الهتاف بنشيد النصر وهي تلتزم الصمت، وأنا أمشي وراءها كفارس نبيل.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الموت الأليف

هذا ما قرأته في ورقة واحدة من دفتر يومياته حين التقطتها من تحت رأسه فسرّبتها إلى طبيبتي إيفا في إحدى السنوات. بدا لي أبي يا راوية مَعْلَماً سياحياً في هذه المدينة البحرية الفاتنة. أراه من وراء الزجاج في البداية وأحتاج إلى دليل، هل هذا هو أبي فعلًا؟ وأنا أريد الوصول إليه فلا أقدر على دحض أيّة نظرية لا في الهندسة ولا في السياسة ولا في الغرام. لم أفزع في البداية لو سرت في خطاه فالمرض أو الجنون هو الآخر غرض محمود، أو إنجاز جزئي مما نسمّيه أداء الواجب تجاه البلد الأول، أو الحبيب الأول. فلا يزال السيّد سلوان العبد مدير المركز الاستراتيجي الكائن ببيروت يرسل إلي الرسائل الإلكترونية معدّداً مناقبي وألقابي على هذه الشاكلة:

- أيّها الممثل الهاوي والشاعر الكسول، أيّها السياسي السياحي، والعاشق البطران...

وهو يعرض عليّ حماسته التبشيرية بالصفقات الرابحة مما قد أناله بالانضمام إلى المجموعات الاستراتيجية التي يديرها. لا

أستطيع اختصار عمل هذا المركز حتى لنفسي فكيف لك. فهو ليس بالمركز الوحيد الذي يقوم بالدور التجميلي للولايات المتحدة، أو هو مجرّد تناسق بين أدوار كثيرة يقوم بها سلوان ومعه أعداد لا تحصى من النساء والرجال ذوي الاختصاصات المتنوّعة، ولا تخطر على البال. أمّا ذلك المصوّر الفوتوغرافي الذي يبغض البروتوكول والنقاشات النظرية، فقد تولّى هانز وآنيتا مساعدتي في تهيئة معرضي الأول في مدينة بازل، وكان ذلك في منتصف التسعينيات، وفي أثناء الحصار على العراق. قبل الافتتاح بأيام، خاطبني هانز هكذا:

- عال، بدأت تتخلّص بالتدريج من حياديتك وفوضويتك. حسناً، أنت لم تتوافق أو تندمج في السيستيم هنا أو هناك، أعني بازل أو برايتون، أمّا العراق فأنت يومياً تخفض من قيمته المعنوية والرمزية والخصوصية بعدما سُحقت أساسياته منذ تعارفنا في ذلك التاريخ. دائماً أسمعك أنا وآنيتا تتحدث عنه بصيغة الغائب وتردّد: إذا شئنا الدقّة، فالعراق تخلّى عن نفسه قبل أن يتخلّى عنه العالم. تصمت وتدخّن وتعاود بناء العلاقة معه بالأسود والأبيض فكان معرضك الأول: معرض الجثث الطافية فوق العالم. فكتبوا قائلين عنك: كانت الجثث تحاول القفز من الصورة إلى الخارج وذلك من قوّة استمرارها... التي شكّلت فضيحة.

وكان الصديقان يتناوبان على تشجيعي. آنيتا تدير الحديث بطريقة أكثر مرحاً بعد أن تشاهد سخطي وسكوتي:

- رالف، حشرية الفنان لم توظّفها بصورة تامّة، وعلى الرغم

من هذا كان صيت المعرض مدوّياً. أنت صاحب الصور أو صاحب الجثث البديلة من الحياة، الفنان الذي يتحرّك بين أجزاء الموت وأجزاء الطبيعة والكون. يا الله، كم ترتّثت أمام تصوير كل جثّة، فكنا نتصوّر أن الجثّة هي التي تتحرّك، وأنت ونحن كنّا الأموات. رالف، سامحنا، ففي أثناء الحظر شعرنا بفقدك وخسارتك التي لم يَرُقْها إلّا ما أصابك بعد ذلك، عقب غزو بلدك واحتلاله. حسناً، لا تزعل، هو ليس بلدك، هو العراق فقط. وهو اليوم لا يحتاج إلى أيّة رمزية أو ألعاب فوتوغرافية، فكل شيء فيه طازج جداً، اليأس التامّ، والموت الأليف. ليكن المعرض القادم، وبالتساوي مع راوية، هي تنشد أناشيده البيضاء العارية، وأنت الذي تقع عليه مسؤولية إخبارنا بذلك، هه، هذا مجرّد اقتراح.

ما زلت أفضّل العمل ما بين مفهوم الوثيقة المعاصرة «والصورة المزاجية» التي تأثّرت بها بالمصوّر فرانك سميث، فذاع صيتي بعدما عرضت صور مدن تحترق وعمارات تُدمّر، وقتذاك كتب لي السيّد سلوان العبد، وهو أحد المعارف القدامى والذي لم ألتقه منذ سنين طويلة، مهنّئاً بحرارة لافتة، فلم أردّ عليه بسبب اللامبالاة لا غير. لكن، في أحد الأيام، قرأت اسمه في صحيفة «الواشنطن بوست»، وهي تلقّبه بالباحث، وواحد من المسؤولين الأساسيين عن المركز الاستراتيجي لإدارة شؤون العراق، ومقرّه الأصلي البنتاغون، وفروعه تتوزّع ما بين بيروت والبحرين وتونس وقطر. بحث وعثر عليّ فأرسل رسالة إلكترونية مستعجلة بإنكليزية

في غاية الالتباس، فلم أفهم هل هو يمتدحني فيها أم يحسدني، يشمت بي أم يشفق على حالي. تقول رسالته:

ـ معرضك الأخير مترابط بصورة عجيبة ما بين الكآبة الساخرة والتصوير بيد مهتزّة، كيدك. نريد من عدستك يا رالف يا ابن أحد أهم المهندسين العراقيين القدامى والخالدين، أن تقوم بتكبير ذاك البلد، بلدنا. صار من المحتّم عليك أن تهديه أو تقف له هذه المرحلة، والمراحل القادمة من حياتك. لديك عمل مهمّ في واحد من مراكزنا، سوف نتحدّث طويلًا عما قريب حين أحضر لزيارتك في برايتون وزيارة الوالد المحترم في مكان عزلته...

بدأ السيّد سلوان يحادثني مراراً وتكراراً شارحاً بطريقة جدّ عقلانية وباردة، أهداف هذه المراكز التي افتتحت تباعاً وبصورة علانية، بعد الغزو في عام ٢٠٠٣، عارضاً المشاريع الحرّة التي تديرها الولايات المتحدة في بلاد المعمورة، فتوصي بها الوكالة المركزية للاستخبارات وتحيلها تباعاً على هذه المراكز. كان إغراؤه صريحاً وهو يعدّد لي الأرقام الفلكية الموضوعة تحت تصرّفه، فهو مقتنع اقتناعاً راسخاً وقبل أي شيء، بأنهم كُلّفوا هذا لأنهم يؤمنون بأنهم يعملون من أجل إنقاذ العالم. كأنّي به كان يضحك بصوت عالٍ قائلًا:

ـ أرجوك لا تُستفزّ من هذه الأقوال، فدعني أكمل لك الصورة. لدينا رحلات باذخة جداً إلى مدن في طور التأسيس والتشكيل بعد هدم المدن الأولى. نفكّر بدزينة من المصوّرين والباحثين والرسّامين والفنانين، دعك من الشعراء في الوقت

الحاضر، لكي يذهبوا إلى هناك للتوّ، آه، هي مدن سوّيت بالأرض ونريد تصوير وتدوين لحظة تأريخها الجديد، وكيف تُبنى اللبنة الأولى للمدينة الحديثة.

ثم يضيف مازحاً وبصوت رقّ حتى خلته صوت أنثى:

ـ لدينا مترجمات وصحافيات وكاتبات ومصوّرات من جميع الجنسيّات، فوّارات وساخنات وذكيّات. نشاطهن الجنسيّ غير محدود، ذاك الذي يتركّز في فترة الإباضة فقط... ها ها.

يشرح لي بصورة دورية، وفي أوقات مختلفة، يلاحقني ما بين بازل وبرايتون بالرسائل الإلكترونية والهواتف النقّالة لعائلة هانز وآنيتا. كان صوته يتحوّل كثيراً مما يثير استغراب آنيتا وهانز، وكانت رسائله تبدو رتيبة وروتينية، وهو يعلن الراتب الضخم الذي ينتظرني ويواصل إرسال التقارير، الصور، أفلام DVD وبرامج خاصة عن الولايات المتحدة، فيضع بعض الإشارات على هذه الصور: «الغزو تملّك؛ وروح التملّك روح المحافظة والاستعمال لا روح التدمير» أو «فتدمير المجتمع لا يقتضي بالضرورة تدمير البشر الذين يكوّنونه. إن المجتمع يمثّل وحدة البشر، لا البشر أنفسهم. كمواطن يمكن للمرء أن يبيد، ولكن ليس كإنسان». كان يعرف هوسي بالشعر الأميركي واشتراكي في المجلات الشهرية والدورية الخاصة به، وفي موسيقى الجاز والبلوز والحركات الجذرية الطليعية في الهندسة والتصوير والسينما إلخ. تصوّرت السيّد سلوان يقف في برج المراقبة ويكتب تقاريره: على من يجب القضاء، على السكّان الأصليين، أم على «حثالة البرجوازية التي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تقلّد عدوها في اختيار وسائلها، أم على المنعمين بالرفاهية وكيف يدفعون أثمانها التي تؤدّي إلى عزلهم الكامل. إنهم سجناء لأمنهم الخاص». راوية، اعذريني، فحين أصل إلى هذه الحصيلة من المخاوف أشعر فعلًا: «الآن لم يعد خوفي من الغرباء، بل من أهل بلدي». دوّنت كلمة بلدي فظهرت الكلمة أمامي دون لعثمة، فكتبتها بالعربية بدلًا من الإنكليزية. فأنا تربّيت من قبل أقرباء والدتي في بازل، واليوم حين أسجّل كل هذا، يتراءى لي أنني تدرّبت فعلًا على عدم الإتقان في أي شيء: اللغات والعمل، العيش والحبّ، حتى عللي بها جانب فوضوي ساخر، فلدي أمراض كثيرة تظهر وتختفي ولا أعرف اسماً واضحاً لها. وإلى اليوم لا أعرف ما هو مرضي الحقيقي أو الأصلي، فأنبذ نفسي قبل أن يفعل ذلك الغير، أنت أوّلهم، ربما.

نصف على نصف

لم يفتح شهيّتي لمواصلة الكتابة إليك إلّا هذا الأمر غير المفهوم الذي يقع في ما بيننا، وأريد بفارغ الصبر أن لا ينفد حتى لو كان سيّئاً. «فيصعب جداً أن ننطق كذباً عبر سلوك من هذا القبيل ولكن الأمر ليس مستحيلًا بالطبع». من الضروري، قلتُ، أن أتحرّك بسرعة وأكتب إليك ما يحصل ولا أستطيع إدراكه على الوجه الأكمل. وحين التقينا ثانيةً على عجلة يومين في روما، لم نكن أجرينا أي شيء على تلك الكتابة النيئة الفجّة والفظّة، ولا على العلاقة، ولا نطقنا بكلمة واحدة فيما لو تسنّى لنا الهرب فهل نتجنّبه أم نذهب إليه؟ راوية ماذا نسمّي الذي بيننا، أعاصير، قضية ميؤوس منها، مأثرة لغوية، تهريج، خدعة، أنا الذي يخشى الخديعة، ومن الممكن أن أوافق على الحصّة الأدنى منها. ففي الغرام لا يوجد إجماع تامّ، وعندما تقتضي الحال فالحبّ يحتاج إلى أمين صندوق ومحاسب يحسب بالدقيقة والثانية، بالساعة واليوم والأسبوع والعام، ويبتكر الذرائع وهي لا تحصى من المماطلة والإرجاء. إنني، إلى هذا اليوم، لا أملك عنواناً قديراً لما

بيننا، علاقة عابرة، أف، أنا متّهم بها كثيراً جداً. نزوة مسلّية، أصلًا هي ليست بحاجة إلى الإعلان عنها. حبّ، هذا يحتاج إلى حبكة وألغاز، ومخيّلة يقع تحت تصرّفها فنون وعلوم وفلسفات الوجود بأسره. فكلام العرب عن الغرام أجمل من أن يصدّق. ومن حسناته أنه لم يراودني عن نفسي. فأنا لا أحفظه، ومن سيّئاته، أن جميع مضامينه لديك، وبمقدورك ترديده على مسمعَيّ، ولهذا تبدو أغلب المؤشّرات الصادرة مني إليك غير مشجّعة فلم تدفعك نحوي كما أشتهي، فأقول في سرّي مردّداً: أنت يا بحر خبرت نفسك جيّداً وبذلت ما في وسعك فكفّ عن هذا البكاء الوشيك. والحقّ أني كنت ألاحظ أن هذا امتحان لي على طول ما بيننا وهو ليس بطويل، ولا عميق بعد، لكنه تأسيسي، لكي تصبح هذه الكرّاسة كتابة تخفي وراءها أهم الطرق الموصلة أو التي تؤدي إلى قلبك. بالممرّات الوعرة والطرق الجانبية، وتلك المواقع السرية من شخصياتنا. فهل كنّا نحاول أن نعطي أنفسنا مظهر العشّاق المحتشدين بالمواهب المميّزة. فالكتابة هي أحد التقاطعات المهمّة لإظهار العقد والسخافات، والفصام والجروح من السقف إلى الأسفل، فنبدو مرةً في غاية التعقيد، وأخرى في غاية الاختزال، كما حصل في دعوتك الإلهية إلى الخروج من بيت آنيتا في الليلة نفسها. يومذاك أمرضتني يا راوية. وعندما صرنا في الشارع العام بدا الأمر في غاية البساطة، وقتذاك التفتِ وقلتِ:

ـ لا أعرف يا بحر، سوف أناديك بهذا الاسم من الآن فصاعداً، أو حين نكون معاً. رالف اسم يتعلّق برجل آخر ويمكن أن نقوم بترجمته ثم إزاحته. من الممكن أن يكون رالف لطيفاً

ومضياقاً لكنه يبدو لي، على الأقل الآن، رجلًا تزيينياً وزخرفياً، وعلى الأرجح تبدو غير متحمّس له كثيراً، وأنا معك أليس كذلك؟

لم تدعيني أجيب فواصلتِ:

ـ الأسماء يا بحر، أسماؤنا تورّطنا، وتُرمى في وجوهنا أحياناً فنشعر أنها تنتهي ما دام التصفيق ينتهي، ونودّع المسرح على سبيل المثال. ألم تشعر بذلك وأنت تتلقى الترحيب والثناء على بعض معارض التصوير التي أقمتها في أوروبا وشمال أفريقيا؟

لم أجبك، حسناً كنت أرقب نفسي وأتساءل ما هو النصف الذي يعجب راوية؟ أيّ نصف بمقدوري أن أتقدّم لأخبرك عنه، وأيّ تظاهر أو ادّعاء عليّ تجنّبهما لكي لا يتطوّرا ويحطما تجربة الكتابة بضمير المتكلّم الذي عليه القيام بأفعال: الاستلقاء والاستيقاظ، النوم والاهتياج وفعاليات الوجود ذاته لرجل عادي لا يميّزه أي شيء لكن له علاقة بكل شيء، وما عليه إلّا أن يكون هو، هو في الحدّ الأدنى: العاشقَ الذي يعمل لحسابك أنتِ، والرجل الجذّاب ذا الأهواء الجانبية، المتطلّب والمتصوّر أن بمقدوره ملء جميع الشواغر منذ الصباح إلى اليوم التالي، وهو يكدّ لحسابه الخاص. لا أعرف هل خيّل إليك في أحد الأيام أن الحبّ عمل خياليّ، مجموعة من الافتراضات والفرضيات، حقيقية حين ننطلق قاصدين بلد المحبوب في إحدى المدن الأوروبية، ويتعذّر علينا الدخول إلى مسكنه لأيّ سبب من الأسباب، تافه أو وجيه، وغير حقيقية حين لا نوافق على توجيه أيّ نقد من أيّ نوع للأخطاء الفادحة التي تقترف بحقّنا، وما علينا إلا القبول بها، ونحن نُطرد ويتعذّر علينا البقاء في قلب المحبوب، ولو من باب

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

المصلحة والمنفعة. لا أدري ما هو وقع الصفتين الأخيرتين عليك، أعني ما يخصّ المصلحة الخ... هل تضايقك أم العكس صحيح؟ إنني هادئ ومهجور جداً، وفي هذه الأثناء عليك أن تولييني آذاناً صاغية لكي أقول لك: إن المصلحة هي الكلمة الوحيدة التي عثرت عليها وتلائم طبيعتي البطيئة الرتيبة والمتردّدة. دعيني أشرح لنفسي وقبلك، حاولتُ استعادة كل تفصيل جرى في ما بيننا، تفحّصتُ أقلّ حركة، وعموم التغيّرات التي طرأت على حياتي منذ الرابع من تموز من عام ٢٠٠٥، يوم اللقاء بك، ونحن اليوم في نهاية عام ٢٠٠٦، وعرفت جميع التحفّظات في الكلام والكتابة؛ أي علينا أن لا نكون مجرّد شخصيّات روائية لحدث انخطافي، يعجبك هذا النعت، هه، لكنه كلام مبهم، وأنا لا أفضّله. عليكِ أن تستشفّي بنحو عابر ما أودّ أن أخبر نفسي به، وما عليّ إلّا أن أزداد هدوءاً وأنا أرغب في الإنصات إلى تلك المصلحة صباح مساء، وأنت بين ذراعَيّ، وأنت ـ ربما ـ بين ذراعَي غيري، وأنت وحيدة وتتجنبين رؤيتي لسبب لا تعرفه إلا الآلهة. أحياناً تختلط القضايا الثانوية والجوهرية، فأتصوّر أن أغلبية القرارات يوحى بها من عندك، التوصيات والمساومات، أما الالتماسات منك فعلى العموم تُقابل بالرفض. يا راوية في السياسة يقولون «التعجيل في إعلان الطاعة»، وفي الحبّ، المساعدة الوحيدة الممكنة التي تصدر منك هي: طلب صريح بالإذعان.

آنيتا سألتني ونحن في مطبخها في مدينة بازل وهي تعدّ الشاي قبل شهور:

ـ ها، كيف تسير الأمور؟

لم أجبها. أدخّن وأطلق صوتاً وأنفث الدخان وهي لا تستلطف ذلك مثلكِ فواصلتْ:

ـ بحر، لا تتصرّف كتحرّيٍّ معها رجاءً، هذا حمق. لا تمطرها أو تمطرني بالأسئلة عن حياتها. الماضي والحاضر، حسناً، تدبّر أمرك وحدك. لا توجد وصفات عجيبة في العلاقات الغرامية تجعل المحبّين يشعرون أن الثوم يقطر عسلًا. لا تنظر إليّ بطريقتك التهكّمية يا عزيزي. لا سقف نهائياً في الحبّ، ولا قانون يشرح ألغازه قط. بالطبع نحن نعرفها منذ سنوات حين حضرت في الشهر الأول من عام ٢٠٠٢ بدعوة من مؤسسة بيلبير التي ترعى الثقافة والأمسيات الموسيقية والمحاضرات التاريخية التي يشرف عليها هانز. في تلك الليلة بدأ صيتها الفني كمنشدة لها طريقة غريبة وديناميكية في المزاوجة ما بين مدارس وأساليب، قل تنويعات على عدة مقامات أو مقام واحد بتنويعات عدة. صوتها يتأرجح بين البرق والنار، بالإجمال هذا كلام غير دقيق في الموسيقى والفنون عامة، لكن طريقة الإنشاد جعلت بعضنا يغيب عن الوعي مثلها، وهذا كان يحصل في الترانيم الصوفية أو الأناشيد العاطفية والإيروتيكية، أما حين تذهب إلى بلدها فقد كانت تبدو مقطّعة الأوصال بالطريقة الأدائية التي تستدعيها، والمقاطع التي تختارها، فتبدو أنها تقسم ذاتها إلى قسمين أو جبهتين. بحر، أظنّ أنا وهانز أن راوية لم تقرأ تاريخ العراق خطأ كغيرها، أنت تفهم ما أعني جيداً. اسمع، أريد أن أقول أمراً واحداً لكي أنتهي منه وأمامك:

ـ راوية لا تحاول الطرب ولا الإبهار، ولا تريد أن تقدم نموذجاً مثالياً. ما كان بوسعها إلّا البقاء في جهة بغداد حتى لو

اختلطت الجهات جميعاً، ستبقى تروي الحكاية في كل منعطف ومسرح وجادة ومطعم ومدرسة، فبغداد ليست عصيّة أو مستحيلة كما يتصوّرن هم، كلهم، ربما أنت أولهم يا بحر ـ كما تقول راوية ـ أن بغداد تائهة ونحن تائهون أيضاً، وعلينا البحث عن الآخر بجميع الطرق والوسائل إلى أن يعثر بعضنا على بعض. هانز أول ما نطقت جملتها النغمية الأولى قال هامساً:

ـ في صوتها شيء يوشك أن يزول لكنه يولد ثانية وبعد ثانية. وكلما أحاول أن أدلّ عليه يتملّص. تعرف، بعد شهور طويلة وأنا أصغي (للسي دي) كتبت شيئاً ما عن صوتها، إذا كان يعنيك الأمر فسوف أجلبه لك.

قامت في الحال دون انتظار كلمة مني. غابت قليلاً وعادت وهي تحمل كرّاسة ثخينة جلدها أخضر أدكن سميك وفي داخلها أوراق بألوان وأحجام مختلفة. تدندن بشيء ما وهي تورق الكرّاسة باحثة عن صفحة ما:

ـ ها هو. رفعت رأسها ونظرت إليّ بحنان فائض: هي مجرّد أفكار أو تصوّرات أو سمّها ما تشاء. راوية تنشد بمنطق السخريّة والتهكّم. في عموم الحفلات التي أقيمت منذ سنوات في الشطرين الفرنسي والألماني. كانت تحضر وشيء ما يحضر معها دون توقّف؛ آفة جرحها، كنت أشعر أنها حين تنشد كانت تواسي ذاتها دون توقّف. فأطلق عليها هانز بعد انتهاء إحدى الحفلات بعد عام ٢٠٠٣ قائلاً:

ـ داخل صوت راوية مواد مشعّة سريعة الاشتعال وشديدة الانفجار. وقتها، ضحكتْ راوية بصوت خفيض وظلّت غير مكترثة بكل ما يقال عنها وعن حفلاتها.

أنا بدوري أيضا أطلقتُ صوتي ما بين التنهّد والملل قائلاً:

ـ تعنين موادَّ ذريّة أليس كذلك؟

ابتسمتْ ثم ضحكتْ وواصلتْ:

ـ تعلمين، مضى عليّ وقت طويل وأنا بعيد عن الأناشيد والأغاني واللغة العربية أصلاً و...

مشت آنيتا وذهبت إلى آلة التسجيل الدقيقة الذبذبات ذات الصفاء التامّ. فهذه هوايتها بجانب عملها مستشارةً للترجمة في دار النشر الألمانية. كبست وأشارت بيدها عليّ بالسكوت التامّ. لن أقول لك بالطبع شيئاً مهماً، ولا أريد اغتياب صوتك فأردّد: آه، ليس سيّئاً. فأنا لا أستلطف أيّ نوع من أنواع الإيقاعات لا في الموسيقى ولا في الشعر. وحسناً جداً، كانت الأناشيد في الغالب سرداً ونثراً... كنت أتأهّب للكلام، أو أستعدّ له، لكن نظرة واحدة من آنيتا لم تسامحني لو نطقتُ بكلمة فأشارت:

ـ أصغِ.

«إني إذاً سأبكي الفتيات اللواتي انتزعن من أحضان الأحبّة

«وأندب الطفل الضعيف الذي قضى قبل أوانه

«والرجال الذين خلّفوا وراءهم زوجاتهم،

«أملأ السماء صراخاً من أجلي

«وفي حرم المجمع ابكِ عليّ

.....

.....

«ألا فلتكفهر عيناك ويعبس فمك من أجلي،

. . . . . .

«هل رأيت الميت الذي تركت جثته في العراء؟ نعم

«لقد رأيت

«إنه يأكل الاقذار وما يرمى في الشوارع من فتات».

تطلب الأمر من جهتها حزماً؛ أن أخرس نهائياً، فأعاود وأتخيلك ثانية حتى لو بطريقة فجّة. حضر صوتك للتوّ لكي يحقّق معي، وهذا ما فتنني بالضبط. أمر لا علاقة له بالجمال والقوّة والإتقان. فهذه العائلة لا تفضّل أيّ نوع من النعوت ونحن نتحدّث عن الفنون. تقدّمت بفنجان الشاي ووضعته أمامي. كان صوتكِ قد توقف فقالت آنيتا:

ـ في بعض المقاطع من أناشيدها يجعلني الصوت أعيد ترتيب علاقتي بالوقت كمفهوم وقح للوجود فهو موجود لكنه غير متوافر لفرط البخل والشحّ، لا مثل بعض المخلوقات، الذين ينظرون إليه كوهم يفرّون منه ومن أمامه. كلما سمعت راوية شعرت بالواجب تجاهها. فهي تعيش في خطر تلك النشوة؛ فلنقلْ هو الإقدام، أو شيء من هذا القبيل. فأصيح، عليك اللعنة يا راوية. أنصت إلى النهاية وأشعر أن بمقدوري أن أعبر إلى حلقها مروراً بالمريء، أمدّ يدي داخل جوفها فأسحب منها إحدى أرواحها المتعددة. تذهب بي إلى الماضي والحاضر معاً، وأنا لا أستطيع التعليق، أشبك يدي على صدري وأنظر إلى الحديقة، هذه التي تراها أمامك يا بحر. من الجائز أن هذا ما قصده هانز بالمواد أو المتفجّرات الموجودة داخلنا. . .

ـ ٩ ـ

الحلزون وقصص أخرى

أمامي ليل وأنا أخاطبك وأردّد: هيّا يا بحر تابع معي، فينبغي لك الحضور والكاميرا معك لكي تصوّر كل ركن وزاوية. حسناً، سأفعل ذلك بدلاً منك. شعرت ليل وهي داخل الحمّام وبصرها إلى أعلى، أن سقف الشقّة شاهق بعض الشيء، فهذا البناء صُمّم وبدأ بتشييده عام ١٩٣٩ بطابقين ثم أُضيفت إليه الطوابق الأربعة. قالت ليل:

ـ إمكانية الرسم من على هذا العلو وأنا أشقّ طريقي للأعلى طريقة طريفة للهو واللعب. ألا ترين، صارت السقوف بزاقة كأني أراها تتقدّم صوبنا. هل لديك أفكار خصوصيّة، ماذا تريدين لجدران الحمّام؟ أمّا سقفه فلديّ أكثر من فكرة. الغرفتان والممرّ في ما بعد، هه.

ـ هل ستخطّطين وتزيّنين كل الشقّة، معقول يا ليل؟ اسمعي، تعرفين الحلازين ها، أي الحلزون داخل القوقعة، قبل أن أكمل. . .

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

- أي، طبعاً، وماذا بعد، أعرفه، ماذا به؟

- «هل تتصورين حلزوناً خارج صدفته، ولا يتحرّك، فهو ما إن يستريح حتى يتكوّر في الحال، وبالعكس فهو ما إن يستريح فإن حياءه يجبره على التحرّك لمّا يكشف عريه ويسلم للعراء بنيته القابلة للانجراح، فحالما يعرض نفسه للخارج يبدأ بالزحف». ليل، سوف أحدّثك أكثر عن الحلازين، ما رأيك، سندعه في أحوال وحالات كمون وتعرية. سنضعه في الحمّام فهو يحبّ الأرض والمناخات الرطبة، وأمام النساء الشاحبات الوجوه، والرجال الذين يتجوّلون وحيدين على الشواطئ المهجورة ليلاً. ها، ألا ترين؟ فلديك مواضيع عدة.

ابتسمت بشيء من الحزن وهي تجيب:

- هل أفهم أنك تفضّلين الزواحف أم الطيور للباقي من الجدران والفراغات؟ الحيوانات الثديية أم البرمائية، أصحاب الشعر الكثيف أم أصحاب الملمس اللدن؟ وذاك الرجل، رجلك الذي لم تلفظي اسمه أمامي بعدُ، أين ستضعينه، في أيّة مرحلة من الغرام أنتما؟ ومن أيّ فصيلة هو؟ أظنّ حالتك وأنت عائدة من برايتون كانت تصعب على الكافر، متلاطمة كالموج في أثناء العاصفة. هل تريدين رسم الموج أم سرعته؟ ماذا تفضّلين؟ هل أشتغل حسب مزاجي أم ستنفرين من ذلك كما يحدث معك في كثير من الأحيان؟

- حسناً، سنبدأ من الحمّام، وأنا أقرأ عليك صفات الحلزون وأنت تنتقّلين بالسقالة من جدار إلى آخر كما كان يفعل تلاميذ

مايكل أنجلو، فالمكان بهو، لو كانت الوالدة مكانك لقالت: بيتك يطارد به الخيال.

أطلقنا ضحكنا عالياً وأنا أتهكّم على شقّتي.

ارتدينا ملابس مضحكة فبدونا كالمهرّجات. كنا جاهزتين لأشياء لا ندري ما هي، مهووستين بنوع من حماسة، وكنت أنت يا بحر على وشك الدخول علينا، هذه ليست مغالطة، وأنا أفتش عنك بين الكلام والكلام، فأول ما شاهدتك في اليوم الرابع من تموز في عام ٢٠٠٥ في مدينة برايتون، حضر العالم فرنسيس يونغ في بحثه الفذّ عن الحلازين. تكرّر هذا الأمر معي وأنا أسحبك سحباً عن درجات السُلّم الخشبي وأنت تتمهّل. شعرت ببطئك وتردّدك الزائدين و... حركتك اللامبالية، أنت قلت «الكسولة» لا أنا، هي في رأيي أجزاء من مهابتك وحساسيتك. سكّنت روعي حين صرت بين ذراعيك. في تلك اللحظات، شعرت أن الصور التي التقطتها لي ولجميع أجزاء وجهي وبدني، ثيابي وحركاتي الظاهرية، تصبح من خلال الكاميرا امتداداً لجسدك وطريقة للاقتراب، وربما المواجهة. آه، لا تملك عيناً محترفة كما كان يصفها هنري كارتييه برسيون لالتقاط «اللحظة الحاسمة»، فهذه اللحظة حصلت لي وأنا أشقّ طريقي إلى صدرك وضلوعك، وأشمّ رائحة البارود الرطب والرغبة الندية، عبقك تحلّل وتفشّى عبر جاذبيتك إلى الحديقة الجانبيّة في بيت آنيتا وهانز في مدينة هوف المجاورة لبرايتون. فكنتَ تتشكّل أمامي، ولا أتنبأ بماذا سيحدث بعد ثوانٍ. أتأملك وأدري أن ليس بمقدورك من على ذلك السُلّم

الخشبي أن تنقلني إليك، لأيّ نصف منك، لا إلى الأوروبي ولا إلى العراقي. من الممكن أنني مثلك أشتبه في جمع والديّ، دعك من أيّ بلد حضر والدي فهو غير مهمّ، أعني، ليس هناك بلد نهائي، وهويّة نختم بها على الجينات وننتهي، نشطفها بالمعقّمات فتعود نظيفة من جميع الشوائب والإشارات. أنا من جانبي كنت أتجاهل مبكراً هذا كله، فكلما هممت بالاعتراف به أمام الآخرين، شعرت أنني أعطي بعض الدروس أو أتفوّه بمبالغات. وفوق هذا كأنني أرضي السيّاح، وبدلًا من أن أكون متزنة في تلك العلاقة معه، التي تربطني به، كنت أزداد تشتتاً وتلفاً وعبثية. لا شكّ في أن تلك المفردات بأكملها: البلد، وباقي تفاصيل تلك الإقامات البعيدة عنه، والتي عشت في كنفها، هي التي تدعني أعيد اختراعه وحدي، وعلى طريقتي الخاصة وبمواردي وبجهودي الذاتية. معظم الروايات عنه لا تصمد طويلًا، وتسبب الغم الشديد حين يجاهر بعضهم بالاقتلاع التامّ عنه فذلك للتخلّص من رهابه. وأنا أدوّن هذا أشعر باضطراب شديد حين يطفح كيل الوالدين مجتمعين أو كل على انفراد، فالوالدة، بصيغة المخاطبة أو الغائبة، لم تحن بعد رواية جميع أوراقها وأوزارها، وإذا ما عاينتها قدّامك للتوّ، فلأنها تملك مواهب تلفت الأنظار ما بين العصابية والسوداوية، والاكتئاب المتقطّع، والسخرية البرّاقة، والنظرة البوليسية التي تلاحق، وأحياناً تتهم بها العموم فور التعرّف بهم، أولّهم العاثر الحظ، الوالد العربي. من جانبي كنت أحاول تخريب جميع التحصينات التي وُضعت لي لكي أتشوّه وأتزيّن فأبدو في كثير من

الأيام مكويّة من خصلات شعري إلى حذائي اللمّاع، آه، لو تعلم يا بحر، كم يحتاج التشويه إلى انضباط ومثابرة، عناد وجسارة، ربما، إلى واقعية كي تبدو متّسقاً بجميع تلك المشتقات التي لا تدري كيف تتلقّفها، وأيّ الجهّات عليك صدّها. كنت أغنّي بصوت رائق أناشيد بابلية وأنا أتجوّل على السطح العالي:

سيّدي، ضعْ قرطاً في أذني وأنا سوف أجعله سعيداً، وسيقدمون لك اللازورد والعقيق «وأفكّر بالرأي الهندسي الطريف برفض النظرية النفعية في الهندسة المعمارية، التي تقول إن جمال الشكل هو نتيجة لتوافق البناء مع ما يحقّقه من منافع السكّان الذين بإمكانهم اختيار شكل البناء الذي يجلب لهم الراحة». للأمانة يا بحر، أنا أفضّل جميع النظريات النفعية في التصوير والهندسة، في المواهب الجنسية وكرب الغرام. تستهويني بعض النظريات الهندسية، على الخصوص نظرية لذاك الهنغاري الفرنسي، بالتأكيد تعرفه، يونا فريدمان الذي كان يؤمن بالغرف والمساكن المعلّقة أو المتحرّكة، التي تقوم بتتبع ساكنيها وهي مثبتة في قاعدة بإمكانها التحرّك في جميع الجهات. شرحت كل هذا لليل وهي تكاد تتأرجح أمامي بطولها المعتدل، بيدها الفرشاة وعلى يمينها المرآة وتحتها وضعت علب الأصباغ فوق طاولة رقيقة طويلة. كانت تتغيّر من الصغر إلى الاتّساع والسُلّم الحديدي تحتها يهتزّ فتصرخ وهي تضحك وتقول:

ـ ها، ما رأيك بهذه الأنواع من الأراضي الزلقة التي توافرت بهذه الألوان، فالحلازين تتلذذ بالبقول والنباتات ذات الأوراق الخضراء فهي تتغذى منها.

ـ يا الله، ما ألطف نزوات الحلزون، وبينما هو يختبئ عن الصيادين داخل قوقعته، فهو في الداخل يقوم بعض التنافس عليه ولكن ليس بشروطه، وبذلك تكون العاقبة وخيمة.

لم تصغ ليل كثيراً للتفاصيل التي أوردها، والتوريات التي أفكر فيها وأعلنها بيني وبين نفسي. كنت أريد أن أحمي تحفّظك يا بحر من ليل ومني، فهي لا تعرف الكثير عنك ولا القليل أيضاً. هل تدري أن ثمة رجلًا يشتغل كما يجب عليّ، يحيط بي ويخصبني بصورة لا تضاهى.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

جميل كعمل فني

وصل السيّد أحمد المصري وشاهدنا ونحن نتضاحك. كان يبتسم ويعلّق بصوت شديد التهذيب:

ـ ما شاء الله، اللّهم زدْ وبارك.

فنطلق أصواتنا جميعاً بالضحك وهو يمرّ بين الموجودات التي تنتظره لكي يفردها ويعيد ترتيبها. كان يعرف دون التفوّه بكلمة، أو أن يضيف تعليقاً، فاتفقنا أن يبادر ويشتغل كصاحب الشغل المسؤول. دخل الغرفة الكبيرة وأغلق وراءه. كان شهر حزيران وساعات القيظ الطويلة، وشيء من جفاف يدع التنفّس لأصحاب الحساسيّة صعباً. ليل بقيت متأهّبة تريد أن تترك أثراً بهيجاً حين تحضر أنت وتستحمّ، فأمسك وجهك بيدي، وأقترب منك، وبين الجدّ والهزل أقول لك:

ـ وجهك متقن الملامح، جميل كعمل فني. لا أدري لما شعرت أنك تشبه الزلنطح. هذا اسم الحلزون بالعراقية يا بحر. هل تتذكّره أم... أتصوّر أنك كلما تطلع رأسك تنطح من يقف أمامك ثم تعاود الاختباء داخل قوقعتك. مكانك، من الممكن أنه لا يتّسع

إلّا لك، ربما وحدك. أمر لطيف جداً أن تكون أنفتك بهذه الدرجة من اليقظة والانتباه، لكنني أفضّلها على غيري. حسناً، فلتأتِ منك، أقبلها ولكن ليس باتّجاهي.

لم تردّ، فأضفتُ:

- «إنه صديق التربة التي يقلّبها لكل جسمه، وصديق الأوراق والسماء التي يرفع نحوها رأسه بأنفة مع مقلتيه البالغتي الإحساس، ومع النبل والتمهّل والحكمة والكبرياء والعجب والفخر، إنه أكثر صموداً ورباطة جأش، وأحسن سلوكاً وأكثر فخاراً وبلا ريب أقلّ شراهة وأقلّ تقلّباً من أصحاب ذوات الأرجل الضئيلة، كأن يتخلّى عن هذا الطعام لينقضّ على ذاك، وأقلّ ولعاً وتسرّعاً في الالتهام، وأقل خوفاً من ضياع شيء من طعامه. لا شيء يضاهي جمال تلك الطريقة في التقدّم البطيء، الأكيد جداً، والحذر جداً، وأيّ مجهود يبذله ذلك الانزلاق الكامل الذي تُكرم به الحلازين الأرض كأنها سفينة طويلة ذات خط فضّي».

كنت تبتسم ولا تجيب كما تفعل ليل وهي تحاول أن تقرأني، أن تراك في جميع هذه الكائنات من حولنا، في أجزائي بأسرها. حسناً، لا ذكريات لدينا في هذه الأمتار، لم أدعك تحضر، كلا، رجاءً، ليس الأمر غير ضروري أو غير نافع، ولا أريد الكذب والقول، على الأرجح، إنك الأخير، آخر رجل أغرم به. هذا كلام لا يمكن التعويل عليه ومضحك أيضاً. وبما أن ليس لنا ماضٍ فمن المبكر الكلام عن المستقبل الافتراضي. الحاضر هو موضع التصفّح والانتظار. أجل يا بحر، أنت وهو اللذان أرتّب أصولهما

وأحقّق في سحرهما، وأقدّم لهما الترحاب التامّ فأوثّق حياتي للتوّ بهما. بسبب هذا، كنت أريد تغيير مواقع الحجرات والجدران، الشبابيك، الألوان والستائر، الكتب والرفوف والثياب وحاجات لا أقوى على حسابها أو لا ضرورة لها من أية جهة نظرت إليها. السقوف السابقة التي رافقتني وتبادلنا معاً الانتحاب، الإضاءات الخانسة الشحيحة كانت فظيعة، وسببت آلاماً في نظري بسبب غلاء أجور الكهرباء في هذا البلد، وثانياً شيء مخيف أن أراني في دائرة الضوء الشديد. آه، قلت للسيّد أحمد، علينا تفكيك التلاصق السابق بذاك الماضي، الهواء السابق والأشخاص السابقين، الطبعات السابقة والسنين السابقة، توثيق أجزاء قديمة بأخرى أحدث، بالغبار المصفّف بتأنٍّ في صدري وأنفي ورئتيّ فصار عنواني الدائم. حين يقع بصرك عليّ فتروقني حالي وكأنني المرة الأولى التي أُغرم فيها. فلدي ما يكفي أن آتي على ذكره وذكرهم، أولئك الرجال الذين أغرمت ببعضهم، فاكتسبنا على مرّ السنين اللياقة الغرامية، والتخفيف من الشعور العدائي بعضنا تجاه بعض. سألت ليل وأنا لا أعني أيّة كلمة أقولها:

- ارسمي صور رجال مجهولين مشغولين، بأيديهم دائماً حلول للتسلية واللعب معنا، وقلما نصل معهم إلى أربعين أو أقلّ في المئة من السرور. آه، لا تعترضي، أنت آخر من يعترض بعد قصّتك الفجائعية مع حلزونك ذاته. اسمعي، ضعي سحنات للرجال الذين انتكسوا وفروا واختفوا. رجاءً لا نريد استرجاع كل تلك التفاصيل.

يا عيني على ليل، لا تردّ، تصغي وتضحك، ترسم وتتفنن. جنان على العكس، لا ترضى عن شيء، لا عن رجل ولا وطن ولا موديل ولا نظام ولا دولة، تفضّل جنيف موقّتاً لأنها دولة حسب ما تردّد: صناعتها المحلية الحياد، وهذا لا يؤدي إلى علاقة طويلة الأمد مع أيّ شيء فيها أو داخلها.

كل شقّ في البيت يصغي إليّ وأنا أنظر إليه، وأنا أمامه فتتفرّع الشقوق ولا أعود أراها ولا أعرف ماذا سيحدث في ما بعد لها ولي، فكم مرة اختارتني هذه اللحظات لكي أعيد روايتها، أمام هذا الجدار أو وراء هذا الباب، لبضعة أيام خلت أو لعشرات السنين التي تحلّلت، فالبيوت أعضاء أنثوية، لها خفايا وتعرّجات عدة لا تكتشف إلا بالمعاينة واللمس والنظر، وباقي الحواس مجتمعة في كل يوم ولحظة، ونحن ندشّنها ونستعملها، نملّحها ونتبّلها ونشير إلى أجزائها، فنلاحظ صلابتها وليونتها وسيولتها. فعلى طول المسافة الرخوة المهشّمة التي لا تستنفد مع ما أعيده يومياً ولا أجد صدى له، وأنا أحيي هذه الأمتار، وأنقّب فيها عن البيت، السكن، من داخل الحجارة وحول المخلّفات من الموسيقى المعذّبة، والطبخ الذي ينتظر فماً لا يفتح كثيراً، وأسناناً لا تعضّ وتمضغ بلذّة، وزينة المنشدة المركّبة من ممثّلات وفاتنات، منتهكات، خليلات، متكرّرات وطالعات من الكتب غير المقروءة جيداً. كنت أستغرق في كل هذا، وأنا أقف على عتبة القاموس أعيد وأكرر حفظ تلك الكلمة التي أستخرجها للتو، فأتركها على الكرسي وحيدة وأبدأ بالثانية والأخيرة، أكرّرها من داخل الأحشاء، وهذه الشقوق التي لم تختفِ.

تركت لليل أن تأخذ بيدك وتنزّهك بدلًا مني، فالشقّة اليوم يُديرها أحمد وليل، وعبر الهاتف جنان المتطلّبة كثيراً، وآنيتا وهانز اللذان دَعَوا نفسيهما قريباً إلى قصّ الشريط. أتابع واجهة وجهك ووجهي بتاريخ العمارات والمدن، بحماسة السنين التي لا تخطئ في الترهّل والاسترخاء في الجفنين والعينين والخدين و. . . آه، بالضبط يا بحر، أتشكّل أمامك بغض النظر إن حضرت أو غيّرت رأيك كعادتك، فلنقلْ إنني مضيافة من طراز لطيف، أُحسن آداب اللياقة وما تقتضيه من أصول، فالأصحاب سيحضرون يا بحر، السيّد أحمد مدّ رأسه وفي عينيه ابتسامة حيية فدخلتُ وصحتُ وأنا أرى الغرفة الكبيرة:

ـ ياه، أنت الذي جعلتني أغيّر خططي يا سيّد أحمد. عاشت الأيادي، أحسنت، برافو.

وبصوت شبه هامس وحماسي:

ـ الحمد لله رب العالمين، اللّهم أشكرك يا ربّ لأنني وُفقّت معك وكنت عند حسن ظنّ مدام ليل التي شهدت لي عندك.

- ١٠ -

الكائن الانتهازي

أجمل الأوقات لتخيّلك يا راوية، في الظهيرة وأنا أمرّ بجوار نافورة (تيخويلي) وهي تعرض وتقدّم التماثيل المعدنية المُجسّدة لنظرة الفنان السويسري (جان تيخويلي) المجنونة. أقف ولا أعرف ماذا يجب أن أختار منك، فلديك علامات كثيرة تأخذ مني صفحات عدّة حين أحاول استنطاقها. وما إن ابدأ بالعمل حتى أريد الوصول إلى الخميرة الأصلية التي اعترضتني عندما شاهدتك في الرابع من تموز. كنت تتضرّعين بكل قواي وملكاتي لكي تنهض نحوك. فحضرت رائحتك الطبيعية بمؤشّرات لعوب جذّابة، وكتلتك الفيزيائية بدت لي كالرصاص، وارتباكي يتضاعف فقلتُ: ربما بمقدورها أن تحبّني بطريقة أقوى مني، أقوى مما بمقدوري تحمّله، وبحدوده القصوى، ولا يبدو عليها ذلك أيضاً كمِنّةٍ أو تفضّل، هذا ما جعلني أطلب العون منك، ومن باب الكياسة أسمّيه المصلحة، أو المنفعة، هو: وحشتي الدفينة التي كان عليّ مراقبتها وطويلًا لكي لا تشاهديها ونحن معاً. في ما يتعلّق بي، كنت شغوفاً

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

فعلًا بأن أدعك ترين وتلمسين لمس اليد أقلّ أجزائي عتمة، وأكثرها هشاشة، فقط، أن لا تُقال الكلمة الفصل منك ولا مني. ونحن، كل من طرفه، ندوّن أفضل الكلمات، ونصل إلى مواطن القوّة، ونبتعد عن الأخطاء. راوية، شيء طبيعي تماماً أن أفكّر في مصلحتي، فلم يكن لي الوقت الكافي لذلك من قبل. أقول ذلك دون تبجّح ولا فذلكة. فالمرء لا يصبح عاشقاً حقيقياً إلّا إذا كان كائناً انتهازياً تاماً. اسمعي، لا بأس في هذه الصيغة الرسمية لما يسمّى الحبّ. تجاوزي ذكاءك وفطنتك فما أسوأهما ونحن نضعهما في خدمة الحبّ. بوسعي أن أتمنّى مثلًا، لو تخصصين جزءاً كبيراً من وقتك لأجلي، أن تتوقّفي عن السفر والعمل والبحث عن النصوص والمعلومات وصناعة الفديو والندوات، سنة واحدة، ومن أجلي ثانية وثالثة. لماذا كل منّا في مدينة، لماذا نحن **منفصلان ولاثبان وممروران؟** لماذا هذا الغمّ والتعاسة ها؟ كان علينا الوصول إلى حلّ وسط. مقرف هذا الوسط لكني أدوّنه لكي أخبرك أنني لم أعمل أيّ يوم من أجل مصلحتي الخاصة، ولم أحقّق إلّا الفشل. حتى هذه الكرّاسة أكتبها من أجل منفعتك أنت، من أجل الزهو الذي يركبك فتركبين على كتفَيّ وتهرولين بي، فلا أعرف بالضبط ما هو الهدف فعلًا؟ اللقاء، الملاقاة، أن يلمس أحدنا الآخر، حتى المضاجعة الجنسية «بدون حبّ لا يمكنها أبداً أن تسدّ الفجوة بين اثنين من البشر إلّا لحظياً». أقول هذا لك حين فكرت في البحث عن ليزا مجدّداً، فألاحظ أن اندحاري أهم من نجاحي، فلم أحبّ أيّ عمل قمت به مهما كان تافهاً أو ذا مزية. «فلا أنا مهتمّ كثيراً بتاريخ الفكر، ولا أحبّ تحرّك المفاهيم ومراقبة كيفية

انتشارها وتراجعها وانهيارها». الاكتفاء بالامتعاض والسخرية والهزء لم يجعلني يوماً من الرجال العصاة الذين يخلخلون ذواتهم قبل غيرهم. فالثورات التي رافقتني كواحد من هذا الجيل جعلتني أتشبّث فعلًا، كما أطلق عليّ سلوان العبد، بالسائح الشحّاذ المصاب بالكآبة، وليس له أحد يتحسّر عليه. ومطرود من كلية الهندسة من جامعة برايتون العريقة. لا يشغلك السبب فهو غير مهمّ، أعني، لم أملك الجَلد على تلك الدروس المضنية. وحين جرّبت الوقوف على خشبة المسرح، كنت أتصوّر أنني ألبّي رغبة دفينة لديّ بالتفرّد عن القطيع، «على الأقلّ في المجتمعات الغربية، فمعظم الناس غير واعين بحاجتهم إلى التوافق مع الجماعة. إنهم يعيشون في وهم أنهم يتبعون أفكارهم الخاصة ورغباتهم، وأن لديهم نزوعاً فردياً، وأنهم توصلوا إلى آرائهم نتيجةً لتفكيرهم المستقل ـ وأنها مجرّد مصادفة أن تتفق أفكارهم مع أفكار الغالبية». بعد البدء بالعمل، المسرح أو التصوير أو الدراسة والتحضير لها فعلياً، أتظاهر أن لا أحد يعنيه نجاحي، فأبدأ بالهجوم على اسمي الأجنبي ومكان إقامتي، هويّتي وأجزاء نصفي الأوروبي، على جميع أجزاء الكل العربي.

في غرفة الفندق ببرايتون، أنت في حضني، وأنا أتأمّلك وأرقبك، في تلك اللحظات أدركت أن ليس بمقدوري نقلك إليّ. تصوّرت أن المصوّر رالف ألن هو الذي سيلفحك بالنار ويظفر بك، وأن اسمي العربي هو مجرّد بلاغة لغوية تغلي بالعنف والقسوة، وقد عفا عليه الزمن لكن ها هو يعاود ويكهرب جميع من يمسّه. وحال سمعت اسمي بصوتك وبين شفتيك: بحر، امتلأ

مزاجي بالحيتان والكواسج. هل ذاك اسمي أم هذا؟ إلى من ألجأ إذا اقتضت الحاجة، وكيف أصرخ بوجه فلان وفلانة وأنا بين يديها؟ وللمرة الأولى أفطن إلى أنني أمتلك رسماً بمنزلة المدرّعة فوجدت نفسينا وحيدين في غاية الغرابة: خسارة اسمك الأول ومعطى اسمك الآخر. الخسارة تلزمها شجاعة وعنفوان هي أيضاً. أنت تقلّبين تربتك أمامي بهدوء غير عادي، تقبلين نحوي، وأنا أشعر أنني لا أصلك، وبعد مخاطر تلك الحياة التي عشتها من غير عمد، ها أنا أحاول أن تكوني بين يدَيّ، لكن هناءك بي أكثر من الطمأنينة معك.

فتحت عينَيّ على اتّساعهما ونحن نقوم ببضع خطوات، نتحرّك ونتمدّد، نصير بكاملنا في طوع أحدنا، وأول مرة لا أفكر فيك بل في نفسي فقط. أفكّر في هذا الذي أعثر عليه لديك ويسيل له لعابي وتقدرين على ضبطه على مقاسك فألحق بك من مدينة إلى أخرى. أغادر بدافع تلك ـ المنفعة ـ التي تحتوي على جميع الألغاز الهائلة للمخلوق البشري. أظنّ أني كنت أحاول الإنصات إلى ما كان يجول بيننا وكان، ربما، مشتركاً أيضاً بين عموم الناس؛ كنت سهل الانقياد لك، وأنت لم تتراجعي، بالتأكيد الأمر له علاقة بالجنس وليس بوسعنا التراجع، ولماذا. لكن، ليس هذا هو تماماً، ولا هو شيئاً واحداً علينا إنجازه، شيئاً لا علاقة له بمرتبة يتقدّم فيها الرجل والمرأة من البداية إلى النهاية، وبنحو فوري، وكل ما قيل ويقال وما تحقّق لي ولك، ما تنافر وانفجر الخ. فلأقل لك بدون مواربة: لم أرغب في مضاجعتك فقط، وجميع تلك الذبذبات بالطبع وبسهولة تتنبأ بسيرورة: النوم معك. أنتِ قلتِ ذلك بصوت لطيف ورائق وحنون جداً وبكلمات فصيحة

جداً: ننام وبالجمع. بهذه الطبيعية أو البديهية، بلا مزية ولا مفرقعات. كان هناك رجل لا يدعى بحر ولا رالف، هو مجموعة بقايا الفوات، الشخ والضجر. النوم معك ليس هو المأمول الوحيد، أن تكوني بحوزتي، هو باختصار مصلحتي، ولو شعرت بذلك بصورة سوقية جداً، وللأمانة هذا صحيح أيضاً. كنت حرّة من رؤوس أصابعك إلى قلبي، ومصلحتي أنا، هي الحلّ. حين أمر ما بينك وبيني، يبدو لي الجنس، أو ذاك الذي كنت أفضّله في تلك اللحظة: الشعور باحتوائك في رأسي أكثر مما أنت بين ذراعَيّ، المرور ما بين الرأس والأسماء والأنظار وعلامات الاستفهام، فأدرك أنني لا أحتاج إلى كل هذه الأعضاء: الأيدي والأقدام، الأوراك والسيقان، الأكتاف والعيون، وأنت لست على حدة من وحدتي ووحدتك، فأنقلك من النصف الهندسي، الفوتوغرافي، جسمي وما تأمرينه، إلى النصف السياسي فأستبيك وأنا ألثمك: الحقبة الحاسمة فيّ. فتبوسينني من إبهامي وسبابتي، من المفردات التي لا تحضر لحلقي ويدي، ونحن يتعلّم بعضنا بأجساد بعض. فهل كانت جميع تلك اللقاءات الخاطفة العجولة والفوضوية ما بين تلك المدن، مجرّد دورات تدريبية للاقتراب من الزرّ الأعلى لقميصك فقط، من اللحظة العابرة التي ما إن أفكر فيك حتى يصفو ذهني... فهل كنت تنامين مع رجل آخر وأنت لا تردّين على هاتفي في يوم ويوم ويوم... ذاك النوم مع غيري يشبه البطر والبخل.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الفشل الذريع

ـ هيا درّب يديك الاثنتين على ظهري. مدّ يديك بعيداً واضغط بهما على جميع الفقرات. هل تعرف المساج ها؟ أريدك أن تتمهّل بأكثر مما بمقدورك بطئاً وهدوءاً. كلّا، ليس من فوق الشال والثوب، أزحهما قليلًا وجُسّ كل المسام والخلايا، هيّا رجاءً.

خيّل إليّ أنني أراها كليّة من خلال لحمها وجلدها. بصراحة، أعجبتني هذه الطريقة والوضعية في الإغراء، أمّا تصرّفي فقد جاء متكلّفاً، أعني جدّياً:

ـ هه، ماذا، إلى أين ذهبت؟ لا أريد الإثارة، دعها في ما بعد. الآن ركّز على المساج الطبيعي، فأول ما صافحتني وشاهدت يدك بأصابعها الرشيقة الطويلة المشعرة والخشنة وأنا أتحيّن الفرصة.

المصباح بجوار رأسك مضاء في غرفة الفندق ببرايتون وأنا أريد أن أضمّك حالًا وأنت بين نظري ويدي وأنفاسي على بضع خطوات من وضعي المحيّر. أرغب لو تمضي يدي على كل نحو وفي كل اتّجاه لكي تنال الترحاب المطلوب، وكثيراً ما أتوقّف حتى

عن التنفّس، وأنا غير متأكّد مما أشاهده. تماماً، لم تكن بيننا مطاردة ما، ولو أنها أمر حيويّ جداً فيما لو حصلت، وأنت تئنين بلطف تحت لمس يدي وأصابعي:

ـ بعد كل حفلة أقوم بهذا حتى أرتخي ويكون بمقدوري النوم، و...

انتظرت إضافة ما، أيّ كلمة، من يكون برفقتك؟ أيّ سؤال كان لا جدوى منه، فنحن لا يعرف أحدنا الآخر. تضيق نفسي عليّ، وأريد التخفّي عنها وحالًا، وارتباكي يتضاعف. الظهر والكتفان والوقت لم يخلق إلّا لها حين تكون مطواعة ليّنة طريّة. لحمك يعطيني معلومات صريحة ولطيفة وربما دقيقة عنك، فأتعرّف على دوافع يدي وهي تمنحني امتيازات على بدنك اليقظ أكثر مما يجب أو ما يصرّح به. حسناً كنتِ في تلك الوضعية لكي لا تريني بأحوالي المتقلّبة. إذاً ستغادرين غداً مساءً إلى باريس. نعم، لم أقترح تأجيل الرحلة، ولا أنت أيضاً. أراقب ظهرك وأسألك بصوت ضعيف:

ـ أيّ ساعة و...

تحتفظين بطاقة التحكّم ومظهر الحفاوة بي وبأصابعي وأنفاسي، وأنا، تصوّري، أريد ترخيصاً تعطينني إيّاه ولو للتنفّس فقط. أتقدّم على بدنك، وأريد أن أخدمه، أتعلّم تعدّده واستغناءه، كيف يكتمل بعيداً عن يدي وعنّي، يغيب فلا أستطيع أن أضيف إليه نفسي، ويحضر وليس بوسعي أن أحلّ فيه، وأنا أضغط على أول

الكتف فأرى طبعة أصابعي لكني لا أعرف إلى أين أتّجه إذا ما اختلّ توازني وانحرفت يدي ولم تتوقّف عند... أريد أن أرى أثري فيك، في لحمك وبدنك، هذا أوّل درس لي يا راوية أفسحتِ فيه المجال لكي أشاهد اتّساعك فأقلق، أريد أن أجرفك في طريقي إليك فأراك تنتحبين بين ذراعي فآخذك إلي صدري، وفي الحقيقة، أريدك أن تصرخي بوجهي، تولولي من بين الدموع:

ـ هيّا ماذا تنتظر؟ قلْ لي ابقي، ها، لماذا لا تقول ذلك بصوت عالٍ... هه. يوماً آخر، يومين، لمَ العجلة؟

لكن، صمتك يمتد وأنينك ويدي، للحظة، كنت أريد أن أؤذيك، أحيل ظهرك كله إلى عضّ ونهش وأضع علاماتي عليه.

نعم، كنت أغار. بدأت أغار. ماذا تتصوّرين، من قتل أبي؟ الغيرة التي كانت تحضر بلا انقطاع في غير مكانها وأوقاتها، وفقط لكي يحصل بسببها على لقبه الملوكي: الغيور النادر، الموهوب والخبير بجميع أنواع الغيرة. الأمّ الأرستقراطية التي تتقن رياضة الصيد، أظنّ أنا أكثر سخاءً في الغيرة من والدي. أريد أن أطرح عليك عشرة آلاف سؤال، ألوب ولا أتعب لكني لا أتفوّه بكلمة. أنا لا أعرف أيّ شيء عنك فماذا سأفعل في الأيام المقبلة؟ كيف أجعل وجودك أكثر من مجرّد احتمال؟ ومن بمقدوره كبحي؟ منذ غادرتِ في السادس من تموز في عام ألفين وخمسة، وأنا لم أردّ على سلوان بالموافقة ولا بالرفض، فأعاود ترتيب الشقّة اللطيفة، شقّة والدتي في أيام دراستها الأولى هنا ببرايتون، أُدخلك إليها

قسراً ولو بعد عدّة صفحات وعن طريق الكلمات. فكلما آخذك معي إلى حيث أكون، في بازل، في بيت آنيتا، في برايتون وأمام الشاطئ، أصل إلى أفكار لا أفهمها، وأخشى الإفصاح عنها أمام آنيتا بالذات، فهي أقرب إليّ من هانز، فأنت دون أن تعلمي، ربما تحطمين تواصلي الذكوري مع النساء الأخريات، حاولت ذلك مرّات لكني لم أستمرّ، ولا واصلت البحث عن رفيقات قديمات، فيزداد لساني مرارة، وكبدي انتفاخاً ورائحتي ملوحةً، وهذا يصنع لي صورة مغايرة عني وعن ذاتي أكثر مما أريد الوصول إليه من دونك. كنت أزيحك جانباً عن ضمير المخاطب وأركن إلى ضمير الغائب، فأنت تغيبين أكثر مما يستحثّه الغياب فيبدو الأمر كأنك متفرّغة له، تروّضين روحك عليه فيغدو سهلًا عليك ودون تدابير شاقّة، فأبدو أمام راوية كما تريد هي، لكني أحاول القفز على بعض المنغّصات لكي لا أصل إلى الفشل الذريع، وهي امرأة جذّابة قويّة فتيّة على الرغم من أننا ربما في عمرين متقاربين، لكن هذا غير مهمّ كما تقول، المهمّ يا راوية ما هو من فضلك؟

ـ فن العلاقة ذاتها.

فأنتعش وأنا أتصوّر في كل سفرة دون علمك إلى باريس وغيرها، أنني أكون قريباً من خضم نفسك وقلبك. لم ألتفت إلى كلام آنيتا وهانز قطّ. عملت العكس تماماً، فكنت أشعر أنني بشع وأنا أقوم بجميع هذه الانتقالات من مكان إلى آخر، إلى حيث تقيمين حفلاتك، في أمستردام وهامبورغ، مدينة أمّي وحافظة

شاهدتها، لبازل ثانية ولمدينة آفنيون في جنوب فرنسا. مختبئاً بعيداً مراقباً محموماً، ولا شيء يعيد إليّ صوابي حتى لو غفرت لي كل هذا. فلديّ ملفّات فارغة، وقوائم عليّ ضبطها، وتخزين المعلومات داخلها، أنا الذي بوّبتها وسطّرتها، وجهدت كثيراً في ابتداع أسبابها؛ الابتلاء بك. وأنت مهندمة، عطرك هادئ، لا يكاد ينزوي في مكان ما من بدنك، ربما في أسفل قدمك. تربحين مالًا معقولًا. آنيتا تقول لا تكفيك تلك المبالغ، فمعظم الحفلات كانت تطوّعية من أجل أشياء لا أفهم فيها تماماً، تسمّيه ذاك البلد البعيد الذي يتبدّد إلخ... لا أدري ماذا يعلق بأذيالنا، ونحن نعيش وننتظر ونتعثّر ولا نتأكّد من أيّ شيء، فهذه الكائنة تغنّي وتسافر وتعمل وتتحرّك، وربما لديها عشّاق ما بين طلّبتها أو الأساتذة الذين يلتقونها في المؤتمرات. هي التي أخذتني من يدي وسارت بي إلى الشارع العام دون أن يتطلّب ذلك الأمر أيّ مجهود يذكر وعلانية. ولم تنتظر حتى رؤية أصحاب البيت لتقول لهم كيت وكذا... استغربت وأنا أشعر أنني أغويتك مثلًا، أنا المرغوب فيه، إذاً، أنا المقصود بذاته إلخ... راوية، اسمعي لا أحبّ جميع الضمانات الشخصية والجنسية، أنا لست مضموناً، ولا أفضّل الرهان على قدراتي وأجهزتي، ومناعاتي وغددي. بلى، أنا رجل سويّ، أعني، رجل عادي لا أقدر على تحسين شروطي أمامك أو إجراء تعديلات على هذه المسوّدة من أجل فتنتك وجاذبيتك، من أجل أن ترضي عنّي، طز. قابليتي الجنسية معقولة متكافئة، لكن

نظام قلبي هو الذي يركّز توتّري ودوافعي وتجديد سائلي المنوي. رجاءً، تساهلي مع هذه اللغة الفجّة، فأنا أرفض نجاحك مع غيري.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الرجل التالي

مؤكّد أنني اشتهيتك. وهذا الأمر استغرق ثواني ثم تراجع فعدتُ إلى الخطوة الأولى. هل تعلمين ماذا كنت أفعل في تلك الرحلات، ووراءك؟ سوف تعيّنيني مديراً عاماً للتهريج والعبط وأنا أقدّم تقريري هذا. كل مرة أحاول وأفشل فأعود إلى نقطة الصفر. وأحسب أن للأصفار صوتاً مسموعاً جداً، فألمح على شفتيك ابتسامة ساخرة وأنت تتصفّحين هذه الأوراق. شاهديني إذاً، شاهدي عرضي المغري وأنا أنتقل من وضعية إلى أخرى. هذا يحمّسني. أتشوّه أمامك فلا تكشفيني. كنت أجري عمليات تشويه خارقة للعادة فأبدو أحدب قميئاً ومختلّاً. وقفت أمامك في مدينة آفنيون وطلبت توقيعاً على الأفيش الذي يحمل صورتك وسط صور الفنانين والراقصين والممثّلين. وقفت ولم تنظري في وجهي قط. كان شعري مصبوغاً بالأحمر الذهبي، ووجهي ينمّ عن تعابير قاسية. كنت أمثّل دوري المشوّش المقلق، وما كان لديّ الكثير لأرويه لك. فأنتقل ما بينك وبين هذا الحذف التامّ الذي قمت به، وكانت حريّتي هائلة وأنا أبدو اصطناعياً، مصنوعاً مستبدلاً.

فأتصرّف بمنطق هذا الحافز أن أعرض عليك هذا الجمال الفاسد، جمالي وأنا أحتال فيه عليّ وعليك. العينان ضاقتا قليلاً وبدأت الرموش تهتزّ بصورة عصبيّة، وجسدي يقتحم المكان ويعرض روحه للشارع، والناس من حولنا كأنهم أمام عرض آخر لا علاقة له بمسرح آفنيون الرسمي. كنت أستطيع أن أبعد عنك نفسي وجسمي، وما أرغب أن أبعده عنك وأقرّبه منك. هذه الأنواع من الرعونة الهوجاء كنت أفضّلها. أضع على كتفي معطفاً روسياً عتيقاً طويلاً فضفاضاً جداً مقفلاً في الصدر، ومفتوحاً إلى الذيل. وهو بلا أردان. اخترته من أحد الزملاء في مسرح برايتون. فكنت أبدو وأنا في داخله دزينة من المخلوقات. حسناً، فعلت هذا أمام إيفا، طبيبتي النفسيّة. في كل زيارة لها كنت أبدو زمرة من المخلوقات والهيئات. هناك تدرّبت من أجل التهكّم والفكاهة، أمّا معك، في تلك المواقف، فقد كانت هذه طريقتي في المداعبات الغراميّة. كنت أريد الوصول إلى درجة مرتفعة في الإتقان. فكّرت لو ندخل المنافسة معاً دون علم أحدنا بالآخر. لعوب أنا وأنت أيضاً. كنت ناجحاً أمامك بنسبة ثمانين في المئة، وأمام إيفا ينزل الرقم إلى ستين. وبدأت أكتسب معجبين جدداً من جرّاء هذه الألعاب. بالطبع كانت لها حسنات وسيئات، فجميع ما حاولت القيام به هو الاقتراب منك. بالطبع، في الشبكة الالكترونية لا أنظر إليك ولا إلى صورك خلسة، وها أنا أكون أمامك في المدن الجديدة الجميلة فأستغرق في تأمّلك وأنا أحمل بيدي مراوح من القشّ، وكيساً قديماً جداً، وتفوح مني رائحة قديمة لا تشبه رائحة

سلوان الكريهة. اللطيف في هذه الأدوار أو الألعاب، أنها الوحيدة التي لم تكن أكاذيب. أمامك في الشارع وبتلك الأزياء الطافحة باللامبالاة والسخرية، لكني كنت أردّد بصوت غير مسموع:

ـ أريد أحداً قوياً بجواري ليساعدني في حبّك، فأنا لا أستطيع عمل ذلك بمفردي.

آنيتا وهانز لم يقدّما يد المساعدة قط، فأنفجر في وجهك، وعلى هذه الصفحات:

ـ سأردّ عليك بقوّة، بشدّة، بعنف. سأردّ ولكن...

أنت في مكان غير محدّد بالضبط. أراك تبصمين بفحم احترق نصفه وتضعين توقيعك على معطفي من الخلف، وأنا أهتزّ ضاحكاً لفكرة تراودني أن ألتفت حالاً وآخذك بين ذراعيّ. آنيتا تقول حين أهاتفها من الشارع العام:

ـ راوية تعمل بهدوء وتنتقل من مكان إلى آخر مع بعض الأصحاب. هي لا تشرح ولا تفسّر، حالما أرفع الهاتف أسمع صوت غنائها، ولدقائق، ودون أيّة زيادة تسكت وتختفي. و...

هل تعلمين يا راوية أنني سجّلت جميع ما تفوّهتُ به من رسائل صوتيّة. أضع فمي في السمّاعة ويدي على جهاز التسجيل فأبدو أبله معتوهاً وآلة التسجيل بحجم كفّ اليد، أرى الشريط يسير وأنا وراءه ألهث. أقوم بأدوار شتّى: المخترع الخيالي، المراهق الرسمي، المغرم المعقّد المهمل كثيراً. آنيتا دائماً تهوّن الأمور فتقول:

ـ ربما، راوية تعتقد أن ما تفعله هي يصبّ في مصلحتك. ألم

تردّد على مسامعنا أنا وهانز: أن عليك تمرير الخطط حولها وعليها، والحبّ واحدة من أهمّ الخطط. إذاً، أنت تفعل ذلك من أجلك أنت لا من أجلها.

وحين يرسل إليّ سلوان العبد تقاريره من المركز الاستراتيجي عن عمليات الانفكاك العملاقة التي تقوم في بعض البلدان، هكذا للاطلاع، أفكر في استثمار هذه التقارير والجمل في العلاقة الغرامية، هه ما رأيك؟

هذا المرض، الكتابة، أكتب إليك، فأبغض ما أقوم به يوماً بعد يوم. أبغض هذا الحلّ الذي صوّره عقلك اللئيم أنك ستكونين موجودة فيّ أكثر، وأنا ألاحقك بين سطر وسطر، من هذه الصفحة إلى ذاك الهامش. يا إلهي، كم أستهجن طرقك الماكرة الملتوية وأنت تصرّين على أن أسير بمحاذاتك. من قال لك إنني أبغي انتشالي مما أنا فيه؟ من أخبرك هذه النكتة السمجة؟ فلدي قدرة طبيعية على أن لا أمتلئ أبداً، وهذا يرهقني أكثر مما في قدرتي تحمّله. الحبّ من ناحية يجعلني لا أبدو على سجيّتي، فأزداد خواءً ثانية بعد ثانية وأفقد مزاياي الخاصة وهي قليلة، وأحياناً لا تُرى بالعين المجرّدة لكنها مزايا تخصّني وحدي. وها أنا أشعر بأنك تقومين بالفتك والعبث كما تشائين لكي لا يبقى أيّ شيء مني، فأصير الرجل التالي، والتالي الذي يريد أن يجرّب الآخرون الحبّ بدلاً منه.

- ١١ -

من أدّ إيه كنا هنا

- كل ما تهبينه لي أشكر الآلهة عليه.

لثانية تصوّرتك السيد أحمد الذي يكثر من الأدعية والصلوات لكي يبلّغ صوته إلى صاحب الزمان، وصوتك يا بحر، لماذا توقّفت ولم تعد تحادثني؟ بدأت أوجاع ظهري ثانيةً وأنا أتنقّل بين الأمتار، فالشقّة ليس فيها ما يسمّى الصالون ولا غرفة طعام، بالكاد أشير إلى اختصاص كل شبر ببضع كلمات كما هو الجسم البشري. أسعل وأعطس وتبدو أسناني متفارقة من الأمام، تماماً، وقد تفارقت بعضها عن بعض على طول السنين دون أن أتمكّن من تثبيت التهمة على أحد.

ليل في الحمّام تدندن أغنية عبد الوهاب: «من أدّ إيه كنا هنا». والسيد أحمد لولا الحياء الخفيض الصوت لشاركها في الغناء. وأنا، ينبغي أن أجد مخرجاً، إلى هنا وكفى. فالمكان هذا لم يتملّص أحدنا من الآخر، ما رافقنا بصورة مستديمة فأرى ملامحي في نزواته، وتقاطيعي في تفاصيله. وما إن أبصر وجهي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

في المرآة فأدهش لهذا الذي يسمّى طبق الأصل في الأطوار والاستعمالات، حتى وصلنا معاً إلى هذا الاستغراق والنفور في ما بيننا. كما هي الجاذبية الجنسية تحمل شيئاً من العدائية في توابعها وتبعاتها، هكذا أنا وهذا المكان، هو ليس البيت، الشقّة، الأمتار، الحيّ، نبرة الصوت، والكلام الذي لا يفهم في كثير من الأحيان، هو خطّ الجلبة والحماسة والانفعال. وأنا أعرض عليه جميع النواقص، نواقصنا: طبقات جلدي التي تموت أمام عينَيّ فتجتمد أمامي تآكل ما حولي وبالتساوي: المحكيات، المؤشرات، الأشخاص، الأشياء، السنوات واللغات. ألا تفكّر يا بحر أن اللغات مثيرات عاطفية وأغلب الأحيان تجاوب يتطلّب مجهوداً خطيراً، يرعب بعضنا، وأنا منهم. فأسمع في الخارج صراخ الأطفال وبكاءهم في الحديقة المجاورة، والأغاني في المناسبات الاحتفالية في يوم الرابع عشر من تموز للجمهورية الفرنسية، أصوات الناس والجيران الذين يظلّون بجوار شقّتي وهم يتحدّثون طويلًا، أحاديث في غاية الرتابة، بلا ترتيب، عادية وخالية من الودّ، ولم أتحقّق من سحرها ولو لمرة واحدة، ربما، هذه وحدها، هي حجّة الوجود البشري.

ليل لا تتعب، أسمعها تسخر وهي ترسم وتحفر جزئيات وأوضاع الحلزون، وحين شاهدته كان شبه حزّ وسوف يقع من على الجدار بين يدي:

ـ ها إلى أين وصلت؟

ـ لذاك الرجل، محبوبي الجبان، الضعيف والمخاتل، الحلزون أكثر منه نبلًا.

كانت تأخذ السكين وتشتغل به، هي تفضّل الرسم بهذه الآلة:

ـ واللّه أحياناً أريد تقطيعه إرباً إرباً، فالحبّ الخائب يجعلنا نفكّر في كل أنواع الانتقام، في الألوان والآلات. غنّي يا راوية، لماذا لم تعودي تنشدين كالسابق؟ لا أعني توقّف الحفلات في الوقت الحاضر من أجل القيام بهذه الاصلاحات، لكن صوتك كان يصدح حتى في الطرقات ونحن نذهب معاً للسينما أو المعارض، هه ماذا أصابك؟

صوتي يحكي حياته المبكرة، السابقة، يتّسع وينكمش ما بين جنازة وفكاهة، لا يستبعد مدناً تُباد أو طريقة في اللثم لا سابقة لها، فأجمع كل هذا في حلقي وأنا على وشك الصراخ، فأخبر جنان:

ـ هه، ما هذا الذي يجري في رأيك؟

لا ينفد صبرها معي، فتتصل أكثر من مرة في اليوم قائلة بصوت حازم:

ـ نحن مدعوون إلى إعادة رسم أنفسنا مجدّداً. كيف نكون عدداً لا يستهان به من الأشخاص والكائنات. بحر مثلك ينتسب إلى ذاته، لا أقرباء ولا عائلة، لا صداقات متعدّدة، أو صداقات مهنة واحدة، وهكذا، لا يقترب أحدكما من الآخر إلى حدّ الذوبان.

هانز بعد سماع حفلتي الأولى في مدينة بازل في عام ٢٠٠٢، وقف أمامي وأمسكني من كتفي، نظر في عينَيّ، وأنا بدأت بخفض رأسي، صار وجهي قانياً ورموشي تهتزّ وأنا أختضّ:

- يا راوية سامحيني، شعرت أنك تقومين بمصاهرة بين الخراب والمحو ثم التفاخر به، أكرّر اعتذاري.

- «حين أندسّ كفقير بين الفقراء لا تبدو الشفقة مفتعلة أو أدبية».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أسرار الحيطان

أوّل ما قابلت السيّد أحمد المصري تصوّرته سائق شاحنة. ذكرت له ذلك فضحك وأجاب بصوت شديد الفرح:

- تبارك اللّه عليك يا مدام. هذا صحيح. عملت ما بين ليبيا ومصر لسنوات، فسرقتُ ونهبتُ في الفريقين فتأخّر زواجي. أوّل عمل دشّنته في حياتي قيادة تلك الشاحنة ونحن ننقل الإسمنت وأدوات البناء...

حين بدأ الشغل في هذه الشقّة توصّل إلى حلول في غاية اللطافة والذكاء، فسرعان ما كان يظهر أمامي رجلًا واضحاً وواقعياً لا يترك أيّ شيء للمصادفة. يحاول بطرق واضحة ولجوجة إصلاح الأمور التالفة: الحنفيّات وجلداتها، مجاري التواليت والمطبخ، التي تتوقّف وتعود بفضل يده، تعبئة الشقوق التي تضاعفت وازدادت اتّساعاً لأرضيّة الخشب وبطرق في غاية الإتقان وبكلفة مناسبة. كان يفحص كل زاوية كما تقتضي النزاهة، فيقف بغتة، كأنه أمام مجموعة من الأسرار تُركت هنا في رعاية البارئ كما يسمّي الله، لكي يحضر شخص ما، هو أو أنا، شخص واحد

فقط، ربما أنت يا بحر، يحضر إلى هذا المكان في أحد الأيام، بعد سنة، أو سنين أو عقود، ويفتح العدسة ويعيّن موضع السرّ الذي رقد طويلاً. السيّد أحمد كان يشاركني في عموم هذه الإيماءات التي أتفوّه بها عرضاً، وأنا أمرّ بجواره في طريقي إلى غرفة النوم، ونحن ما زلنا في البداية فقط. كان يرى على الأرجح من خلال طريقته في الإيمان والورع. فيتحدّث بحزم وخشية من الخالق، وذعر من الأمكنة التي لا يفهمها. أول مرّة أسمع هذا النعت: المكان غير مفهوم. فبدا مستعداً للنقاش في المسائل التي يؤمن بها فقط، ولامبالياً بتصوّراتي وشكوكي، يصغي بأدب ولا ينبس بحرف. لكن حين يتكلّم يغمّ صوته كما كانت أمّي تفعل وهي تردّد ونحن على وشك الوداع النهائي:

ـ اسمعي راوية خاتون، هذه الحيطان سمعتنا كل يوم، سمعتنا وقرّرت وحدها أن تحجب كلامنا عن الغير، أي، صارت بيننا عِشرة، لكن المسافة كبرت وتورّم القلب بيني وبين ذاك الرجل، تمام، كل العراك بيننا كان مثل أفلام فريد الأطرش وفاتن حمامة، ذاك أبوك يظلّ ينوح بباب الحوش وما أرضى أفتح له الباب، وآني يومياً أسلّم على مرض جديد، الأمراض تعرف أوادمها زين أحسن منا البشر، فتحضر وتقيم، وتطوّل هواية، ولا تفارقنا مثلك، هي أرحم منك. بنتي، هذه الحيطان كامشة أسرارنا وأرواحنا وعمرنا، أي، همه تسافرين وتبقين تسمعين أصواتنا تطنّ بأذنك حتى تموتين وحدك مثلي ومثل أبوك.

فقه الغرام

شرعت في الغناء بعد ذهاب ليل وأحمد، وأنا أدخل الحمّام وأشاهد تخمة من الهناءة حولي:

«سوف أتماسك لأجلك، سوف أتشبّث بك،

هكذا سوف أحمي محبوبي،

لأجل وسامتك، أنا أبحث عنك،

أنا عطشانة لأجل حبّك».

كانت حياة البانيو تملأ رأسي فأبدأ بغسله وشطفه. أضع المواد المطهّرة وأبدأ بالفرك. وضعتك جانباً يا بحر، كلّك وأجزاءك، وقلت لك وأنا أدندن: سوف أعود إليك لاحقاً وأحيط بك من كل جانب. كن جاهزاً لي، فكل شيء فيك صالح للتذوّق. آنيتا ذكرت عرضاً أنك متاح أجساد ووجوه وحالات وخطوات، مدن وجثث ومقابر، لكني أكتشف مفاتنك شيئاً فشيئاً، حين تكشف هذه الأمتار والأرضية عن شيء من جماليّات الأضداد في الزوايا المتعرّجة، والخطوط التي حاولت أنا وليل وأحمد جعلها مستقيمة ولا ندري لماذا. لا أحد منا سأل لماذا يجب أن

يكون هذا الخطّ مستقيماً، هل لكي يكون جديراً بالمغامرة والانحراف عنه، وعدم التنبؤ بما سيحدث في ما بعد؟

أريد أن تضحك للتوّ يا بحر، رجاءً، لكثرة الإضافات التي أجريناها وما زالت تنتظر المزيد من التوابع. فجأة، نزعت عنك جميع ثيابك، فهذا هو المكان الذي عليّ، وحدي، أن أرقب فيه جاذبيتك. خاطبتك بصوت مسموع:

ـ لا تصلح موديلًا لأفلام البورنو يا بحر فأنت خجول جداً.

ألمسك وأشرع في شمّك. رائحة عرقك معلّقة في أطراف شُعيرات إبطك، التي صار نصفها أبيض لكنك ما زلت قوياً. آه، لا تسرف في عصبيّتك تماماً، تخفيها وتبدّدها داخل حالة سكوتك، وها أنا أعيد ترتيب كل شيء يخطر ببالك. فأحاول التعرّف إليك من جديد وأنت وسط هذه الفوضى. ألا ترى معي، ليل قامت بعمل جميل حقّاً. لم تكتف بتخيّل الحلزون كما هو، لكنها تركت في عينيه طبقة من دموع بقيت واقفة على مشارف الحائط. كان هذا الأمر يدفع بي إلى حزن شديد، وأنا أتصوّر أن هذا الحلزون بالذات يطلب منّا جميعاً شيئاً من الرأفة والحنان.

بدت ليل تتبارى معي في رصد حيثيّات هذه الكائنات وهي ترسم، وتضع الألوان الشاحبة كما أراها أمامي:

ـ لست وحدك يا مدام من يعرف الحلازين، أنا أيضاً بحثت ودوّنت معلومات وحفظت عيّنات عنه وحوله، وكلما قرأت شيئاً ما تصوّرت أنني أتعرّف على خصال بعض الرجال الذين مرّوا في حياتنا، كما ذاك الحبيب السابق أو الصديق الحالي. غريب جمال

الحلزون يشبه النوتة الموسيقية، أعني «الصَدَفة»، فهذا الجزء من كينونة الحلازين هو في الوقت عينه عمل فني، أثر تذكاري يدوم طويلًا من بعدها». وهكذا ترين فأنا لا أرسم الحلزون ولا القوقعة تماماً، إنني فقط أضعهما أمامنا في الحمام بدلًا من الغابة.

كنت على وشك البكاء وأنا محاطة بكل هذه الحلازين والرجال والوجوه والقامات، الزهور والأغصان المورقة النازلة إلى آخر سنتم في جدار الحمّام. كانوا يبدون وهم يعملون في دوريّات للحراسة، وفي حالة تأهّب لصدّ أيّ عدوان يلاحق من يدخل الحمّام. مهرّجون عاطفيّون متلألئون لامبالون إنْ هم أطالوا الإقامة في مكان واحد. لم أتحادث أنا وليل وجنان وآنيتا عن سقوف الحبّ، فأتصوّر أن هذا الحديث يحدث فرقعة كبيرة في أثناء النقل والشرح، وإعادة الاستخدام في كتابات الأدباء والشعراء والباحثين وهي تعيد وتكرّر وتترجم تلك الدرجات، وكيف توزّعت الكلمات وتشبّث بها بعضهم بصورة صارمة، فبدا البعض يتصرّف بحماقة وخبل وهو يسعى إلى المرور التامّ بكلّ تلك الدرجات التي لخّص بعضها شيخنا الجليل الجاحظ: «والعشق داء لا يُملك دفعه، داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة، كما ينال الروح الضعف في البطش، والوهن في المرء ينهكه. فالعشق يتركّب من الحب والهوى، والمشاكلة **والإلف**، إلا أن هذا كله «لا يسمّى عشقاً» بل هو «ابتداء العشق» ثم قد يجتمع الحبّ والهوى ولا يسمّيان عشقاً ولكن إذا أضيف إلى الحب والهوى والمشاكلة، أعني مشاكلة الطبيعة.. صار عشقاً». كنت أعرض تلك الدرجات

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بإيقاع سيّئ وأنا أشاهد محبوبي السابق، ويعلم اللّه أين أصبح وصار اليوم. لكنّ، ثمة خيط ما زال يربطني بذاك الرجل الذي أتصوّر أنه ما انفكّ ينتظر بتفانٍ في الخزانة. تركته واقفاً فترةً طويلة وتحتّم عليّ أن أدعوه إلى الجلوس بين جميع مقتنيات الأنثى وباقي الكائنات من الإخوة اللطفاء. لا أحسب نفسي معنية كثيراً بإحصاء علامات العشق والوجد، ليس بصوت مسموع، وليس همساً، هي مبالغات العرب التي لا توصف، فقد كانوا يملكون الوقت الكافي لترتيب تلك الفوارق والمعاينات التي يصعب إدراك حدّها، ولو بفاصل قصير بين درجة الهوى ودرجة العلاقة التي تفتح هامشاً للعب حول أساليب التعلّق والمتعلّقات، الواقعة والوقيعة. الوالدة تحاصرني يا بحر في تنغيصها عليّ هذه المتعة، فأظنّ أنها كانت تنتقل من غرض النكد اليومي إلى الشكّ على أصوله، والعبوس بجميع درجاته، والهجر في المضاجع بسهولة ولامبالاة بوالدي، والإسراف في إنفاق ما يحصل عليه من دخل، والغيرة من وسامته الشديدة. هذه هي الفضائل والدرجات التي كانت تتضمّنها حياتي هناك. هي معدّلات غرام الوالدة بالوالد، فأنا أدري أنها هائمة به، هكذا هي مكابداتنا، درجات إغوائنا وشططنا في ذلك المكان والبيت والمدينة. يا عيني على أبي، تحوّل إلى فحمة. هل تسمعني يا بحر، تدبّر أمرك بهدوء ولا تتنكّر للالتياع بي، وها أنا أراك مصاباً باليرقان وفقر الدم، تزداد نحولاً ولونك يصفرّ وتعاني خداع الذكر على نحو كاريكاتوري. ضجرت من هذا الإفراط في البلبلة العشقية: الجوى، التّيم، التدلّه، الغرام، الولع، والتلع، ما

هذا، لا أريد من أية درجة أن تباركني وتستطيع أن تختصرني، ولا أن تحصل لي معك أو مع غيرك. أمر مزعج هذا، فأنا فعلاً أفكّر بامتياز كل درجة، فأرجو منك ألّا تتصوّر هذا الأمر نوعاً من الخبث الغرامي، فلا منافسة في ما بيننا في هذا الشأن، ولا حتى هذه المقولة دقيقة أيضاً: «إن من يموت من فرط الحبّ، يصنع ما يليق به، فليس ثمة أمر مستحسن في الحبّ ما خلا الموت». حين أعيد سماع رسائلك، إحداها بالضبط، أكرّرها، وأنت لا تذكّر إلّا هذه العبارة: «راوية المتحجّرة القلب». فأقهقه بصوت عالٍ.

آنيتا أخبرتني قبل أيام، بأنك غادرت إلى بازل ومن ثم إلى لوزان لحضور معرض للفنان أدولف فولفي (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠)، والتعرّف على حياة هذا الفنان الذي عُدَّ رمزاً للفن الغريزي. فهو «فقد أمّه وهو صغير جداً فاضطرّ إلى العيش مع والده المدمن الخمر. كانت مراهقته متميّزة بالتعرّض للضرب والحبّ المرفوض وهتك حرمة بعض الصبايا. في الثلاثين أدخل مستشفى (فالداو) للأمراض النفسية حتى وفاته»، أضافت آنيتا قائلة بصوت خفيض جداً:

ـ راوية، والد رالف ما زال حيّاً في المصحّ النفسي في برايتون، وهو ظلّ يعيش في تلك المدينة من أجله.

هكذا إذاً، دمدمت مع نفسي وأنا أكاد أنفلق من الألم. هي رحلاتك لأراضٍ متحجّرة. سجّلت هذا في الكرّاسة ذات الجلد الأسود السميك الموجودة بجوار رأسي. وقفت في الممرّ وأنا أئن من التعب. بدأت قواي تخور والحمّام صار شيئاً آخر، يذكّرني هو

أيضاً بالفن الغريزي. عدت إلى ليل ثم ذهبت إلى أرشيف هذا الفنان، فعلمت أنه كان «يبحث عن هذا النوع من الفن في مستشفيات الأمراض النفسية وصفوف المحرومين داخل المجتمعات الحديثة، فهؤلاء فرّوا من التكيّفات الثقافية ومن النمطية الاجتماعية، غير مبالين بالنقد، يرسمون ما تمليه عليهم الغريزة. فالأطباء النفسانيّون يستعملون عبارة «الرعب الخاوي» وهو يفضّل الحديث عن «الحبّ الملآن». آه، هل كانت الخطّة، خطّتنا بالكتابة عنّا، محسوبة العواقب، لجأنا إليها، أنا التي اقترحتها في معرض اللعب والتهريج، لكن ذلك كان يصبّ في المصلحة، مصلحتنا معاً. لمَ لا؟ عليّ تمرير الخطط، الحبّ من أهمها. إذاً، أنا لا أفعل ذلك من أجلك أنت، ولكن، في الدرجة الأولى من أجلي أنا. حين كانت تصرّ الجمهورية الفرنسية ونظامها الاجتماعي على حركة وقانون الاندماج التامّ بين المغتربين والمهاجرين والمنفيين والآخرين، كنت أزداد عزلة عن السابق، أحرّك كتفَيّ النحيلتين وأردّد: هراء هذا الأمر، من يندمج بالآخر هم أم أنا أم نحن، لا أحد. كان العرض يستمرّ وأنا أتابع عمليات الاندماج العملاقة التي تقوم في بعض البلدان فأفكّر فيك، وفيّ، في اسميك الأول والثاني، في بطاقة التعريف وجواز السفر واللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية واللغة الألمانية ولغات العالم بأسره. ولا أدري ماذا أضع في المرتبة الأولى، الموضوعية، العدوان، شرف الاندماج؟ حتى الجثّة وهي تتفسّخ لا تندمج في التراب نهائياً. فرضيّات أجاريك فيها وأنا أريد وضع خاتمة للمخطوطة وإسكاتي

نهائياً، فجميع فرضيّات الاندماج الغرامية فاشلة، وأنا ألاحقك من ورقة إلى غرفة، وكان عقلي القاصر يتصوّر أن هذه هي الطريقة المثلى لكي تكون موجوداً في حياتي، تسير بمحاذاتي، تغويني بلجاجة وبكثير من الصبر ولا تذكّرني بغيرك، أولئك الذين لهم حسنات الأقدمية وعيوبها. ستلاحظ، بمقدوري الانتحاب على كتفك والتحجج أن هذا مجرّد بروفة، لكنك لا تعبأ بكل هذا وأنت تضاجع على أفضل الصور، بهدوء وزهو ودون عذاب. بلى، وأنا امرأة عادية لا أملك أيّة صفات نموذجيّة، أعني لا أقدر على تحسين شروطي الغرامية من أجلك، فقابليّتي الحميمة معقولة، وأجهزتي متكافئة: مناعتي وغددي، نظام قلبي وخصوبتي.

أموت عليك

كنت أريدك أن تغرم بي عندما بدأ الفلاش مصوّباً تجاهي، فلم تدعني أتخيّلك. يومها، أمامي جسمك في تلك الليلة، وأتوق لو كان هو ذاته جسمي. أنفاسك في ظهري وأنت تحاول أن تديره إليك باعتباري ملهمتك في تلك الليلة كما كانت تردّد آنيتا في ما بعد. خصلات شعري تريد هي أيضاً تحقيق بعض النجاح على يديك، وأنا أردّد في سريّ بعدما رميت حذائي: هاك، خذْ، دعْ التصوير متواصلًا، غير مترابط، متنوّعاً، فكاهياً ولا يوثق. وكان الصيف، واليوم هو الصيف على حاله ذاك، هي الأيام الخادعة، والقاعة كانت تغصّ بالجمهور، ونحن لا نبذل ما في وسعنا كما فعلتُ طوال الشهور المنقضية وهنا في هذه الأمتار. أدور وأتنقّل ما بين الموجودات. النوافذ مشطوفة حسب الأصول. الستائر منيعة، بنوعين، سميكة من الجانبين وشفافة في الوسط. لا بدّ أن تأخذ طريقك بين الأثاث القليل، ولا تنظر تحت قدميك، وأنت تدوس الباركيه الصقيل الذي عاد براقاً بفضل السيد أحمد. أواني الزهور والنبات المتسلّق بدأت بتوزيعه، والشموع الطويلة الحمراء انحنت

فظهرت أمامي وهي تشبهنا قليلًا. والحيطان، آه كم هي لطيفة، فقلت للسيّد أحمد وأنا أسلّم إليه ظرفاً فيه أجره:

ـ أشكرك يا سيّد أحمد. فلولاك لما عاد كل شيء إلى مكانه، الكتب والأثاث، السجّاد والمساند، اللوحات وكل ما لا أستطيع حصره أو عمله وزحزحته. لا أعرف ماذا أفعل بكل هذه الموّدة التي تطلع من الموجودات وتريد أن تحادثني. ومانع الرطوبة هذا من القماش المضلّع سيمنع عني الحساسية وباقي الأمراض التافهة. هل تعلم، آمل أن يتّسخ ويتقشّر ثانية لكي تربّته فتعود إليه القوّة والصبر عليّ، أنت تستلذّ بعملك مجدّداً، وأنا بالنظر إليه.

تماماً يا بحر، صحيح، أريد الظفر بك، وتعقّبك، هما إجراءان بهيّان وطبيعيان. من الجائز أن الحبّ يعمل بالطريقة التي نجد أنفسنا غارقين فيها: «فنحن البشر نميل إلى الوقوع في الحبّ إلى أن نطوّر رباطاً قويّاً مع الشيء الذي يحوز اهتمامنا الجنسيّ». في سرير الفندق نفسه وأنت بين ذراعيّ فلا أدع نفساً منك يذهب هباءً، وكنت أريد أن أستمرّ هكذا إلى وقت طويل. كلمة الأبدية تثير حنقي وتدلّ «على هذا النوع من تكبير المرء لصورته الذاتية، أو لصورة فرد قد انتهى بانتهاء جنون الأبدية». وأنت من بين أسنانك، ولساننا يجرّب تركيب أنواع من اللثم كتمجيد للأيام الآتية، وأنا أهذي من بين أنفاسك، وبعراقيتي التي تبتزّني حتى وأنا بين يديك، فيطلع صوتي من داخل فمك:

ـ أموت عليك.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لم تكن وضعيّتنا قد أخذت تصنيفها بعد، فأنا فعلًا لا أريدك شريكاً موقّتاً، ولا دائماً أيضاً، هو خبث ليس من طبعي، حسناً، لا تعليق. أنت لا تعرف سيرتي تماماً، وأنا لملمت أشياء متناثرة عنك وفي التصويت الختامي، لدينا عناوين مثالية يتعذّر وجودها في العلاقات الغرامية: نحن بلا أسرة ولا أبناء ولا وطن. أول فلاش صوّبته تجاهي تمتمت، وحدّق أحدنا في عيني الآخر: آه هذا محبوب مثالي، ألقي عليه تحيّة المساء، فليلتقط لي الصورة بعد الأخرى، فجميع المؤشّرات تعمل بصورة حسنة. الأحاسيس مطواعة، والعناقات لا مثيل لها، ولا نعرف ما هي الخطوة التالية. الآن وحدي بانتظارك يا بحر، فأشعر أن الحبّ في ما بيننا هو أكثر إيلاماً من السرور به.

- ١٢ -

«أدخل الموضوع يا حبّي»

أريد الخروج من هذه المخطوطة سالماً، ولو ضغطت عليّ أكثر لقلت لك حالًا: أريد التوقّف هنا، وأنا أمشي في هذه اللحظة أمام الشاطئ في مدينة برايتون، بقدمين منهكتين، وبيطء شديد أسير وألاحظ أن طاقتي في الخيال أو تقديم أوصاف مطوّلة لحالاتي يجب أن يعاد النظر فيها. صحيح أنني الآن فاتر جداً، فترت كثيراً، مهمل ومرميّ كهذه المصطبة، الكل يتجاهلها لكنها ترقب الجميع، وأنا أحاول الجلوس عليها. أوّل مرة سمعت باسم المفكّر اللبناني/الإغريقي الأصل طالب نسيم كانت قبل فترة قصيرة، فنحن اليوم في مطلع عام ٢٠٠٧، عندما كنت أطالع إحدى الصحف الإنكليزية، وكان التركيز مدوّياً على نظرية «البجعة السوداء». وكانت تعني بإيجاز شديد: «تأثير اللامحتمل كثيراً». وجوهر الأمر هو الذي يردّده السيّد نسيم، «مبدأ عدم اليقين». فتعبير البجعة السوداء جاء من القرون الوسطى الأوروبية حيث كان يسود الاعتقاد أن كل البجع لونه أبيض. لذا لا وجود

للبجع الأسود، فبعد اكتشاف البجع الأسود في القرن السابع عشر في أوستراليا، بات تعبير البجع الأسود يعني أن المستحيل ممكن الوقوع. الشرح هذا لم يرقني كثيراً، به بعض الفذلكة على الرغم من أن الفكرة جدّ بسيطة وهي تقول: لا أعرف. هكذا، بالضبط نقول لا نعرف، فنحن معه لم نكن نعلم إلّا أن جميع البجعات في العالم بيضاء اللون، وفجأة، ظهرت البجعة السوداء فاختلّ توازن المعارف. هذا كلام قديم جداً هو الآخر لكني تصوّرت المفكّر اللبناني بجوارنا يقوم هو شخصياً بشرحها والتعليق عليها، فبدت القصّة لي وكأنه يتحدّث عنّا، البجعة ولونها، هي عن رجل وامرأة. راقتني طريقته التحليلية فقد كانت غاية في الحساسية والرقيّ، وهو يضع الاحتمالات التي لا تنتهي ما بين الاقتصاد العالمي، والخطوط الحمراء للتراجيديا الإنسانية. شغفت بالتعرّف عليه عن كثب فدخلت موقعه، فهو من قرية صغيرة في الشمال اللبناني تدعى (أميون)، ولو حرّكنا لساننا قليلًا لبدت القرية كأنها تعجّ بالأميّين والسيّد نسيم هو البجعة السوداء، الولد الفذّ، الغريب الأطوار، الذي يملك حساً فاجعاً بالفكاهة وهو يستخدم لغة الإفلاس العالمي القريب الحدوث. هذا العالم، بدا الأقرب إليّ من هانز وآنيتا حتى، فاستأذنته إن كان يسمح بالتسكّع معاً على الدرّاجة الهوائية، فهو يبدو رجلًا محبوباً ورياضياً، صلعه يظهره أكبر من سنّه الحقيقية فهو من مواليد ١٩٦٠. لا تتطيّري إن جلبت أحدهم إلى المخطوطة فأعبائي أوشكت أن تنتهي. آه، بالطبع أخبرته عنك

ولفتّ انتباهه إلى جميع ما خصصته لك من صفحات وكان على وشك القول:

ـ أنت يا أستاذ بحر لا تملك حبكة متماسكة، ويلزمك تصفّح ما دوّنته في موقعي الخاص عن «إدارة المخاطر» وعن «الضربة الأولى» وقراءته بصورة سليمة ودقيقة.

هل خطر ببالك يا راوية أنك حين غادرت في اليوم السادس من تموز من عام ٢٠٠٥، من محطّة واترلو من لندن، حصلت في اليوم السابع الموجة الأولى من الانفجارات الارهابية، وهو كان هناك في لندن أيضاً، أعني السيّد نسيم، يا للخسارة، من الجائز أننا مرّرنا بعضنا بجوار بعض لكننا لم نلتق. فأسمع صوته قائلًا بمرح:

ـ «يتطلّب شجاعة كبيرة لالتزام الصمت».

تفتّقت موهبتك عن هذا القدر من الخبث فلم تجيبي على تليفوناتي إلّا نادراً جداً، فأسمعك والتأفف حليفك:

ـ معذرة يا بحر راجعني في ما بعد.

وها أنا أعيد القصّة بقدر جدّ عادي من المشاعر: محبّان ودودان لطيفان ينهضان معاً لكي يجيبا على نداء ما، وهما كل في اتّجاه، والأمر لا علاقة له بالحبّ قط. هل عشنا تلك القصّة حقيقة؟ أجيبي يا راوية، فأنا بدأت أتشكّك أكثر. هل أنا رجل حقيقي يدعى رالف ألن أو بحر الخليل؟ وأنا، للأمانة أماطل في إعلان التوقيت المضبوط والنهائي للسفر إليك لأنني لا أعرف، بالضبط، هذا ما ينادي به المفكّر نسيم. أنا لا أعرف من قبل

التعرّف بك، وربما منذ زمن سحيق جداً، واللطيف في الأمر أنني كنت وما زلت مستعدّاً للقول: لا أعرف، لا أعرف يوم المغادرة إليك، ولا أعرف أي يوم سيتم اللقاء بك، لا أعرف أي المواضيع التي عليّ التركيز عليها، أعني، تلك التي عشناها معاً: التجارب الجنونية، والمداعبات الطويلة، والمضاجعات اللذيذة، وبالطبع، بعض الخصومات، واللهو في العامين المنقضيين، وها نحن في مطلع العام الجديد، الثالث، والسيّد نسيم يسمح لي ببعض الإجراءات الوقتية قائلاً:

- «إن تكرار عدد التجارب التي لا تتغيّر يسمح بالوصول إلى نتيجة عامة نحوّلها إلى قانون علمي. فالأمور الخافية علينا أكثر صلة بالواقع من الأمور المعروفة لدينا».

أكيد هذا شرح للحال، حالنا معاً أنا وأنت. فهل أنت أقرب إليّ من ليزا مثلاً؟ إنني أحصر التذكير بالعمل، أو المشهد الذي لم يفارقني، وما عليّ إلّا تصديق جميع ما حصل، وما يمكن أن يروى ضدّي من صنوف الأذية والقسوة، التي لم تتعرّض للمراجعة إلّا بعدما توسّع مفهوم ثقافة القسوة التي ما زلت تقترحينها عليّ، فبدونا متقدّمين في مهمّتنا، أنت بشخصك البالغ القسوة...، وأنا عندما وضعت ورقة تافهة في صندوق بريد ليزا، وكنت أتذبذب كما أنا معك بالضبط. حسناً، هذا هو الأمر الأول الذي يخبرنا عنه السيد نسيم: «وهم المعرفة، وكيف يتراءى لكل شخص أنه يعرف ما يدور في هذا العالم الذي هو أكثر تعقيداً. الأمر الثاني، هو التحوير الذي تتعرّض له الأحداث لدى استرجاعها من حيث إننا لا

نستطيع أن نقوّم الأشياء إلا بعد وقوعها. أما الأمر الثالث فهو المبالغة في تقييم المعلومات الواقعية أكثر مما تحتمل واقعيّتها، هذه هي التي تنخر العقل البشريّ» وكلها تنطبق عليك وعليّ وبحرفية لا غبار عليها. من أين ظهر لي هذا النسيم العليل المخبوء في حبكة هذا الكون؟ فآخذه معي حيثما أذهب وأعود، حين تضيق بي اللغة فأدخّن كثيراً إلى حدّ الغثيان، ولا آكل شيئاً فلا أبتعد عن سكن ليزا ومكان عملها. الكرسي ما زال فارغاً، الطاولة نظيفة، الدولاب الحديدي في مكانه بعدما رفعت بطاقات الأعياد والمناسبات التي أرسلتها إليها. بدأت أدقّق في أصول المطاردة التي فرضتها ووفّرتها لليزا فكانت تمنحني سروراً لا مثيل له، وأنا أسير حسب تقديرات العالم اللبناني، فإذا ما فحصت للتوّ ما تحقّق لي، وبالدرجة الأولى في أثناء تلك المطاردات، تتبدّى الصورة أمامي على الشكل التالي: معك كان يمكن منعها بطريقة ظلّت خافية عليّ إلى هذه الساعة. أنت أدرت المطاردة في ما بيننا، مباشرة، وبعد ثوانٍ من اللقاء بك. لم تهاجميني لكن نظام مؤشّراتك كان ناشطاً جداً فجعلني أنقاد إليك دون استعداد للقتال، ودون تهديد أيضاً. ليزا كانت تجعلني أرفرف حولها وأصفّق بجناحيّ الهجوم والمطاردة، وها أنا أجيب عن نفسي والسيد نسيم، بنعم كبيرة، فالتكرار الذي كنت أقوم به برفق، بيسر، بطواعية وبدهاء في أغلب الأحيان، هو تكرار لشخصية الصيّاد وعنفوانه. صحيح أن منظر القتل يقطّع الأنفاس لكنه يتمّ بشيء من الفصاحة، وفي وضح النهار، ودون تأنيب للوجدان، وعلى مرأى

من الجميع، ودون ندامة. ليزا قُتلت أمام موظّفين وإداريين، وجمهور بريطاني متغطرس، هي الإيرلندية الرقيقة جداً، وأنا الأوروبي ذو الأصول الهجينة العنيفة التي جعلتني أعود إلى أصل الطرق القديمة التي نتبعها نحن البشر، وجميع الحيوانات، سواء بسواء.

أنت السرير وأنا نومك

تضايقت كثيراً من السيّد طالب نسيم. فهو لم يردّ على رسالتي الإلكترونية ذات الإيضاحات، الطويلة الشرح، بالطبع، حدّثته عنك بكلام لن يروقك، وليس من داعٍ له، والحال أنا الذي أحتاج إلى كل هذا الهجوم عليك، فلم أتلعثم أمامه كما كنت أفعل ذلك، وأنا أمام بائعة التذاكر. هو لم يضع نظرية في الاقتصاد أو الفلسفة، ولا في الأسواق العالمية للمال، قلت له هذا بالضبط:

ـ أنت يا سيّدي أفضل من يتعقّب المغرمين بعد أن تندسّ في دواخلهم، فلا تقلق من الإقدام على القول: «إننا نصدر تقديرات مستقبلية قد تمتدّ ثلاثين سنة عن توقّع عجز مالي في الضمان الاجتماعي، أو تغيّرات على أسعار البترول من دون أن ندري أننا لا نستطيع حقيقة أن نتكهّن بمثل تلك الأمور حتى إلى مدة لا تتعدّى حلول الصيف المقبل».

نحن الآن في يناير من عام ٢٠٠٧، وأنا أريدك أن تتوقّفي عن ندائي يا راوية. فهذا المساء هبّت عاصفة بحريّة دفعتني دفعاً إلى تغيير اتّجاهي، فتركت درّاجتي الهوائية وبدأت السير في داخل

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الأسواق والأحياء الداخلية للمدينة، فدعوت نفسي إلى صحن شرقي في المدينة القديمة. ها هي الإمبراطورية في أكثر أوقاتها هذياناً وأفولًا، وهي تتلقّى راتبها التقاعدي من وراء المحيط والمستعمرات، لم ترقني مطاعمها يوماً:

ـ الطعام أهم ملمح استعماري.

والطبّاخون الإنكليز ذهبوا إلى التقاعد، والذوق الإنكليزي ازداد انحطاطاً. هنا الخرف يغدر بالآخرين كما فعل مع والدي، فأبتسم وأردّد: سيجيء دوري قريباً، أنا المهاجر والمطرود، الغريب والوحيد، ولو حصلت على الجنسيّتين البريطانية والألمانية، فأجري هزيل فوفّرته لصندوق التقاعد، وكل يوم يحثّني سلوان على قبول دعوته إلى زيارة أحد مراكزه الاستراتيجية في بيروت أو البحرين:

ـ اختر ما تشاء ونحن حاضرون.

وأنا لا أجيبه. المفكّر اللبناني لا يتراجع، فيدفعني إلى الصيف القادم وهو يداعبني قائلًا:

ـ «إن التاريخ والمجتمعات لا تتقدّم زحفاً، بل تنطلق قفزاً، فالتاريخ والمجتمع ينطلقان من انكسار إلى آخر مع قليل من التذبذب بينهما، لكننا مع هذا، شأننا في ذلك شأن المؤرخين، نحبّ أن نؤمن بما يمكن التكهّن به، أي بالتقدّم المتنامي البطيء».

انطلقت قفزاً وأنا أصوّرك في كل حالاتك، أنت باقية، مغادرة، مجهولة، منحازة، صديقة وشريرة...، فأبدو أخرق، وأنا لا أملك إلّا هدفاً واحداً هو تكبيرك بكفاءة جيدة، تكبير

الوجه، الشقّة، الثياب، الموقع، الشخصية، النيّات، الخزائن، الغرف، والرجال الذين دخلوا وخرجوا من حياتك. سربرك في البداية تجاهلته، أعني كنت أريدك أن تستلقي على الأرض، فألجأ إلى وضعك هناك لكي يكون بمقدوري أن أروح وأعود ليلًا ونهاراً بلا فواصل ولا تشويش، وأنا أشقّ طريقي إليك، والرغبة فيك تدعوني إلى البكاء. فماذا سيحدث على ذلك السرير؟

هانز ظل يردّد:

ـ أنت تحريٌّ تترك آثارك في المكان الذي تزوره، وهذا لا يجوز يا عزيزي فتبدو ألغازك سهلة الحلّ.

ثم تستدير آنيتا وتكمل عليّ:

ـ حسناً يا بحر، لا أحد يدفع لك أجراً على ما تقوم به، فمن غير الإنصاف أن لا تعرف راوية بالأمر. رحلاتك وراءها، متابعتك وملاحقاتك شبه البوليسية، تهريجك وتمثيلك لكل الأدوار، هذه حبكات واستعارات، أظنّ أنه حان الوقت أن تدعنا نحن، أو أنت، نلمّح لها، يعني، أننا نتحدّث الآن عن نهاية وشيكة تنهي هذه الوضعية الغريبة ما بين عاشقين لطيفين، أليس كذلك؟

كل هذه التلميحات من هذين الصديقين بدأت تقلقني حقاً، ويوماً بعد يوم، أتصوّر، أننا نقف في مفترق طرق وأمامنا «حدث غير متوقّع لنا سيكون له تأثير هائل، وأن دماغَينا سوف يجتهدان بعد حصوله للبحث عن الأسباب المنطقية التي أدت إليه، فنظريّة البجعة السوداء كانت ترمز إلى الأحداث غير المحتملة ذات الأبعاد والتأثيرات الحادّة، فتشير إلى صعوبة التنبؤ بما يتجاوز عالم

التوقّعات العادية، فهي تشير إلى الأحداث الضخمة، وما علينا إلّا أن نستعدّ للتعامل مع أحداث تكون أحياناً غير قابلة للتوقّع». هذا الرجل لا يجهل أيّ شيء عني، وهو يتابعني في أدنى الحركات، فأسمح له ولك ببعض الاستطراد: «لا لمبدأ الخسائر تعمّ، والأرباح تخص». عال، أوافق أن أكون أقلّ الأرباح لك، لكني أرفض أن تكوني أكبر خسائري.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

بين المرض والمريض

لم يعد لديّ ما أستطيع أن أدوّنه لك، ما أخترعه وأتوّهمه، ما أريد أن أتصوّره هو الوحيد الباقي الممكن، والذي أجرؤ عليه، وأنا أصرخ الآن وأرفع ذراعي إلى أعلى، هيّا اقفز يا بحر من كل هذه المخطوطة وانجُ بنفسك، تنحَّ إلى الخارج وامشِ في هدوء إلى النهاية، نهاية جميع الأوقات. فالسيّد نسيم هو الآخر كان يناور عليك، وكل الذين كتبوا القصائد والروايات البارعة والشديدة الجمال عن الغرام، لم يكونوا بالضرورة عشّاقاً حقيقيين، وأنت يا بحر هل كنت عاشقاً حقيقياً؟

سمعت هذه الكلمة ـ أدفشها ـ من هانز. كان يعيدها أمامنا وهو يضحك بصوت عال:

ـ أي ادفشها شوية.

قالها بلهجة مصرية مطعّمة باللبنانية، وكان يعنيك أنت بالطبع. ساعتها ضحكت وقهقهت فاستغرب هانز وسأل:

ـ هه، أعجبتك الكلمة أم الفكرة؟

ـ الاثنتان.

كرّرت الكلمة مرّات عدة وأنا أقف أمام المرآة في شقّتي. منذ وقت طويل لم أفعل هذا، وأنا أتابع حركة نهديك بين يدَيّ، وذاك الصمغ الأوليّ الكثيف الذهبي اللون الذي التصق بلهاتي من صدر أمّي، وجد طريقه إلى لساني، وأنا أحضنك في أحد اللقاءات. ترى، أيّ فرق، وأيّ قواعد عليّ اتّخاذها علانية، وأنا أمسك بيدي سمّاعة الهاتف فأعلن يوم السفر إليك ودون اعتراض من رالف ألن، أو فتور وتردّد من بحر الخليل، أما باقي التفاصيل فقد أجّلتها قليلًا:

ـ حسناً، ادفشك إليّ.. ها ها...

اسمعي، لديّ بعض المهمّات وعليّ القيام بها قبل التوجّه إلى باريس، زيارة الوالد الذي لم أحدّثك عنه إلى اليوم. ممطر جداً هذا اليوم، وعربة الأجرة أوصلتني إلى ذاك المصحّ البعيد عن مدينة برايتون مسافة ساعة إلّا ربعاً. بناء عتيق واجهته توحي اليأس الجاهز، شُيّد قبل ما يقارب المئة عام. غرفه واسعة، وأرضيته من الخشب الجديد الكامد اللون. ستائره سميكة وأبواب غرفه من خشب الساج الذي أُعيد طليه حديثاً. أقفاله من النوع القديم، ومفاتيحه كبيرة نوعاً ما ولونها برونزي، فبدت مثل تلك التي نراها في الأفلام البوليسية، معلّقة كرزمة في خصر هذه أو تلك من الممرضات. هذا البناء كان واحداً من قصور أحد اللوردات الإنكليز الذي انتحر فيه فحوّله الورثة مصحّاً نفسياً وعصبياً. هنا شاهدت جميع ما يمكن أن تخزّنه الغابة من غزلان نافرة وأرانب وزواحف صغيرة ومتوسّطة، هررة كبيرة، وطيور تتكاثر باطّراد ما

بين زيارة وأخرى. وهنا صوّرت والدي بالأسود والأبيض فكنت أتوقّف طويلًا أمام ربطة بيجامته المطاطية التي كان يحادثها، وهو يسحبها ويلاعبها طوال الوقت الذي أقضيه معه. تقول الممرضة المسؤولة عن خدمته وحمّامه، وعن طعامه وقصّ أظافره:

ـ كأنه بهذه الحركات يتفقّد مكان إقامته الأولى.

كانت تصفه بأوصاف شتّى، لكن ألطفها:

ـ بدت لنا هذه الحركات اليومية التي يعيدها ويكرّرها كالشهيق والزفير، أنها عدّة عمله الوحيدة، ومن الممكن أنها تذكّره بعزف على آلة موسيقية ما، أو عمل يدوي آخر. ربما، تذكّره بمكان ما لا يريد أن يبرحه. والدك ماهر فعلًا بالعمل على يده ومعها...

سألتها في إحدى المرات:

ـ هل يضايقك أن أصوّرك معه إذا شئت صورة جماعية أو...

ـ هل تريد صورة جماعية للمرضى وللأطباء معاً، أم للأطباء وحدهم والمرضى وحدهم، أم لنا وحدنا، أنا ووالدك، فالباقي ممنوع.

المريض الجيّد المحترف بالأمراض، المسالم، يصنع ممرضته اللطيفة ساندرا الجميلة واليافعة، وهذا ما حصل لوالدي. بقي طبيعياً أمام العدسة واستجابته لا تصدّق. صبور هادئ وطريف، فيذكّرني في كثير من الأحيان بحالتي اليوم. شعرت أنه لم يعد عجوزاً مثلي، مظهره تجلّى في نظراته الرحيمة، وجلسته الهادئة، ومن طريقة تصفيف شعره المُعتنى به، فقد غيّر فرق شعره من الوسط إلى اليمين. خصلاته ما زالت كثيفة ولونها فضّيّ غامقٌ

جميل. بدا أقلّ تدميراً من أية زيارة سابقة. كان يرتدي ثياباً ذات طابع إنكليزي محافظ وصارم، وبألوان دكناء إلّا الشال الأزرق فهو من الصوف الثمين الذي جلبته له في يوم ميلاده السبعين قبل سنوات طويلة، فأضفى عليه بعض التكريم. في هذه الظهيرة لم يتجاهلني، ولا دمدم كعادته حين يشاهد الفلاش. اليوم ابتسم فظهر فكّه العلوي بلا أسنان، فشعرت أنه الشخص نفسه الذي كان يقف بجواري في تلك الحقبة من عمرينا، ونحن أمام فراش مرض جدّتي بهيّة، أمّه. والدي لم ينتحب وهو يودّعها، وأنا لم يكن بوسعي إلّا مسّ يدها الكبيرة والكريمة، وهي تحرّكها بضعف وسط خصلات شعري. كانت شاحبة جداً ولا تنظر إلينا مباشرة، وكنا جميعاً كالشحّاذين، نريد العثور على كسرة كلمة أو مفردة، أو على الأقلّ، دمعة بقيت معلّقة إلى اليوم ما بين عينَي أبي وعينَيّ، فلا ندري على من نذرفها؟ كان القيظ شديداً فجعلنا غير قادرين على التنفّس. فالشهر آب، وذاك الشخص الذي صار في ما بعد أنا، هو الآخر لم يجد في حوزته، وهو في الرابعة عشرة، إلّا ما بدأ يتّضح يوماً بعد آخر: البتر الطبيعي والمستمر. في تلك المدينة دشّنته، وكانت طبعته نادرة ومكتوبة بخطّ اليد، وله أغراض وأعراض عدّة. وها أنا، في عقدي الخامس، أدلّ على تلك الحال كواحد من أهم نشاطات وجودي في التصوير الذي استهواني وأنا في بغداد، فكانت أغلب تصاويري تحوي أكواماً من الفراغ، عربات فارغة، جثثاً، قنانيّ، وجوهاً، قلوباً، أعضاءً، خزّانات، عيوناً، رجالاً، نساءً، بزّات مكويّة بالخواء، وقمصاناً منتفخة في الهواء. في تلك

الساعات، وأنا أنظر إلى جدّتي فتبهرني صورتها ووجهها، عيناها المتهكّمتان الجنائزيتان، جفونها التي لا تريد إغلاقها تماماً. كانت تريد أن تضعنا ما بين الجفن والنظر البطيء إلينا وهكذا. منذ ذلك الوقت، أتحرّق لكاميرا وفلاش، لنصف شاعر، وممثّل هاوٍ، لمهندس معماري يعيد إنشاء وجه تلك السيّدة، وأنا أقف أمامها لكي لا تفلت تلك الإيماءات مني، فكنت أبدو كالأبله كما أنا الآن أمام والدي. تلك الجدّة في السرير وأنفتها تغطي جبينها العالي نازلة إلى حركة الشفتين المقفلتين، والكتفين الهادئتين، فهذا الرجل الواقف بجوارها لم يعد ابنها، ولا هذا حفيدها، وكان عليها العثور على لقبين آخرين لنا. حقاً، لا وجود للابن الأبدي. فهذا هو الحداد الذي لا يبرح الأمّهات، فبدا كل شيء غير معقول، الأمّ الألمانية التي أصرّت على المغادرة فجلدها لم يعد يحتمل الشمس العراقية، يعقل هذا الأمر كثيراً، وعلينا بالتفاؤل، ونحن ندوّنه هنا. فالشمس تلك أصبحت من الماضي، وهي التي تسبّبت بالمصاعب الشديدة. كانت تفيض وتشتاق فيتفاقم وضع بعضهم ويمرض، وتخيب فيغادر بعضهم الآخر. راوية، هذه ليست، معلومات اعتباطية عن علوم البيئة والاجتماع، عن ثقافة الملل والأعراق، هي نوعي البشريّ، ونشاطي الجنسيّ، ورباطي العائليّ، وصفاتي البيولوجية التي بترت بصورة قطعية. فتلك الميتة الهادئة لجدّتي لم تبرح ذاكرتي، فهي ماتت قبل الموت، كنا هكذا، سمح لنا بهذا، والجدّة لا تحجم عنه، هي التي كان بمقدورها إعادتني إلى تلك المدينة، وهذا الوالد الذي يحرّك عضلة جديدة في وجهه لم تُشل

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كما يبدو. يومها تعلّمت الوقوف والتحديق جيداً في ما أراه أمامي، وحين أنشدتِ لبغداد في الحفلة نفسها في عام ٢٠٠٥، ظهرت المدينة أمامي وجهاً لوجه بلا فواجع، بسرد حيادي، أعني بمفردات لم أكن لاحظتها من قبل، ولم ألتقطها من فم أحد. ذاك كان جورك عليّ يا راوية، فصارت المدينة وأهلها عراة لا تلزمهم الرموز، وهي غير معنية بجميع عشّاقها الخائبين، ولا بالصور التي تعرض وراءك على شاشة عملاقة. صوتك كان هادئاً وأنت تشيرين إلى هؤلاء وأولئك الذين تولّوا تسويتها بالأرض، فبدت الجدّة على أريكتها أمامي وأنا أصغي إليك، فنفرت منك، وحاولت قدر المستطاع أن أؤخّر حبّك، وأنا أتقدّم منك، ولم أتراجع، كنت أنت المرض وكنت أنا المريض.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- و... -

أبدو غريب الأطوار وأنا أقف أمام بائعة التذاكر، المرأة المُسنّة ذات الوجه المستدير، والسماحة اللطيفة جداً. كنا نتبادل نظرات أمّ وولد مهجور فأجفل حقاً، وهي تنتظر ثواني قبل أن أتوارى، ثم أعود وبيدي كارت الائتمان. السفر إليك، رقم الرحلة، اسم المحطة، الساعة، وباقي التفاصيل التي تتخلّل السفرة، لا تتهكّمي من فضلك، أعلنت سفري بكل الطرق المتعارف عليها: البريد الإلكتروني، ترك رسالة صوتية، برقية عاجلة بأكثر من لغة. إقدام آنيتا وهانز كشاهدين من الدرجة الممتازة ودعوتهما إلى الاتصال بك. هل يعرّضني السفر المكشوف تماماً لخطر الأفول والانطفاء؟ هل السفر إليك هو الوسيلة الوحيدة للاقتراب الشديد منك؟

المسائل تبدو مترابطة لكن السيّد نسيم يقول العكس، فأبدو في وضعية كاريكاتورية. تراءت لي ابتسامة البائعة وهي تقول بصوت عذب:

ـ My dear لا تستطيع يومياً الوقوف والانتظار إلى ما شاء الله، فذات يوم، ربما اليوم أو غداً، الآن، وفي ثوانٍ معدودة،

وقبل أن تغيّر رأيك، ما عليك إلّا أن تمدّ يدك إلى جيبك وتدفع النقود، وتنظر جيداً في التذكرة رافعاً رأسك إلى أعلى، ربما، هذه ليست بطاقة عادية، هي أمانة في العنق، عنقك، ولا تخصّك وحدك.

تصوّرتها جدّتي بهيّة، تلحّ عليّ ملاقاتك فلم أسمع بقية الحوار. فهذا أمر كان عليّ انتظار حدوثه، ومن الجائز أن يكون حقيقياً فقرّرت دون رجعة، وأنا أشعر أنني هدف مرئي من قبل الآخرين، فرفعت رأسي، وكان البائع شاباً يافعاً، نزقاً، وهو يغالب النعاس، ولا أحد يقف ورائي في الطابور.

هل كان يلزمني كل هذا الفقد والمماطلة، التسويف والتخلّي، لكي توافقي على أن أكون نصف عراقي فقط؟ هل كان يلزم موت أحدنا لكي يلتقي الآخر؟ هل كنت على تخوم نصفك العراقي لكي نقطع أنفاسنا ونختفي قبل أن ينجح أحدنا في الوصول إلى الآخر؟ رجاءً، يا راوية، لا يذهب تفكيرك أبعد مما في مقدوري عمله فلا تجعلي مني بطلًا، ومبشّراً. خفّفي من غلوائك ومقاطعك الطنّانة واعرضيني على نفسك بلا ديباجة وحواشٍ، فذاك العراق، بلد تخييب الآمال، فلا تغرقيني فيه، ولا تحشني شروطه بعينَيّ فتوقّفي عن ذلك كله. تزداد وحشتي، وأنا أنظر إلى البطاقة، وهي بيدي أخيراً، فأردّد بصوت هازئ: ألا ترين أنني في طريقي إليك، فلا تنظري إليّ بوطأة كل ذاك الغياب. أريد أن أضعك في حجري والقطار يتحرّك، وأنت تمزحين بين ذراعيّ فهيئتك عشيقة نفورة. قلت لك يا راوية، يا منشدة، يا مؤلّفة، هيّا، هيّا سوف أتأخّر

عليك، عملياً تأخّرت طويلًا، تأخّرت كثيراً بسبب صعوبة نطق بعض الكلمات والأسماء والجمل باللغة، باللغات. قلت لك مراراً لكنك لم تسمعي جيداً. أريد أن أحبّك بأقلّ من القليل من الكلمات والجمل، فالحبّ هو الأمر الوحيد الذي يبدو كأمر تنجزه في وقته، لا يتأخّر مثلي، ولا يسرع مثلك. وحين سألت آنيتا كيف يمكنني الوصول إليك، أجابت وهي تبتسم:

ـ بالتدريب بأقصى قدر من الحبّ.

خلعت معطفي الصوفي الثمين، الذي يجعلني أبدو أرستقراطياً ناجزاً فعلقته بجوار الشبّاك. حقيبتي من الكتّان الرثّ لا تلائم مظهري، وضعت فيها ثياباً قليلة جداً، بضعة قمصان أنيقة وملابس داخلية ناصعة البياض اشتريتها أول من أمس. آه، كم يبدو جسمي جميلًا وأنا في داخلها، أتمشّى أمامك بينك وبين والحمّام. أبتسم للتوّ، أنا الكهل الذي يلاحق السيّدة الملتبسة، فأشعر فعلًا أنني تحرّيٌّ حقيقي، وأن الحبكة البوليسية بحاجة إلى اللمسات الأخيرة. أسترخي تماماً، وأمدّ يدي إلى الأمام، والقطار بدأ بالتحرّك فأغوص في المقعد الجلدي ذي اللون القهوائي. شاهدت طاولة طويت إلى الداخل فسحبتها إليّ لمجرّد القيام بأمر يدعني أرى يدَيّ وساقَيّ، وباقي أعضائي تتحرّك، وأنا أمدّدها هناك ما بين ذراعيك ويديك، وأصابعك. فثمة رجل يدعى بحر الخليل يردّد لنفسه وهو يبتسم: لقد حان الوقت، إذاً فلنضع فيه ما نشاء من الفراق والوداع، من العابر والموقّت، من المسبق والمرفوض، فأنا أفضل من يفعل هذا، فلا شيء غير الوقت الذي عليّ أن أبدّده وأعطّله.

القطار بدأ يسرع كثيراً، فلقد اخترته بوقفات كثيرة وطويلة لكي لا أصل سريعاً، لكي، ربما، أستطيع أن أقفز منه عائداً إلى حيث لا أدري. سطح الطاولة أملس ورصاصي اللون، وأمامي فجوة مدوّرة لوضع القدح:

أريد شاياً ساخناً تتصاعد أبخرته وتصل إلى فتحتَيْ أنفي، وما إن أمسكه بيدي حتى أشعر أن حرارة زجاجه تلسع جلدي، وأنا أنحني عليك، وأنت وحيدة معي، وهذه الظهيرة، فما عساك تفعلين بي؟ فأمدّ يدي بحذر شديد وأبدأ باللثم والعناق و...

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

- ١٣ -

«يتركون الأسوأ إلى النهاية»

خارج المعنى المتعارف، على الخاتمة أن تكون أقلّ بلاهة وتصنّعاً، على الأسوأ أن يكون خبيثاً كلما أستطعنا ذلك، فهذا يدعو إلى الفكاهة، ولا يثير الكرب. وأنا أريد أن أضحك من «قوّة الانتظار» التي كنا نتحرّك فيها كما لو أننا نؤدّي دوراً في استديو مسرحي لممثّل واحد. شقتي لم أعدّها كمختبر أو كبديل متأخّر. فجأة، عندما كنت أحضّرها من جديد صارت الجدران والأرضية، المطبخ وعضلات وأعضاء وموجودات هذه الأمتار بأسرها، أشدّ جوداً وكرماً عليّ.

سعيت إلى ذلك، سعيت إلى أن يكون طبعي، وربما سلوكي الجديد له علاقة بالسعد والمسرّة، وأنا أتحرّى عليك بين أساسيّات الغرف كأنني أنا وضعت أول حجر هنا، وأقمت الإنشاءات المعمارية من ترميم وتقشير، وأصباغ وتحضير. كنت أريد التأكّد من أمر واحد لا غير، هو أنك موجود حقاً، وأني لست واهمة، وأن فترة الشهور المنقضية ـ وها إننا في بدء العام الثالث ـ ما فتئت

تبهجني حقاً، حتى لو كانت الغصّة تكاد تجعلني أسلم الروح قبل أن التقيك. ظننت حقاً، أو هكذا تراءى لي، أن هذه الأمتار كانت أشدّ رأفة منك، فأينما التفت ألاحظ أننا اشتغلنا بصورة حرفية. ليل، والسيّد أحمد وجنان عبر الهاتف، وآنيتا وهانز سيحضرون في أحد الأيام، سنجتمع كلنا لقصّ الشريط؛ إن هذا المكان كان يصغي جيداً إلى الإستغاثة، فكنا نتبادل الضحكات المكتومة، ويربت بعضنا أعضاء بعض، أنا ومفاصل هذه الحيطان، كنا في مرتبة واحدة من التصدّعات التي حاولت إخفاء بثورها وعللها كما لو أنها علل جسم إنساني، جسمي بقنواته، خلاياه، وغدده. وها أنا أدور وسط كل هذه الأمتار وأنوي بيعك بأغلى ثمن على غرار نهاية الفيلم اللطيف الذي لم أعد أذكر اسمه، حين قال أحدهم: «يتركون الأسوأ إلى النهاية». فأنا مثل هذا الشخص أدور هنا وحدي وأخاطبك. ما عليك مني يا بحر، ما عليك إلّا أن تأخذ بعين الاعتبار منافعك، ضعها بأكملها، وبعناية فائقة أمامك على الطاولة، فالحبّ هو الآخر من جملة الضحايا، هكذا كانت جنان تقول لي:

ـ هنا في هذه الأمكنة التي نعيش فيها علينا أن نتفادى الحبّ، وربما في الدرجة الأولى، فهو كثيراً ما يذكّرنا بالتقصير في حقوقه، ولأنها كثيرة جداً نشعر دائماً بالذنوب، وهذا يقودنا إلى ذلك الوطن، نريده طاهر الذيل وبريء الذمّة، ولكن هذا صعب وربما مستحيل، فالحبّ هكذا هناك وهنا.

جنان صديقتي العراقية ما زالت تحتضر منذ غادرها منذر،

وهي منذورة له، تردّد في أمسيات سهراتنا ما بين جنيف وباريس في صوت جنائزي:

ـ منذ ذلك التاريخ وأنا عمياء وأحتضر.

بقيت تشقّ طريقها بين المحتضرين والموتى بهدوء تتمشّى مع الورثة العراقيين الذين ما زالوا يبعثون إلينا بالرسالة تلو الأخرى لكي نواصل الرحلة. جنان كانت الأكثر تطلّباً من الصديقات المُغرمات المعذّبات في العطش العشقي، هي تسميه الحرمان الأبدي، فظلّت تختضّ وترتعد أمام الذكرى، وبقيت علاقاتها الغرامية محفوفة بخطر الإصابة بالهجر، والمغادرة السريعة، فأتصوّرها، وهي تخاطبني في الهاتف، واقفة تلوّح بيدها لذاك الغائب، المقتول، وتنتظر. كانت تصغي جيداً كما يليق بالصديقات المحتضرات اللاتي يسكنّ في شقق تحتضر، على الأقلّ هذا ما يلزم إيواء المحتضر. أما ليل فقد جعلت بشرتك متموّجة بطيّات وبعض التجاعيد، بعينين مراوغتين مصنوعتين من مواهب لا ترى بالعين المجرّدة، فبدا وجهك معتماً خالياً من الجاذبية التي أهلكتني. اللعنة عليك يا ليل، توقّفت عن طرح الأسئلة: آه، من هو، ماذا يعمل، كم سنّه، هل هو متزوّج، وهذا كان أهم سؤال في نظرها. لم تصدّقني حين أخبرتها بأنني لا أعرف لأنني لم أهتمّ، لم تصدّقني فاقترحت وجوهاً لرجال بسحنات وملامح وحركات عصابيّة مرَضيّة وفي حالة انهيار، وهي تبتسم قائلة:

ـ هكذا أراهم، وعلى الخصوص هم مستعجلون جداً، وإذا وقفوا قليلًا بجوارك فلا ينظرون جيداً. أصلًا هم لا يبصرون!

بقيت ترسم بالسكين وجه رجلها فتكسره إلى أجزاء وبقايا لا نراها فتهذي، وهي تضرب الحيطان ضربات متلاحقة وحادة فأدخل بحماسة، وأنا أكاد أمسك يدها لكي أكبحها قليلًا:

ـ حسناً يا ليل، هذه أجزاء من تصرّفات وحماقات وخيانات رجلك الحلزون، لكن هذا حائطي وهو لا يعود لأي رجل في الأرض، وأنا أريد أن يبقى صحيحاً على الأقل للسنوات الخمس القادمة. أريد أن أعيش هنا فتمهّلي قليلًا.

كانت على وشك البكاء. شاهدت غضبها فخرجت من أمامها. كان هناك نوع من الغضب والخزي يرافقها وأنا أمازحها. وأعود وأمدّ رأسي:

ـ حسناً اتأري بالتصوير وبهذه السخرية وكفّي عن الندب والعويل.

تجيب بصوت شديد الحزن:

ـ لا تحاولي يا راوية. فالضحك أيضاً يذلّ، يذلّني.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

خداع الانتظار

ترى كم يلزمنا من الوقت لكي نكفّ عن الانتظار؟ كم يلزمك من التخلّي ومن القصاص لكي لا «تهتزّ يدك بالكاميرا»؟ وأنت تبالغ في التجريب والاختفاء. آه، أنا أيضاً بالغت في عدم الردّ على... وعلى... ما هذا يا بحر، الأمر لا يتعدّى إلّا بعض التهريج والتشويق. كانت تنبعث مني حالات لا أستطيع وضعها في خانة فأخبرت جنان بها، وأنا أقول لها:

ـ كم الأمر جميل لو كانت لدينا فكرة مبتكرة غير مسبوقة، تخصّنا وحدنا، هو تعريف جد لطيف يذكّر بالوقت الراهن، لا بالزمن الغابر. أعني أنا مثلًا رفعت سقف بحر على علو عشرين في المئة أو ثلاثين أكثر مما لديه. أظنّ أن الحبّ يحتمل مثل هذه الأمور، أعني بعض المبالغات وربما القليل من الأكاذيب.

كانت جنان تطرح أسئلة كهذه:

ـ ترى هل شاهدت بعض عروض عالم الأزياء الشهير دافيد بالي؟

ـ وما دخله بنا؟

- ادخلي إلى بعض المواقع التي تعرض تصاميمه.

- عال سأدخل لكن ما به؟

جنان لديها طريقة في التهكّم لا نظير لها، ويرتفع منسوبها كثيراً في أوقات الكوارث والحروب، فلم تفصح تماماً ماذا يعني هذا الاسم لكنها أضافت ضاحكة:

- افحصي هندامك يا راوية فهذا الفنان لديه تنزيلات على ما أظن...

أطلقت ضحكة عالية وهي تغلق الهاتف. دخلت وتفرّجت على الكاتالوغ الخاص به. كانت (البلو آب) على أشدّها لديه. أجل اقتربت جداً فظهرت الصور أكبر من حجمها الحقيقي. هي عملية تقنية تظهر التصاوير بأحجام شديدة الغرابة لكنها ذات طاقة وحيويّة، كما فعلت أنت بتصاويري حين وصلتني كطرد في أحد الأيام، أخفيت ترهّل خدّيّ، والجيوب السوداء تحت عينَيّ، وتهدّل أجفاني، بذلت ما بوسعك لخداع نفسك أكثر مني، فشعرت بسوء حظّي أمام نفسي، وأنا أبدو هائمة خارج المدينة، والمدن، خارج السور والحصن، وخارج البداية والنهاية. لا أثر لي، وأيضاً لا أثر لك، لا لنصفي العراقي، ولا لنصفك الألماني، أنا وأنت نمثّل الكرة الأرضية، نصفها الجنوبي بالطبع. نحن الاثنين من النصف الجنوبي، وإذا اقتضت الحال فسيتركوننا في الخارج. هل كان عليّ تكبيرك كي أجعلك موجوداً في حياتي وأحبّك أكثر؟ هل تقتضي المصلحة والمرونة هذا التجاور ما بين أن تكون غنيمتي وبين أن أجعلك من المنتصرين، لكنك بعيد المنال. فأقول لا يهمّ

يا راوية فأيّ شيء تعطينني إياه سوف آخذه، وإلى هذه الساعة، أحاول القفز من المخطوطة، فأنا لا أعرف أصلًا، هل الذي لديك يكفي، يكفيني؟ سامحني إن قلت للتوّ يلزمني! يومذاك كانت لديّ فكرة غير درامية، أنني سوف أحبّك بصورة أفضل مما قمت به إلى اليوم. عموماً، كنت أظنّ أنني لم أحبّك بما يكفي، فليس هناك من غرام استوفى الشروط جميعاً، فلتبتعد كثيراً ولتناً...، لكن حين أخبرتني أنك قادم إلى باريس، وكان ذاك اليوم في الصيف الذي مرّ، وكأنه قبل التاريخ، ونحن الآن في يناير من عام ٢٠٠٧، فقد كنت أصرخ وأشتمك يومياً، فأنت لا أثر لك هنا، أجل هنا في هذه الشقّة، على أحدنا أن يكمل الأسوأ في النهاية. فنحن لم نضع أيّة علامة على وجودنا إلّا هذه المخطوطة، وهي في يدي، وأنا أحبّ يدي ولا أشك فيها، لكنها بدأت تتصلّب وتتشنّج كأصابع قدمَيّ، وهذا أمر رائج هذه الأيام، وعلى الخصوص للنساء المبتهجات المستوحشات من وجودهن. عال، أخبرني كم يلزمك من الوقت لكي تغادر إلى هنا، إليّ؟ وكم يلزمني مثله فأرفع سمّاعة الهاتف وأستعجلك، فأنت لم تحضر لكي تمضي وتختفي، لكنك تجيب حالًا:

- أنت ضدّ كل شيء، ومرات كثيرة أشعر أنك ضدّي.

- الحبّ هو ضدّ أمر ما، أو أحد ما، ألم ترَ الأمر كذلك يا بحر؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

. حتى لو .

هل تتابع يا بحر كما كانت جنان تكرّر بين حين وآخر:

ـ إن الأسلوب التقليدي لا ينفع معك.

ـ وكيف هو هذا الأسلوب؟

ـ عليك بالإهمال الموقّت، فلتكن شهوراً أكثر، لمَ لا؟ هي مجرّد ألعاب بصيغ مغرضة.

ـ وبعد...

ـ أنت يا ست راوية، كما تبدو الأمور اليوم، وكما يوحي صوتك الجنائزي، رفعت سقف السيّد بحر عالياً جداً، فلم تعودي قادرة على مشاهدته كما يجب. سامحيني، لا أعني أنه أسوأ أو أفضل. لكن ما معنى هذا الغياب؟ هل غادر لتوقيع العقد مع السيّد سلوان العبد، أم هو، ربما...

ليل انحازت قليلًا إلى جانبك، آنيتا قدّمتك لي بصور مشوّقة جداً، وجنان دائماً صارمة معي:

ـ ترتكبين الأخطاء الفادحة نفسها كلما أُغرمتِ، ها هل حضرت بقعته في الخزانة؟ أنت لست مضطرّة إلى الرأفة به، ضعيه

في معطف ثمين وارفعي ياقته عالياً، فهو يفضّل هذا النوع من الموديلات، أظنّ ذلك. دعي للمعطف حزاماً اربطيه من الخلف وتفرّجي عليه. ثقي يا راوية، هو هكذا، دائماً لديه شيء ما يمنعه من النظر أمامه. آه، هو رجل حقيقي في حياتك لكنه سيقفز إلى الخارج في أحد الأيام. فلماذا لا تدفعينه بطرف إصبعك.

أبلع نصف كلام جنان، ولا أصغي إلى النصف الآخر، فيصعد الدم إلى عينيّ فأراهما مقرّحتين داميتين دامعتين. أليس هذا وجهك، وأنا أرصّ أجزاءه رصّاً بين يديّ، أرطّب جبينه، وأدهن عظامه، وأجفّف دموعه التي كانت تبلّل كفّي؟ حياة يومية تامّة، وأنا أستيقظ في وجهك فأراك في وجهي، وأنت تفوّت الفرص فأضطرّ إلى إعادة الترتيب، أبدأ من السطر الأول، وأقول لك حسناً، ها أنا أجمع لك نفسي واسمي، رسمي وكسمي ما بين صدرك وذراعيك، أدّعي أمراً وأصدّقه. فكان بمقدورك القول: سأحضر من أجلك أنت لا من أجلي أنا، فالحبّ يتّسع للابتزاز والزلات والمخاتلة. هيّا، تماشياً مع ثأرك القديم والحديث فلتحضر بالطائرة، بالدرّاجة الهوائية، بالقطار، بالعربة التي تجرّها الخيول الهرمة، فلتأتِ ماشياً مهرولًا أو على نقّالة... اذهب إلى بائعة التذاكر واحضر فقط، ولا تهدّدني بالحضور، فلتحضرْ حتى لو كنت آخر الواصلين، فلن أكفّ عن الانتظار. فمنذ اليوم الأول وأنت تتأخّر، وأنا أرفع سقفك يوماً بعد يوم. جنان شعرت من تقديمي، وحديثي عنك، بعد يومين من عودتي من برايتون:

ـ أننا مغرمان. شيء أكثر من اللزوم، هو أمر فائض ويفيض.

تضحك وتقول:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ أوصافك له تدلّ على أنه مكركب جداً، وأنت...

ـ ها... ماذا؟

ـ أنت مكركبة فقط... ها ها...

*****

الحبّ يثقل كاهل المرء فيجعله هشّاً وقليل الحيلة، وها أنا لا أشهد أيّ نجاح معك لسوء الطالع، فلا الديباجة نافعة، ولا جميع تلك الإنشاءات في الشقّة كان لها لزوم، وكلما كنت تتأخّر ولا تتصل أحدث حالي هل عليّ أن أدبر ميتتك على أحسن الصور ما دامت حياتك تعسّرت إلى هذا الحدّ، ومحادثاتك تأخّرت كل هذه الشهور، فهذا المكان هو أيضاً صالح للموت، موتي وموتك. وهذا حديث غير مستحبّ قط لكنه يجاورني في المخطوطة هذه، ويختلط بين الريق والأرق. فما إن أمدّ يدي حتى أشعر أن بمقدوري ملامستك. كل ورقة كنت أدوّنها أجذبك إليها، وأطوي عليك أصابعي وضلوعي ومسامي كلها، وأنا أمضي، وأقف أمام خزانة الثياب نفسها، فأبصر بعناية محض مشاريع أفضت إلى غيري. وما إن أمدّ يدي وألمسها بسرعة خاطفة جداً حتى يُخيّل إلي أنها مجرّد توريات منغّصة، وكلما حدّقت أكثر كنت أموت معهم ثانية وثالثة فتتضاعف وحشتي. لن أضعك في الخزانة يا بحر. ستبدو ميتتك في ما بينهم متواضعة وشائعة، وربما مبتذلة. آه سأدعك تستلقي على السرير الذي سبق أن بدلت: الفرشة، اللحاف، البطانية، الوسائد، والرائحة، لكني لم أتعرّف على عاداتك في النوم بعد؟ وما إن أنتهي من جميع الترتيبات حتى أختلس النظر إليك جيّداً عبر جميع الصفحات، أفلّي كل كلمة،

وسطر، ومفردة كما لو كنت تلك المدينة، مدينتي التي ما إن أقلّبها حتى لا تعود معلومة تماماً قط. بحر، هذا دخول وتدخّل في سير المخطوطة، وأنا أراه ضرورياً، فبغداد لا تصلح للوداع، لا أحد بمقدوره أن يقول لها وداعاً، ستسمح بأن نتقاسم الغرام فتلاحظ فقري وعوزي. رجاءً، لا تسخر مني، فلا أحد بمقدوره أن يشرب نخبها، وقتذاك انتبهت، وأنا أنشد لها أنك نفرت وتضايقت، وأنا أستحضرها في الأناشيد، لكني لم أهتمّ حين قال هانز بصوت رصين، ونحن نحتفل في دارته بمدينة هوف:

ـ لا أحد يمتلك تلك المدينة، وأوّلهم أنت يا راوية، ثم التفت إليك وواصل، «مضحكون أولئك الذين يريدونها كبيرة بالكلمات».

من يدري، فمن الجائز يا بحر أننا كالمدن، بلمح البصر نبتر ونندثر، فبعض المدن لا تحتاج إلى أن يعيش المرء فيها، فهي لا تحتمل أبناءها، فماذا ينبغي أن نفعل، وإلى أين نأوي؟

«فلتنشد هذه الأغنية سنوات لا عدّ لها

فجرى إنقاذ قلّة قليلة

فعندما نهض من نومه صباحاً لم ينبس بسطر واحد،

ولم يزد عليه سطراً واحداً».

****

كُتبت بين ديسمبر ٢٠٠٧ وديسمبر ٢٠٠٩

باريس

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^